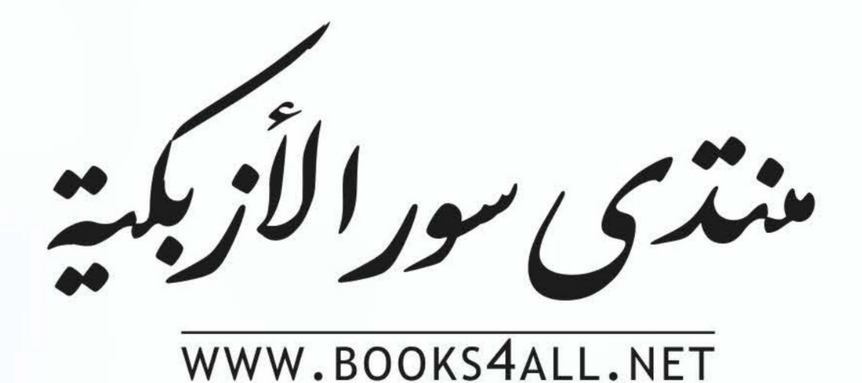
مملكة ميديا

د. أحمد محمود الخليل




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

مملكة ميــديا



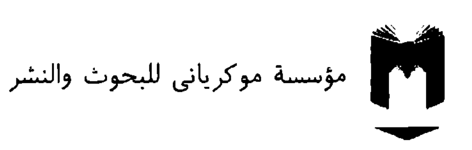
مملكـــة ميـــديا

الدكتور

أحمد محمود الخليل



اربيل- ٢٠١١



● **مملكة ميديا**

● تأليف: **احمد محمود الخليل**

● التصميم الداخلي: طـه حسين

● الغلاف: جيگر عبدالجبار

● السعر: (٢٥٠٠) دينار

● الطبعة الاولى : ٢٠١١

● العدد: ١٠٠٠

● المطبعة : مطبعة روزهةلات (اربيل)

رقم الايداع (٢٧٧٣٠) سنة ٢٠١٠ في المديرية العامة للمكتبات العامة

تسلسل الكتاب (٦٠٧)

الموقع: www.mukiryani.com
ئيميل: info@mukiryani.com

فهرس المحتوى



تقديـــــم

كتابة التاريخ شيء، وقراءة التاريخ شيء آخر، فكاتب التـــاريخ مهمتــه رصــد الأحداث، وتسجيلها وتوثيقها، والمفترض أن يكون التسجيل دقيقاً والتوثيق أميناً، وأن يستقي الكاتب معلوماته إما من مشاهداته وملاحظاته الشخصية إذا كـــان معاصـــراً للأحداث وشاهداً عليها، وإما من أشخاص شهدوا تلك الأحداث، وإما من مدوَّنات كتبها مؤرخون سابقون؛ وقد تكون تلك المدوّنات نقوشاً، أو نُصُباً حجرية، أو رُقُماً طينية، أو أدوات ومصنوعات أخرى، أو آثاراً فنية، أو كتباً، أو سجلاّت رسميـــة، أو مراسلات بين حكام الدول، إلخ.

أما قارئ التاريخ فمهمّته العودةُ إلى ما كتبه المؤرخون، وقراءتُه قـــراءة ودقيقـــة وعميقة وشاملة، ورصدُ الأحداث، وتمييزُ ما هو واقعي منها مما هو خرافي، وتصنيفُها ومقارنتها وتحليلها، واستكشافُ ما بين الأحداث من ترابطات وعلاقـــات بنيويـــة، والبحثُ عن الدوافع والعوامل؛ سواء أكانت ذاتية أم موضوعية، وتأكيدُ ما يـــستحق التأكيد، وترجيحُ ما يستحق الترجيح، واستبعادُ ما لا يقبله المنطق ويتناقض مع الواقع.

وكاتب التاريخ، وكذلك قارئ التاريخ، أحد رجلين:

- إما أنه ينطلق في كتابته وقراءته من أيديولوجيا معيّنة (قبَلية، قوميـــة، دينيـــة، سياسية، إلخ)، فيحرص على إبراز ما يتوافق مع خطه الأيديولوجي ويخـــدم أهدافـــه، وتغييب كل ما لا يتوافق معه، ويتعارض مع أهدافه.
- وإما أن ينطلق في قراءته من رؤية معرفية موضوعية نقية ونبيلة، ويكـــون هدفـــه الأساسي خدمة التراث البشري والثقافة الإنسانية عامة، فيحرص جاهداً على أن يعـــرف الأمور ويقدّمها كما هي، من غير تحريف ولا تزييف، ومن غير تفخيم ولا تقزيم.

والحقيقة أنني في هذا الكتاب قارئ للتاريخ، وباحث عن المعلومات، وساعٍ إلى معرفة الحقائق كما هي، وصحيح أن قراءتي تنصبّ في الدرجة الأولى على تاريخ الكرد في غربي آسيا، لكن حرصت على ألاّ أقع في أسر (النرجسية القومية)، ولم أفسّر تاريخ هذه المنطقة كردياً، ولم أصرف النظر عن التلاحم الوثيق بين تاريخ الكرد وتواريخ الشعوب الأخرى في المنطقة، كما أنه لم يكن في نيّتي قطّ- ولن يكون- أن أجعل الكرد محور حركة التاريخ في المنطقة، وأضع الأكّاديين والبابليين والآشوريين والسريان والفرس والعرب والأرمن والترك على الهامش.

وقد توجّه اهتمامي في هذا الكتاب إلى الميديين، وهم أحد فروع الأسلاف الذين تشكّل منهم الشعب الكردي بتكوينه القومي والثقافي المتجانس منذ ألفي عام على الأقل، وهذه حقيقة تاريخية اتفق عليها معظم المؤرخين المهتمين بدراسة تاريخ غربي آسيا. وصحيح أن فترة الحكم الميدي كانت أقصر من فترة حكم الفروع الأخرى التي نشأ منها الكرد (لوللو، گوتي، كاشّو، سوبارتو، ميتّاني، مانناي، خَلْدي)، لكن أهمية مملكة ميديا ناجمة عن قيامها بدورين: الأول توحيد الجغرافيا التي كان يسكنها أسلاف الكرد، والثاني توحيد اللغة والثقافة عامة في المنطقة التي عُرفت لاحقاً باسم (كردستان).

وفي التاريخ الميدي انصبّ اهتمامي على ملوك ميديا ورجالاتها البارزين الآخرين، وقدّمتهم بحسب ترتيب وَفَياتهم، وصحيح أن صناعة أحداث التاريخ ليست مقتصرة على النخبة، لكن الحقيقة أن النخبة في كل عصر هم الذين يقودون الشعوب في دروب التاريخ، ولا سيما في العصور القديمة، وغالباً ما تكون الأحداث الكبرى من صنعهم هم، متوحّدين في ذلك بالجماهير، متمثّلين لها، مستعينين بها.

وقد بدأت الكتاب بمدخل، تناولت فيه الميديين إثنياً وميديا جغرافياً، ثم أتبعت المدخل بأحداث قيام مملكة ميديا، وصراعها ضدّ إمبراطورية آشور، ودورها المهم في إسقاط تلك الإمبراطورية عام (٦١٢ ق.م)، وتحرير غربي آسيا من سطوتها، ثم

سقوط المملكة نفسها على أيدي الفرس الأخمين عام (٥٥٠ ق.م)، واستعرضت في النهاية معلومات تتعلق بمملكة ميديا على الصعيد الحضاري العام، مع مقاربات وإضاءات موجزة، ورأيت من المفيد أيضاً تزويد الكتاب ببعض الخرائط ذات العلاقة بالموضوع، يقيناً مني بأن كل حديث عن التاريخ يبقى منقوصاً، وأحياناً عقيماً، ما لم يرتبط بالجغرافيا؛ إذ لا تاريخ من غير جغرافيا، وأقترح على القارئ أن ينظر في الخريطة التي لها علاقة بالأحداث، ستصبح الأمور عندئذ أكثر وضوحاً.

وأخيراً أشكر ولدي جوان لقيامه بتنسيق الخرائط، وآمل أن يسهم هذا الكتاب في إغناء المكتبة الغرب آسيوية خاصة، والمكتبة الإنسانية عامة. وبالله التوفيق.

أحمد محمود الخليل

الأربعاء ٩ – ٩– ٢٠٠٩

١

غربي آسيا: جغرافيا وشعوب

جوهر التاريخ

يقوم التاريخ البشري على ركنين هما: الإنسان، والمكان؛ لذا لا يمكن فهم التاريخ فهماً واقعياً دقيقاً إلا بفهم العلاقة بين الإنسان والمكان، وللتأكد من هذا الأمر لسنا بحاجة إلى استعراض النظريات، ولا إلى الغوص في الفلسفات، وإنما يكفي أن نحذف الإنسان وما قام به من أحداث، ونحذف المكان (الجغرافيا) الذي تفاعلت فيه تلك الأحداث، ثم نتساءل: ماذا يبقى من التاريخ البشري؟ لا شيء على الإطلاق.

وتؤكد الدراسات الجيولوجية أن الأرض لم تكن في غابر الأزمان على النحو الذي هي عليه الآن، وإنما مرت بأحوال مناخية دورية سُمّيت (العصور الجليدية)، فكان المناخ الجليدي يبدأ بالظهور، ثم يتنامى ويهيمن على المكان، ثم يبدأ الدفء بالظهور، ويشرع المناخ الجليدي بالانحسار نحو الشمال والجنوب. وفي كل عصر جليدي كانت الكائنات أمام أحد مصيرين: إما التأقلم مع التبدلات المناخية والاستمرار في (البقاء). وإما عدم التأقلم والتعرض لحتمية (الفناء)؛ وإن انقراض الديناصورات وأصناف الماموث خير شاهد على ذلك.

ولم تكن التبدلات المناخية الدورية وحدها هي المؤثّرة في مصير الكائنات، وإنما كان للأزمات المناخية الطارئة أيضاً تأثيرها الشديد في هذا المجال، ومنها الزلازل والبراكين والأوبئة والتصحّر، وكنا- نحن البشر- من الكائنات التي امتلكت خاصية التأقلم مع الحالين (التبدلات المناخية الدورية، والأزمات المناخية الطارئة)، وكانت

عملية الهجرة (الهروب من المكان الطارد، واللجوء إلى المكان الواعد) هي التي توصلنا معظم الأحيان إلى برّ الأمان، وتتيح لنا الاستمرار في (البقاء).

وبناء على ما سبق لا داعي إلى الخجل من الإقرار بأن تاريخ البشرية يبدأ- إلى حد كبير- من الحاجة إلى الغذاء باعتباره من أهم أسباب البقاء، وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن أن نفسر معظم ما في تاريخ البشرية من نشاطات حضارية، ومن أديان وفلسفات، وعلوم واختراعات، وعلاقات وسياسات، وحروب واحتلالات وغير ذلك، ولولا وقوع الجنس البشري تحت وطأة متطلبات البقاء/الغذاء، لكان للتاريخ مسار آخر مختلف تماماً عن المسار المعهود؛ تلك هي الحقيقة، وقد تكون مُرّة ومزعجة، لكن لا مفرّ لنا من تقبّلها بروح واقعية علمية.

وكان من أول شروط الحصول على الغذاء الهربُ من الجغرافيا الأسوأ، والانتقال إلى الجغرافيا الأفضل، وهذا الشرط هو الذي يقف وراء الصراع منذ الأزل على امتلاك (الجغرافيا الأفضل)، وكان هذا الصراع قائماً بين الأفراد والجماعات والقبائل والقوميات والدول والإمبراطوريات، مع اختلاف في طريقة إخراج ذلك الصراع من حيّز الرغبة إلى حيّز الفعل، وفي الكيفية التي يدار بها كل مرة. وانسياقاً مع هذا الشرط القاهر حدثت كل الهجرات والتهجيرات في التاريخ البشري، وبتأثير منها استقرت الشعوب في مواطنها التي هي فيها الآن، ولأجلها اختُرعت الأسلحة، بدءاً من العصي وسكاكين الصوّان، ومروراً بالسيوف والرماح والسهام والبنادق والمدافع والدبابات، وانتهاء بالقنابل الذرية.

وقد قال وِل ديورانت ذا مرة: "**التاريخ كتابٌ يجب أن يبدأه الإنسان من الوسط**"[1]، وهذه هي الحقيقة في التعامل مع التاريخ، إذ لا توجد على الدوام وثائق أكيدة حول بداية تاريخ جماعة بشرية، سواء أكانت قبيلة أم شعباً أم عرقاً، وإنما ثمة ظنون وترجيحات، والمشهور أن الجنس البشري ظهر منذ حوالي مليون سنة، وقد تُغيّر

1- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٣٩٩.

الاكتشافات العلمية هذا الرقم صعوداً أو هبوطاً، لكن ذلك لا يُفقدنا حق الوقوف عند السؤال الآتي: كم من السلالات البشرية احتفظت، على الدوام، بالمكان الذي ظهرت فيه أول مرة؟ إنها سلالات محدودة جداً، هذا إذا لم تكن معدومة، فقد كان البشر مضطرين دائماً إلى الانزياح عبر المكان (الجغرافيا)، ومع تكاثرهم في نطاق جغرافي معيّن أخذ الانزياح صورة (الانتشار)، ومع تنافس المجموعات البشرية على (المكان الأفضل) أخذ الانزياح صورة (الاحتلال).

وقسّم المؤرخون الشعوب إلى مجموعات أهمها: الشعوب الآريّة (الهندو- أوربيّة)، والشعوب الساميّة، والشعوب الحاميّة، والشعوب الأورال ألطائيّة، وشعوب جنوب شرقي آسيا، وشعب الإسكيمو، وذكروا أن الشعوب الآريّة تضم الأوربيين والأمريكيين، والسلاف، والأرمن، والفرس، والكرد، وآخرين، وذكر جيمس هنري برستد، أن مصطلح (الآريين) يطلق على الفرع الشرقي من الشعوب الهندو-أوربية، وهم: الأرمن، والفرس، والميد، والبُلوش والباشْتو، وغيرهم ممن استقر في أفغانستان وشمالي الهند. أما الأوربيون والأمريكيون فهم من الفرع الغربي؛ أي أن الآريين هم أبناء عمومة الأوربيين، وليسوا أجدادهم[1]

وكلمة (آري) في اللغة السنسكريتية تعني (نبلاء، أشراف)، وتسمّى جغرافيا التكوين الآريانية باسم (آريانا فيجا/فيجو)، ومعناه (الوطن الآري)، ويفيد معظم المؤرخين أن مهد الشعوب الآرية (الهندو أوربية) The Indo- Euroean كان يقع في أوراسيا (مناطق التقاء قارتي آسيا وأوربا)، وتحديداً شرقي بحر قَزْوين، وذكر ول ديورانت أن (زَنْد أَفِسْتا)، وهو الكتاب الزردشتي المقدس، يأتي على ذكر هذا الموطن القديم، "**ويصفه بأنه جنّة من الجنان**"[2] فهناك تحدّ جبال تيان شان وجبال ألتاي أقاليم الإستبس من ناحية الشرق، وتفصلها عن الهضبة المغولية الممتدة شرقاً، وكانت تلك

1- جيمس هنري برستد: انتصار الحضارة، ص ٢٤٥ – ٢٤٦.

2- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٣٩٩.

الجبال حاجزاً طبيعياً بين بيئتين وحضارتين مختلفتين: بيئة وحضارة توران شرقاً، وبيئة وحضارة آريان غرباً.

وقد اكتشف الأمير الروسي بيير كروپوتكين Pierre Kropotkine في سهول وسط آسيا غابات واسعة يابسة، واستدل منها على أن تلك المنطقة عانت من أزمة مناخية حادّة خلال الألف الثالث ق.م؛ أي أن المكان أصبح معادياً وطارداً، و لم يعد يتيح لسكانه إمكانية البقاء على النحو الأفضل، وطبعاً كان الحل هو الانزياح من (المكان الطارد)، والانتقال إلى (المكان الواعد)، فتوجّه بعض الآريين جنوباً نحو شمالي شبه القارة الهندية، وتوجّه آخرون نحو غربي آسيا، وتوجّه فريق ثالث شمالاً وغرباً نحو أوربا الشرقية فالغربية.

وكانت التضاريس الغالبة على جغرافيا التكوين الآرياني (الهندو أوربي) جبلية أو سفحية، وكانت أحياناً أراضي منخفضة متاخمة للمرتفعات، وكانت تحظى بالريّ الكافي والمراعي الكثيرة، وأدّى ذلك إلى وجود اقتصاد قائم على منتجات الألبان وزراعة الحبوب، ويمكن تسمية حضارة بلاد آريان باسم (حضارة الماشية)[1]

وقال بونغارد- ليفين في وصف مهد الآريين:

"يجري رسم إيكولوجيا موطن الأجداد الهندو أوربي؛ بموجب المفردات الهندو أوربية السلفية التي رمّمها اللغويون؛ والخاصة بالتضاريس والمناخ وعالم النبات والحيوان، وتصف معطيات علم اللغة الخاصة بالبيئة الإيكولوجية لموطن الأجداد الهندو أوربي هذا الموطن بأنه بلد ذو تضاريس جبلية، وشبكة متشعّبة من الأنهار، وطقس معتدل، وتشابك نباتي مدهش، مما لازم المناطق الجنوبية والمعتدلة"[2]

وأضاف بونغارد يقول:

"إن التضاريس الجبلية لموطن الأجداد الهندوأوربي أمرٌ أكّده عدّة باحثين، وبعد ظهور دراسات غامكريليدزه وإيڤانوف لم يعد يثير الشك، فإن القائمة التي وضعاها

1- رالف لنتون: شجرة الحضارة، ٢/١٦٢. بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٢٧٣.

2- بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٢٧٣

للمفردات الهندو أوربية السلفية تقنعنا بأن الهندو أوربيين كانوا يقيمون في مناطق جبلية أو سفحية (قمة الجبل)، جبل، صخرة، حجرة، (جبل، هضبة)، (عال)، (بلوط)، (صخرة)، (بلوط جبلي)، (ريح شمالية جبلية)"[1]

أما السهوب المغولية فكانت أكثر جفافاً، وفيها مناطق واسعة جدباء مثل صحراء جوبي Gobi، وكانت في الوقت ذاته كافية لرعي الأغنام والجمال والخيول. ولما كان الجواد أهم تلك الحيوانات شأناً في الاقتصاد المحلي، ففي استطاعتنا أن نطلق على حضارة هذه المنطقة اسم (حضارة الخيل)، وكانت الصراعات تنشب بين الأقوام الآرية والأقوام التورانية (المغولية)، ويبدو أن الآريين اكتسبوا طريقة استخدام الخيل في الركوب والحرب من التورانيين[2]

خصائص حضارية آرية

فصّل ول ديورانت القول في الحديث عن الآريين الذين هاجروا إلى شمالي الهند، وما ذكره عنهم يفيد في معرفة أحوال الآريين بشكل عام، وقد ذكر أن الآريين كانوا ذوي أجسام قوية، وشهيّة عارمة للطعام والشراب، وذوي بأس وشجاعة في الحروب، وكانوا يحاربون بالقسيِّ والسهام، يقودهم مقاتلون مدرَّعون في عربات حربية، أدواتهم في القتال هي الفؤوس إن كانوا على مقربة من العدو، والحراب يقذفون بها إن كانوا على مَبْعدة منه، وكانوا من الأخلاق البدائية على درجة لا تسمح بالنفاق.

وذكر ول ديورانت أيضاً أن الآريين الذين غزوا شمالي الهند تحوّلوا من ممارسة الحرب إلى زراعة الأرض والاستقرار فيها، وشكّلت قبائلهم بالتدريج دويلات، يحكم كلاً منها ملك يقيّده مجلس من المقاتلين، وكلُّ قبيلة يقودها (راجا)، أو رئيس يحدّد قوته مجلس قبلي، وكلُّ قبيلة تتألف من جماعات قروية مستقلٍّ بعضُها عن بعض

1- المرجع السابق نفسه.

2- رالف لنتون: شجرة الحضارة، ٢/١٦٢. هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٢/٣٠٩.

استقلالاً نسبيّاً، ويحكم الجماعة القروية مجلسٌ من رؤوس العائلات، ويُروى عن بـوذا أنه قال لصاحبه المقرَّب جداً (أناندا):

"هل سمعت– يا أناندا– أن الفاجيين يجتمعون عادة ليتشاوروا في الأمر قبل الحسم فيه، وأنهم يرتادون الاجتماعات العامة التي تعقدها قبائلهم؟ فما دام الفاجيون– يا أناندا– يجتمعون هكذا عادة، ويرتادون الاجتماعات العامة التي تعقدها قبائلهم، فتوقّع منهم ألا يصيبهم الانحلال، بل يصيبهم النجاح"[1]

وكان البناء الاجتماعي عند الآريين (الهندوأوربيين) يقوم على التمييز والتدرج بين الوظائف الثلاث: الكهّان، والمحاربون، والمنتجون (الرعاة)، وكان نظامهم الاجتماعي قَبَلي الطابع، شأنهم في ذلك شأن معظم المجتمعات القديمة، وقال رالف لنْتون بشأن النظام القَبَلي الآري:

"أمّا رئيس القبيلة الآرية فلم يكن إلاّ زعيم أغنى وأهمّ عائلة في القبيلة، وكان بيت زعيم القبيلة كبيت أيّ رئيس عائلة، فيما عدا أن بيته كان أكبر حجماً، وفيه عدد أكبر من الأتباع المتطوعين، وكان الكثيرون من هؤلاء الأتباع من بين الأقارب البعيدين للزعيم، ولكن كثرة عدد الرجال كانت على درجة كبيرة من الأهمية"[2]

وقد قال الدكتور فيليب حتّي وزميلاه متحدّثين عن تدجين الخيل:

"ويرجع الفضل في تدجينها إلى الشعوب الآرية، فقد كان منهم في الأزمان القديمة رعاة من القبائل الهندية– الأوربية يتنقلون في الأراضي الواقعة إلى الشرق من بحر قَزْوين، وكانوا أوّلَ من دجّن الخيل، ثم استوردها بعد ذلك الكاشّيون والحثّيون على نطاق واسع، وانتقل هذا الحيوان بواسطتهم إلى آسيا الغربية قبل الميلاد بنحو ألفي عام، ثم أُدخل قبل العصر المسيحي من سورية إلى الجزيرة العربية،

1- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢١/٣.

2- رالف لنتون: شجرة الحضارة، ص ١٥٤ وانظر صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٣٠٤.

ونقل الهكسوس (الرعاة) الحصان من سورية إلى مصر، ونقله الليديون من آسيا الصغرى إلى اليونان"[1]

لكن للمؤرخ هـ. ج. ولز رأي آخر، فقد ذكر أن مغول العصر الحجري الحديث كانوا شعباً من الفرسان راكبي الخيول، في حين كان آريو العصر الحجري الحديث يستخدمون البقر[2]. وهذا يعني أن الشعوب التورانية- ومنهم المغول- كانت سبّاقة إلى تدجين الخيل، وقد فعلت عوامل الجوار والصراع فعلها بين الآريين والتورانيين، فأخذ الآريون عن التورانيين تدجين الخيل، وحينما انتشروا نحو أوربا وغربي آسيا، نقلوا معهم الخيول إلى البلاد التي حلّوا فيها، واستخدموها في الحروب.

وفي جغرافيا التكوين (آريانا فيجو) نشأت اللغة الآرية المشتركة، وظهر طابعها الهندوإيراني منذ عام (١٨٠٠ ق.م)، وهذا واضح في كلمات مشتركة كثيرة، منها الكلمة الكاشّية شورياش (سورياس الهندية) تعبيراً عن الشمس، فضلاً عن عدد من أسماء الأعلام في الأناضول ترجع إلى ما يقرب من ذلك الزمان، ثم ظهرت بعد أربعة قرون (حوالي ١٤٠٠ ق.م) أسماء آلهة هي ميِترا، وڤارونا، وإنْدرا، وناساتيا[3]

وفي عام (١٧٨٦ م) أشار الحقوقي والمستشرق الإنجليزي جونس، في تقرير ألقاه في الجمعية الآسيوية في كُلْكُتا بالهند، إلى الصلة بين السنسكريتية واليونانية واللاتينية والسلتية والغوطية (القوطية) والفارسية القديمة، كما أشار إلى التوافق المنتظم بين الكثير من المؤشرات النحوية في هذه اللغات. وإن التشابه بين الصيغ النحوية فضلاً عن الجذور والأصول يدل بلا شك على أن كل هذه اللغات تعود إلى مصدر مشترك ربما لم يعد موجوداً[4]

1- فيليب حتّي وآخران: تاريخ العرب، ص ٤٧ – ٤٨.

2- هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣١١/٢.

3- صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٢٩٣.

4- بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٢٥٠.

وكذلك في جغرافيا التكوين نشأت عقائد الشعوب الآرية بصيغها الميثولوجية المتنوعة، ومن المظاهر البارزة في ديانة الآريين أنه لم يكن في تلك الديانة آلهة من الحيوانات أو شياطين على صورة الحيوانات؛ وكانوا يتصوّرون كائنات مثل (روح الثور) Ox Spirit في بلاد فارس القديمة، على الأرجح، في شكل غير حيواني[1]

وكانت الشعوب الآرية تحرق موتاها، وهي عادة لا يزالون يراعونها في الهند، غير أن أسلاف الآريين، أصحاب القبور المستطيلة، كانوا يدفنون موتاهم راقدين على جنوبهم في هيئة الجالسين. وبإحراق جثث الموتى كان الآريون يعتقدون أن ذلك يحطم الروابط التي تربط الموتى بالأرض تحطيماً كاملاً، وتحول دون رجوع الأشباح، وكما هو متوقّع في مثل هذه الظروف فإنهم لم يعرفوا عبادة الأجداد، ويبدو أن جميع الآريين كانوا يعتقدون وجود القضاء والقدر، ويرون فيه شيئاً غير مجسَّد، يفوق كلاً من الآلهة والبشر، ولا يمكن أبداً أن يتأثر بتلاوة الصلوات أو بتقديم القرابين أو حتى بالسحر، وظلّ كثير من العقائد الآرية باقياً في الزردشتية[2]

1- رالف لنتون: شجرة الحضارة، ص ١٥٨.

2- هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣١٢/٢. رالف لنتون: شجرة الحضارة، ص ١٥٨

٢

التنافس الآري- السامي

في عهود القنص والرعي كانت السهوب وسفوح الجبال هي (الجغرافيا) الفضلى للحياة، لكن مع تزايد السكان، واكتشاف إمكانية إنبات البذور للحصول على الغذاء، انتقلت البشرية إلى العهد الزراعي، وأصبحت السهول وأحواض الأنهار هي الأمكنة الصديقة الواعدة، ولذا أصبحت سهول جنوبي بلاد الرافدين (جنوب العراق حالياً)- وهي متاخمة شرقاً لسفوح جبال زاغروس[1]، ومتاخمة غرباً وجنوباً لبلاد العرب- المكانَ الذي يستقطب الشعوب الجبلية والصحراوية المجاورة.

وكان السومريون أقدم شعب جبلي الأصل ترك بصماته في معالم غربي آسيا، وقد انحدروا من جبال زاغروس في الشمال، بحثاً عن الغذاء الأوفر، وربما هرباً من ضغط قبائل آرية أخرى، واستوطنوا سهول بلاد الرافدين، حيث التربة الخصبة والمياه الوافرة، وكان ذلك قبل لا أقل من حوالي (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد[2]، وربما أكثر، ويتفق المؤرخون على أن السومريين ليسو ساميين قطعاً، والأرجح أنهم آريون، وقد تكون لهم صلة إثنية ما بالكرد؛ نظراً لانتمائهم جميعاً إلى العرق الآري وإلى بقعة

1- سلسلة جبلية ضخمة وطويلة تقع في غربي آسيا، وتمتد من جبل آرارات في الشمال الغربي (بين إيران وأرمينيا وتركيا)، وتقترب من الخليج الفارسي (العربي) في الجنوب الشرقي (داخل إيران)، وهي تشكل، مع سلسلة جبال طوروس، العمود الفقري لبلاد الكرد.

2- يقع عصر دول المدن السومرية بين (٢٨٠٠ – ٢٣٧٠ ق.م).

جغرافية مشتركة، ولِما بين اللغتين السومرية والكردية من تشابه في بعض المفـــردات والصيع، سواء أكان ذلك في المجال الميثولوجي أم في مجال الحياة العادية، وعلى أية حال إن الدراسات الجادة كفيلة بالبتّ في هذا الموضوع مستقبلاً.

وفي الجنوب الغربي من بلاد الرافدين كانت القبائل البدوية السامية تجوب البراري الشاسعة في شبه الجزيرة التي عُرفت بعدئذ باسم شبه الجزيرة العربية، وكانـــت تلـــك الأرض مناسبة لتلبية متطلبات المعدة حينما كانت تحظى بنسبة معقولة من الأمطـــار، وبغطاء نباتي مناسب لتربية الحيوانات، لكن تراجع نسبة الأمطار رويداً رويداً أدّى إلى تراجع الغطاء النباتي، وتحولت تلك المساحات إلى (جغرافيا الجـــوع)، ومعـــروف أن الجوع وانعدام الأمن رفيقا درب طوال عهود التاريخ، وكذلك كانا في شبه الجزيـــرة العربية، ولا سيما مع تكاثر السكان وقلّة الموارد.

وكان من الطبيعي أن تتجه بعض القبائل السامية إلى (جغرافيا الشّبَع) على التخوم الشمالية الشرقية من بلادها؛ أقصد بلاد النهرين، وكان الأكّاديون هم الطليعة السامية التي بدأت ذلك الزحف، وكان ذلك قبل لا أقل من (٢٥٠٠) ألفين وخمسمئة ســـنة قبل الميلاد، واستقرت القبائل الأكّادية بدايةً في غربي نهر الفرات، بجوار المناطق التابعة لدول المدن السومرية في أرِيدو ونِيپور وأُور وغيرها.

وتعلمت القبائل الأكّادية من السومريين كيف تنظم نفسها، وتنتقل مـــن نظـــام القبيلة إلى نظام الدولة، ثم توحدت تحت قيادة سرجون، وخاضت الصراع ضـــد دول المدن السومرية، وسيطرت عليها، وأسست أول دولة سامية في بلاد الرافـــدين، هـــي مملكة أكّاد (٢٣٧٠- ٢٢٣٠ ق.م)، بل امتد النفوذ الأكّادي إلى عيلام أيضاً[1]

غير أن الشعوب الآرية في جبال زاغروس وأطرافها أعادت الكرّة على جنوبي بلاد الرافدين، وكان شعب غوتي (گوتي، جودي) هو الرائد والقائد هذه المـــرة، وســـيطر الگوتيون على سومر وأكّاد حوالي قرن من الزمـــان (٢٢٣٠ – ٢١٢٠ ق.م)، وفي

1- رينيه لابات وآخرون: سلسلة الأساطير السورية، ص ١٤.

رواية حوالي (٩١) سنة، ثم انسحبوا إلى جبالهم ثانية، تحت ضغط قوة سومرية أكّادية جديدة، قادها أور- نمو Ur- Nammu السومري (٢١١٢ – ٢٠٩٥ ق.م)، مؤسساً سلالة أور الثالثة (٢١١٢ – ٢٠٠٤ ق.م)[1]

وقد توالت هجرات بعض الفروع الآرية، واستقرت في غربي الهضبة الآريانية وجنوبها الغربي، وتحديداً في جبال زاغروس والمناطق المتاخمة لها، وظهرت أخبارها في عهود متواكبة تارة، وفي أزمنة متلاحقة أحياناً، وكان ذلك مرهوناً بالمرحلة التاريخية التي كان يلمع فيها اسم كل فرع سياسياً، فتشير إليه المدوَّنات السومرية أو الأكّادية أو البابلية أو الآشورية أو الحِثّية أو المصرية، وتمازجت تلك الفروع الآرية عبر القرون في مختلف مناطق كردستان الحالية، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ثم توحّدت سياسياً وحضارياً تحت راية الفروع البارزة التي أسّست دولاً قوية؛ مثل لوللو، وگوتي، وكاشّو (كاسيت)، وميتّاني Mittani (حُوري)[2]، وسوباري، وخَلْدي (أورارتو/نايري).

ثم سيطر ساميون جدد على بلاد الرافدين، وبدأ العصر البابلي القديم (٢٠٠٠ – ١٥٩٥ ق.م)، واتخذوا بابل على الفرات (شمالي سومر وأكّاد) عاصمة لهم، وكما هي العادة بسط البابليون نفوذهم على المناطق الشرقية في عيلام و گوتيوم. لكن فرعاً آرياً جديداً متمثلاً في الكاشّيين (كاسّي/كاسّيت) زحف من الجبال، وشنّ الهجوم على بابل، وسيطر عليها ربما في عهد الملك الكاشّي آكومي الكبير (١٧٢٥ – ١٧٠٤ ق.م)، وظل الكاشّيون مسيطرين على بلاد بابل إلى حوالي سنة (١١٦٠ ق.م)، أي حوالي ستة قرون، إلى أن أزاحهم الآشوريون عن السلطة وحلّوا محلهم[3]

1- سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ص ٩٦. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/٥٥. دياكونوف: ميديا، ص ١١٠، ١١٧– ١١٨.

2- ذكر جرنوت فيلهلم أن المملكة الحورية العظمى التي نشأت في القرن (١٦ ق.م) عُرفت باسم مملكة مَيتّاني، ثم حُوّر اللفظ إلى (مِيتّاني). جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٨.

3- دياكونوف: ميديا، ص ١٢٧. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٦٨.

وقد أصبح الآشوريون قوة إقليمية منذ التقاء القرن (١٩ ق.م) بالقرن (١٨ ق.م)، والمشهور أن الآشوريين شعب سامي، قدم إلى بلاد الرافدين من الغرب (من سوريا)، ومن الباحثين من يعدّه آري الأصل سامي اللغة والثقافة، ومهما يكن فقد أحكم ملوك آشور قبضتهم الحديدية على غربي آسيا، من بحر قزوين شمالاً وشرقاً، إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط جنوباً وغرباً، وأرهقوا شعوب غربي آسيا بقسوتهم غير العادية، ثم مروا بفترة ضعف وصلت إلى أوجها في القرن (١٥ ق.م). غير أن آريين جدداً هم الميتّانيون (الحوريون) وقفوا ضد آشور في القرن (١٥ ق.م)، وصاروا من جملة سادة غربي آسيا المنافسين للحثّيين في آسيا الصغرى، وللمصريين في سوريا.

وقد أدّت الصراعات المستمرة بين الحثّيين والميتّانيين إلى إضعاف النفوذ الميتّاني، فانتهز ملوك آشور الفرصة، واستعادوا قوتهم ونفوذهم، فسيطروا على الموقف في غربي آسيا من حوالي سنة (١٣٦٠ ق.م) إلى سنة (٦١٢ ق.م)[1]، وقضوا على النفوذ الميتّاني، وأعادوا سلسلة الغزو والبطش والتنكيل بالشعوب، ولا سيما البطش بأجداد الكرد في الجبال الواقعة شرقي بلاد الرافدين وشماليها، باعتبار أن هؤلاء كانوا متحصّنين في جبالهم الوعرة، وكانوا مصدر المتاعب والقلاقل للسلطات الآشورية، بل كانوا يقومون، أحياناً كثيرة، بثورات تهدّد النفوذ الآشوري في المنطقة.

1- سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٦٩ – ٧٠.

٣

التكوين الميدي جغرافياً وإثنولوجياً

جغرافيا التكوين

لا تاريخ من غير جغرافيا، ولا مبالغة في أن الجغرافيا هي العامل الأكبر في صناعة التاريخ، وقد مر أن المناطق السهلية المتاخمة لجبال زاغروس شرقاً، ولبلاد العرب غرباً، كانت ساحة تنافس بين الشعوب الآرية والشعوب السامية، كما أنها كانت في الوقت نفسه ساحة تنافس داخلي بين فروع كل واحدة من السلالتين، ومع منتصف القرن (٨ ق.م) انكشف الموقف في تلك المنطقة عن ظهور قوتين متنافستين: قوة آشورية إمبراطورية مهيمنة ذات ثقافة سامية، وقوة ميدية ناهضة ذات ثقافة آرية.

وقد اقترن الحضور الميدي بأضخم سلسلتين جبليتين في غربي آسيا:

- **الأولى سلسلة جبال زاغروس** الممتدة من تخوم الخليج الفارسي (العربي) في الجنوب الشرقي، والمتوجّهة نحو الشمال الغربي، وفي هذه السلسلة، وخاصة في قسمها الأوسط نشأت ميديا المركزية حوالي منتصف القرن الثامن ق.م.
- **والثانية سلسلةُ جبال طوروس** الممتدة من جنوب شرقي خليج إسكندرونه في الغرب، والمتجهة شرقاً لتلتقي بالقسم الشمالي من سلسلة جبال زاغروس حوالي بحيرة (وان)، ولتتشكل من اجتماع السلسلتين جبال آرارات في الشمال على تخوم القوقاز، وكانت جبال طوروس تشكّل الجزء الأكبر من جغرافيا القسم الشمالي في ميديا الكبرى.

وبالعودة إلى جغرافيا بلاد الكرد (كردستان) الآن يتضح أن الحضور الكردي الأكثر كثافة يوجد في هاتين السلسلتين الجبليتين (زاغروس وطوروس) وعلى تخومهما، ومن هنا جاءت مقولة باسيلي نيكيتين "**الكردي والجبل لا ينفصل أحدهما عن الآخر**"[1]؛ وهذا يعني أن الكرد يقيمون على الجغرافيا ذاتها التي استقر فيها أجدادهم الميد، والتي نشأ عليها التكوين النهائي للشعب الكردي في ظل مملكة ميديا، وجدير بالذكر أنه في هذه الجغرافيا نشأت واحدة من أقدم حضارات غربي آسيا؛ هي (حضارة حَلَف) Halaf التي يمتد تاريخها بين (٦٠٠٠ – ٥٠٠٠) سنة قبل الميلاد[2] يقول جيمس ميلارت:

"**لقد انتشرت هذه الحضارة على شكل قوس من نهر الفرات إلى الزاب الأكبر، وبينما كانت الحدود الجنوبية لهذه الحضارة محددة بشكل دقيق، فإنه من المحتمل أن تكون جبال طوروس حدودها الشمالية، مع جيوب منتشرة هنا وهناك في الهضبة الأناضولية إلى الشمال من هذه الجبال**"[3]

وأضاف جيمس ميلارت قائلاً:

"**تعتبر حضارة حَلَف من الحضارات النشيطة بشكل خاص، ومن المحتمل أن يكون الذين أسسوا هذه الحضارة هم القادمون الجدد من المناطق الشمالية، وهناك احتمال بأن تكون منطقة الرافدين التركية هي الموطن الأصلي لهذه الحضارة**"[4]

وبتدقيق النظر في جغرافيا المنطقة التي قامت فيها حضارة حلف يتضح- دونما شك- أنها تقع في صميم الوطن الميدي (كردستان حالياً)، وهذا يعني أن الوطن الميدي كان من أُولى مناطق غربي آسيا التي نشأت فيها المجتمعات البشرية، ونجد صدى ذلك واضحاً في

1- باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٨٨.

2- Mehrdad Izady: The Kurds,P 25-26.

3- جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ص ١٥٧

4- المرجع السابق نفسه. والمقصود بعبارة (منطقة بلاد الرافدين التركية) بلاد الكرد في جنوب شرقي تركيا حالياً.

التوراة من خلال الإشارة إلى (جنّة عدن) حيث ينبع نهرا دجلة والفرات، ونجده في القرآن أيضاً من خلال الإشارة إلى أن جبل (جودي) كان مركز ظهور العمران البشري بعد الطوفان، وحبذا أن يرجع القارئ الكريم إلى خريطة (حضارة حلف) في ملحق الخرائط للتأكد من ذلك. وقد قال هارفي بورتر تحت عنوان (حدود مادي وخواصّها الطبيعية):

"هذه البلاد شرقي آشور والشمال الشرقي منها، وهي القسم الشمالي والغربي من مملكة إيران المعهودة، ويحدها شمالاً أرمينيا وبحر الخَزَر، وغرباً جبال زاغروس، وجنوباً بلاد فارس، ولم يتعيّن حدُّها شرقاً؛ لأن الأراضي هناك كانت سَبْخة لم تُسكن.

وكان أكثر أراضي مادي وأحسنها جبلياً، لامتداد فروع زاغروس شرقاً إلى الصحراء، وسلسلة جبال على شطوط بحر الخَزَر تسمّى البُرْز (أو البرج) تحيط بالبحر على القرب منه جنوباً وغرباً، وتتشعّب جنوباً، ومن هذه الجبال ما يزيد علوّه على (٣٠٠٠٠) قدم، وتظل الثلوج على بعضها كل أيام السنة، فالهواء هناك على غاية من البرد، وفروع جبل زاغروس تمتد شرقاً، ومعدّل علوّها فوق سطح البحر نحو (٣٠٠٠) قدم، وبينها أودية مخصبة معتدلة الهواء، وهنالك أكثر السكان"[1]

ومن المفيد في هذا المجال التمييز بين ثلاثة مصطلحات جغرافية:

١- **ميديا المركزية**: ويراد بها المنطقة التي كان تسكنها القبائل الستّ المعروفة باسم (اتحاد قبائل ميديا)، والتي تشكّل منها المجتمع الميدي، في عهد الملك الميدي الأول دياكو، وكانت تمتد من أذربيجان شمالاً إلى تخوم عِيلام جنوباً، وتشمل بلاد الكرد في غربي إيران حالياً، ومعظم بلاد الكرد في شمالي العراق حالياً.

٢- **ميديا الكبرى**: ويراد بها جميع المناطق التي استقر فيها أسلاف الكرد، وهم أقوام لوللو، وگوتي، وكاشّو، وسوبارتو، وحوري (ميتّاني)، ومانناي، وخَلْدي

1- هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٢.

(أورارتو، نايري))، ويقيم الشعب الكردي الآن في (ميديا الكبرى)؛ أي في المناطق ذاتها التي سكنها أسلافهم المذكورون.

٣- **ميديا الإمبراطورية**: وهي المناطق الشاسعة التي تشمل، إضافة إلى ميديا الكبرى، بلاد فارس في الجنوب الشرقي، والسند في الشرق، وباكتريا (خراسان) في الشمال الشرقي، وبلاد آشور في الغرب، وبلاد أرمينيا في الشمال.

إثنولوجيا التكوين

تذكر المدوَّنات الآشورية، في القرن التاسع قبل الميلاد، اسم شعب يسمى (ميد) Medesوثيق الصلة بالفرس يقطن شرقي بلاد آشور، ويدّعي كل من الملكين الآشوريين تِغْلات بِلاسَر الثالث Tiglathpileser 111 (٧٤٧ – ٧٢٨ ق.م)، وسَرْجُون الثاني Sargon 11 (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) أنهما ألزما الميد بدفع الجزية، وجاء وصفهم في الكتابات الآشورية بأنهم (الميديون الخطرون)، وأنهم شعب قَبَلي لم يتحد تحت لواء ملك واحد[١]

وكلمة (ماديون/ميديون) هي باللغة الآشورية (ماداي) Medai، و(أماداي) Amadai، و(ماتاي) Matai، أما باللغة العيلامية الحديثة فهي (ماتا- په) Mata- pe، وباللغة العبرية القديم (ماداي)، وباللغة الفارسية القديمة (مادا) Mada، أما باللغة اليونانية القديمة فهي (مادي/ميدي) Madoi، Medoi[٢]، وباللغة الأرمنية القديمة (مار-ك) Mar-k، وباللغة البارثية[٣] (مات) Mat. ويرى دياكونوف تقارباً في المعنى بين (أمادي) أو (ماداي) وكلمتي (مارودي) و(أمارودي)، ويقول: "**فإن كلمة ماردوي**

1- دياكونوف: ميديا، ص ٧٢. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القدم، ص ٣٧. هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٢/٣٥٠.

2- هكذا تُرجم الاسمان، والصواب: (مادُوِي، ميدُوِي).

3- البارث يسمّون: البارت، الفرث، البرث، الأشگان، الأرشاك، وذكر الدكتور جمال رشيد أحمد أنهم صنف من السكيث. انظر مجموعة من الباحثين: كركوك، ص ١٦٥.

وأماردوي باليونانية القديمة، ومارتا في أويستا الوسطى، جميعها تأتي بمعنى المحـارب، أو المقاتل، أو المتمرد، والمتمرد الجبلي"[1]

ويستفاد من الدراسات الدائرة حول الميديين أن قدومهم إلى المنطقة التي سُمّيت لاحقاً باسم (كردستان)، شرقاً وشمالاً وجنوباً، بدأ منذ حوالي سنة (١١٠٠ ق.م)، وكانوا يتألفون من اتحاد ستة بطون، سمّاها دياكونوف: **Boussi, Paretaknoi, Strouknates, Arizantoi Boudloi, Magoi**، وسمّاها هيرودوت (بوسّي، وباريتاسين، وستروكاتي، وأريزانتي، وبودي[2]، وماجي)، وكانت اللغة الميدية مشتركة بين بطون هذا الاتحاد القبلي، ويستفاد مما ذكره أرشاك سافراستيان أن گوتيوم سمّيت بعدئذ ميديا؛ ثم سمّيت المنطقة ذاتها (كردستان)؛ وهذا يعني- حسب رأيه- أن ميديا هي امتداد جغرافي وتاريخي وثقافي لگوتيوم، باعتبار أن الگوتيين والميد سكنوا المنطقة ذاتها[3]

وذكر هارڤي بورتر أن الميديين كانوا يسمون أنفسهم (آريانيين) أو (إيرانيين)، وأنهم دخلوا مادي من الشرق، وأضاف قائلاً:

"وابتدأت عظمة الأمة المادية في بلاد مادي في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد؛ أي بعد قيام الآشوريين والكلدانيين بزمن طويل، ووجودها في الزمان القديم أمر لا ريب فيه، فإنها ذكرت في سفْر التكوين، وفي تاريخ بيروسُس المؤرخ الكلداني، فذكر موسى[4] ماداي بين بني يافث، فحسبَه جدَّ أمّة الماديين، فثبت أنها

1- دياكونوف: ميديا، ص ١٤٦. وأويستا هو (أفستا) كتاب زردشت.

2- هكذا ورد الاسم، والصواب: بُودلُووِي.

3- دياكونوف: ميديا، ص ١٤٣، ١٤٦. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٢٤، ٢٥. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، ص ٣٠٨.

4- جرت الأحداث المرتبطة بالنبي العبراني موسى في مصر بين (١٢٢٥ – ١٢٠٠ ق.م). وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٧/١.

كانت في أيامه، وذكر بيروسُس استيلاء دولة مادية على أرض الكلدانيين في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، ولنا غير ذلك أمارات في تقاليد اليونانتشير إلى امتداد أمة الماديين في قديم الزمان، فلنا من ذلك أنه وجدت أمة من نسل ماداي قبل القرن العشرين قبل الميلاد، ثم توارت ودرست آثارها... وأما أمة الماديين الحديثة فظهرت أولاً في القرن التاسع قبل الميلاد"[1]

وإذا أخذنا بالحسبان أن المقصود بـ (أرض الكلدانيين) بلاد سومر وأكّاد، إذْ لم يكن البابليون (الكلدان) قد ظهروا بعدُ في القرن (٢٣ ق.م)، وإذا أخذنا بالحسبان أيضاً أن مملكة مادي التي قامت على (أرض الكلدان) هي دولة گوتي (غوتي/جوتي) التي دامت حوالي قرن، لا يبقى شك في أن هارفي بورتر يطلق اسم (ماد/ ميد) على الگوتيين، وعلى سائر الشعوب التي استقرت في جبال زاغروس وعلى تخومها، وأقامت دولاً، مثل الكاشّيين والحوريين (الميتّانيين).

وجدير بالذكر أن اسم (ميد، ماد) لم يكن خاصاً بشعب أو بقبيلة، وإنما كان اسماً جغرافياً أطلقه السومريون ثم الآشوريون على المنطقة التي استقر فيها أسلاف الكرد منذ فجر التاريخ؛ نقصد فروع: لوللو، وگوتي، وكاشّو، وسوبارتو، وميتّاني، ومانناي، وخَلْدي (أورارتو)، وكردوخي، لكن الذي وحّد صفوف هذه الفروع جميعها خلال القرن السابع قبل الميلاد، وصنع منها تكويناً اجتماعاً وثقافياً وسياسياً متجانساً، هو الاتحاد الميدي المكوّن في الأصل من القبائل الست المشار إليها آنفاً.

وقد تصدّى الميديون للآشوريين، ووحّدوا القبائل التي كانت قاطنة بين بحر قزوين والبحر الأسود شمالاً، وخليج فارس (الخليج العربي) جنوباً، وبين أفغانستان شرقاً وبلاد الرافدين (العراق العربي) غرباً، وظلوا يقارعون السلطات الآشورية المرة تلو الأخرى،

1- هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٤. ولعل المقصود بـ (اليونانتشير) ما ورد في التراث الإغريقي.

إلى أن تمكّنوا بالتحالف مع البابليين من القضاء على النفوذ الآشوري، وإسقاط مملكة آشور سنة (٦١٢ ق.م)، وتحرير جميع الشعوب الواقعة بين أفغانستان والبحر الأبيض المتوسط من قسوة الحكم الآشوري.

وبتأثير سياسات الميديين، تمّ استكمال اندماج أقوام زاغروس القدماء ومن انضم إليهم من الأقوام الآرية، جغرافياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً، وسادت اللغة الميدية (الجذر القديم للغة الكردية المعاصرة) بين الجميع، وتوحّدت في كيان سياسي هي مملكة ميديا، ويعود الفضل في هذا الإنجاز المهم إلى زعماء ميديا العظام الثلاثة (دَياكو، خَشْتريت، كَيْخسرو)، إنهم وضعوا الأسس السياسية الكفيلة بإيجاد المناخ المساعد على التجانس، وابتكروا الآليات الاجتماعية والثقافية، لتوحيد تلك الفروع في أمة واحدة، عرفت بعدئذ بالشعب الكردي.

وتوضيحاً لذلك قال دياكونوف بعد حديثه عن لوللو، وگوتي، وكاشّو، وحُوري، وعيلامي، وميدي: **"أما عن الترادف أو التوافق اللغوي بين هذه الأقوام المذكورة فنؤيد صحة الآراء فيها"**[1] وأضاف ديكونوف قائلاً:

"كانت الأقوام الموجودة على أرض إمبراطورية ميديا المستقلة تطالب بالاتحاد والوحدة، وهذه الرغبة كانت تقوّي اللغة الموحَّدة بينهم أكثر، وبهذا الشكل فإن اللغة الجديدة (الإيرانية- الميدية القديمة) أمست لغة القبائل واللغة المحلية تدريجياً في جميع المناطق"[2]

ولم ينفرد أسلاف الكرد بهذا التدرّج في التكوين، فإن جيرانهم العرب والفرس والأرمن والترك، هم نتاج فروع قبلية كبرى، قُيِّض لها زعيم أو أكثر، فلمّ شملها، ووحّد صفوفها، وجمعها تحت لواء لغة واحدة وفي إطار تكوين سياسي واحد، في ظل شروط جغرافية واقتصادية وسياسية معيّنة، ويكفي أن نذكر العرب مثلاً، فقد

1- دياكونوف: ميديا، ص ١٣٧.

2- المرجع السابق، ص ٢٧٢

كانوا فروعاً قَبَلية متعددة، مختلفة في عقائدها ولهجاتها، ومتصارعة علـــى مـــوارد المياه القليلة وعلى المراعي، وظهر النبي محمد في القرن السابع الميلادي، فجعلـــهم بالإسلام أمة واحدة، وجعل لهجة قريش- باعتبارها لغة القرآن- هـــي اللهجـــة الجامعة بينهم.

٤

الملك دَياكو الميدي (المؤسس الأول)

(توفي حوالي سنة ٦٧٥ / ٦٧٤ ق.م)

آشوريون وميديون

في الوقت الذي كان فيه الآشوريون يشكّلون قوة ضاربة في غربي آسيا، ويعملون لتكوين إمبراطورية واسعة الأرجاء، ألزمتهم سياستهم التوسعية أن يسيطروا على جبال زاغروس والمناطق المتاخمة لها، باعتبار أن (طريق الحرير)- وهو من أهم طرق التجارة العالمية حينذاك- كان يمر بتلك المنطقة؛ وبعبارة أخرى كان على الآشوريين غزو بلاد ميديا، وفرض سيطرتهم عليها، وإلا لما كان بإمكانهم التواصل شرقاً مع آسيا الوسطى، ولا شمالاً مع المناطق المتاخمة للقوقاز، وهل ثمة إمبراطورية تقبل أن تعاني من الاختناق الاقتصادي وتبقى مكتوفة اليدين؟

ثم إن أكثر ملوك آشور- مدفوعين من قِبل كهنة الإله القومي آشور- كانوا ذوي طموحات غَزَواتية كبيرة، وكانوا يتصفون بالعنف والشراسة في التعامل مع من يعارضهم ويعرقل خططهم الإمبراطورية، وكانوا قد أعدّوا جيشاً قوياً، يمتاز بسرعة الحركة وشدة الانضباط، إضافة إلى شدّة المراس، ويتصف بالرغبة العارمة في البطش والتدمير، وأفلح ملوك آشور في إقامة إمبراطورية ضمت البلدان التي تسمّى الآن إيران وأذربيجان وأرمينيا وكردستان والعراق وسوريا وأجزاء من آسيا الصغرى (غربي تركيا)، بل امتدت في وقت من الأوقات إلى مصر جنوباً.

وحصل أول صدام بين الميد والآشوريين سنة (٨٣٧ ق.م) حسبما ذكر ول ديورانت، وتحديداً في عهد الملك الآشوري شَلْمانَسَر الثالث Shalmaneser111

(٨٥٨- ٨٢٨ ق.م)، فقد هاجم هذا الملك بلداً يسمّى (پارْسُوَا) في جبال كردستان، وفي ذلك الوقت كان سبعة وعشرون من الرؤساء- الملوك، يحكمون سبعاً وعشرين ولاية في ميديا، وكان الآشوريون في خصام دائم مع الميديين، وحقّقوا بعض الانتصارات عليهم، لكنهم عجزوا عن فرض سلطة فعلية عليهم، لقد حاربهم كلٌّ من شَلْمانَسَر الثالث، وشَمْشي حَدَد الخامس (٨٢١- ٨١٠ ق.م)، وتِغْلات پِلاسَر الثالث (٧٤٧- ٧٢٨ ق.م)، وسَرْجُون الثاني Sargon 11 (٧٢٢- ٧٠٥ ق.م)، كما حاربهم أُسرحَدُّون Eserhaddon (٦٨٠- ٦٦٩ ق.م)، وآشور بانيپال Ashurbanipal (٦٦٨- ٦٢٦ ق.م)[١]

على أن الميديين لم يرضخوا للسلطة الآشورية بشكل مطلق، وكانوا يستغلّون كل فرصة ممكنة للخلاص من سيطرة الإمبراطورية الآشورية، وقام الملوك الآشوريون من جانبهم بشنّ الحملات المتتالية على بلاد الميديين ومعاقلهم، وأنزلوا بهم أفدح الخسائر، ودمّروا مدنهم وقراهم، وأجبروا بعضهم على الهجرة إلى مناطق نائية، ومثال ذلك أن تغْلات پِلاسر الثالث Tiglathpileser جلب خمسة وستين ألف أسير ميدي، وأسكنهم في منطقة ديالي (في العراق حالياً)، وقام بتهجير جماعات من شعب لوللو (من أجداد الكرد في جبال زاغروس)، وجماعات من شعب نايري (من أجداد الكرد قرب بحيرة وان)، إلى سوريا، وأسكنهم في المنطقة الواقعة بين مدينة (حماه) والبحر الأبيض المتوسط[٢]

دَياكو مؤسّساً

ثمة اتفاق بين المؤرخين على سير الأحداث المتعلقة بالميديين، لكن هناك خلاف واضح في تحديد تواريخ تلك الأحداث، وهذه ظاهرة غريبة لا نجدها بهذه الحدّة

1- أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ١٦٣. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩٣/١.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٢٨. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٣٨.

حينما يكون الأمر متعلقاً بأحداث البابليين والآشوريين والفرس الأخمين مثلاً، وأحسب أن السبب في ذلك هو التغييب المتعمَّد الذي بدأه الفرس، والأخمين منهم خاصة، إزاء كل ما يتعلق بالشأن الميدي، ثم قلّدهم الإمبراطوريات والممالك والدول التي حكمت بلاد الكرد، فبعد أن سيطر الأخمين على مملكة ميديا، وورثوا إنجازاتها الحضارية، ونسبوها إلى أنفسهم، كان يهمهم- بعد أن سيطروا على مقاليد الحكم- أن يزيلوا كل ما يتعلق بالمملكة الميدية؛ الأمر الذي أوقع المؤرخين في الاضطراب والخطأ.

وما يهمنا هو سير الأحداث وتسلسلها؛ فقد أدرك الميديون أنهم لن يستطيعوا الوقوف في وجه الإمبراطورية الآشورية ما داموا متفرقين، وأن وحدة الصف وتوحيد الجهود هما السبيل إلى الخلاص، وقد تأكد عبر التاريخ إن إرادة الشعوب في الحرية تفرز القائد الذي يجسِّد تلك الإرادة، وهذا ما أسفرت عنه إرادة الشعب الميدي في التحرر، فقد برز من بينهم قائد ذكي وحكيم وجسور ومخلص يدعى **دَياكو Daiku** بن فراورتيس Phraortes، ويسمّى (دَيوكو) أيضاً، ويسمّى في المصادر الفارسية (كَيْقُبَاد)، ويسمى في بعض المصادر اليونانية، وخاصة في تاريخ هيرودوت، باسم (دِيوسيس) Dioces، وأورد دياكونوف اسمه بصيغة (دايؤوك).

وبخصوص اسم دَياكو (دَيوكو، ديوسيس) ينبغي أن نأخذ في الحسبان أن اللاحقة (س) خاصة بالأسماء عند اليونان، وأن نقل الأسماء من لغة إلى أخرى يُدخل تغييراً على صوتياتها، وأن تعريب الأسماء يُحدث تغييراً في الحروف، وعلى سبيل المثال لا يوجد في العربية حروف: ژ j ، چ ç، پ p، گ g ، ولكتابة كلمة ژين (حياة) الكردية مثلاً بالحرف العربي نضطر إلى كتابتها بصيغة (زِين)، وهكذا دواليك.

ولا يخفى أن الشبه قريب بين صيغ (دَياكو/دَيوكو/دَيوك/ دَهوك)، وذكر الدكتور جمال رشيد أحمد (مختص في تاريخ الشرق القديم) أن (دَهُوك) كلمة ميدية تعني صاحب الإقليم (ملك البلاد)، وسُجّلت عند الآشوريين بصيغة (دَهْياوكُو)، وأخذت في الفهلوية صيغة (دَهاك) أو (دَهيك)، واشتق العرب منها صيغة (دِهْقان) وجمعها

(دَهاقنة)[1] وثمة قرابة لفظية بين (دَياكو) و(داييكو)، والصيغة الأخيرة تعني بالكردية (الوهّاب، الكريم، الكثير العطاء)، وكان دياكو متصفاً بهذه الخصلة، وحبذا أن يتفضّل اللغويون الكرد بما يزيل الغموض في هذا الميدان.

ودعونا نستمع إلى رواية هيرودوت حول هذا الزعيم. قال:

"لقد بلغنا أن ديوسيس ولد فراورتيس– وقد عُرف بالحكمة– زيّن له الفكر أن يفرض سلطانه على من حوله، فمضى ديوسيس يدبّر خطّته بإحكام، ووجد هذا الرجل الميديين يعيشون في ذلك الزمن في قرى متباعدة، بلا سلطة مركزية يخضعون لها، فكان حريّاً أن تتفشّى الفوضى، ويطغى العسف في هذه الأحوال. وكان في تلك الأيام قد برز في قريته، فأخذ يجهد في إرساء العدل بين أهله وعشيرته، وكان يذهب في الرأي أن العدل والظلم نقيضان في صراع أبدي، ولا سبيل للتوفيق بينهما.

فلما رسخت قناعته أخذ في الدعوة إلى هذا المذهب، وأخذ الناس يقصدونه في شؤونهم، وإذْ وجدوا أحكامه أحكامَ عدل ونزاهة، سعوا إليه ليكون الحَكَم في خلافاتهم مع بعضهم بعضاً. ولّما كان قد عزم على أن يكون له السلطان على القوم ظهر للناس قاضياً صادقاً نزيهاً، فاتجهت إليه أنظار مواطنيه، وشاع اسمه وطار صيته إلى أهل القرى في الجوار، وكان هؤلاء قد عانوا من المظالم الشديدة على مر الزمن، وحينما بلغهم أمرُ ديوسيس وعدله ونزاهة قراراته، هُرِعوا إليه من كل حَدَب وصَوب، ليفصل في دعاواهم ومشاحناتهم، حتى مَحَضوه كلَّ ثقتهم، لا ينازعه فيها منازع.

وأخذ الناس يومئذ يتوافدون على ديوسيس هذا؛ ليفضّ خلافاتهم، وهم مطمئنون إليه بعدما رأوا منه رجاحة العقل ونزاهة الحُكم، حتى كثرت مشاغله بقضاياهم، مما حمله على الإحساس عندئذ بأهميته، فأعلن للملأ أنه لن ينظر بعد اليوم في قضية منَ القضايا، وانقطع عن الجلوس في المقعد الذي اعتاد الجلوس

1- مجموعة من الباحثين: كركوك، ص ١٦٩، هامش (٥).

عليه وهو يحكم بين المتخاصمين. وكانت حجّته في هذا الاعتزال أنه ليس مما يتفق ومصلحته أن يشغل يومه في تصريف شؤون الناس ويهمل شؤونه الخاصة. فعادت السرقات، وتفشّت الفوضى من جديد، بل عمّت وزادت أكثر مما كانت عليه من قبل.

وتنادى الميديون حين استفحلت الشرور للتداول فيما ينبغي عليهم القيام به، وكان المتنادون وأصحاب الرأي، على ما يذهب بي الفكر، من أصحاب ديوسيس، وصاح هؤلاء في الندوة بالشكوى من أن الحياة في هذا البلد لن تطاق؛ إذا استمرت الأمور على ما هي عليه الآن، والأحرى أن نُنصّب علينا ملكاً يرعى شؤوننا، ويسوس البلاد كما ينبغي أن تكون السياسة، فنلتفت نحن إلى شؤوننا، ولا نُحمَل على هجر أرضنا بسبب هذا الفوضى. ولقد اقتنع القوم يومئذ بسلامة تلك الحجج، واستقر عندهم القرار بتنصيب ملك عليهم يتولّى تدبير الشؤون في بلادهم.

وكان من طبيعة الأمور بعدئذ تقرير من يختار القوم ليكون هذا الملك، ولمّا بلغ الأمر هذا الحد طُرح اسم ديوسيس، فلهجت الألسن بالثناء عليه، فاتفق الجمع فوراً على أن يكون صاحبُهم الملكَ المنشود. فلمّا عرضوا عليه المنصب طلب أن يشيّدوا له قصراً يناسب مقامه، وحرساً لشخصه. فوافق الميديون على ما أراد، وشيّدوا له قصراً كبيراً حصيناً على أرض محددة، كذلك تركوا له أمر اختيار حرسه على نحو ما شاء، ومن أبناء الشعب عامة. وهكذا ما إن جلس الملك على عرشه حتى طلب إليهم أن يشيّدوا مدينة واسعة يجتمعون فيها، ويهجروا بلدانهم الصغيرة حيث يعيشون؛ لتكون العاصمة الجديدة التي يَشخصون إليها بأبصارهم، ويقيمون على رعايتها.

وانصاع الميديون لأوامره مرة أخرى، فبنوا المدينة التي تُعرف اليوم باسم أگباتانا، ذات الأسوار الحصينة المنيعة، والتي تطاول السماء في دوائر لولبية بعضها فوق بعض. أما المخطّط فيقوم على أن يعلو كل سور عن السور الذي قبله،

وكانت الأرض التي قامت عليها المدينة، وهي تل مرتفع، يناسب هذا المخطَّط إلى حدّ ما، إلا أن الأصل في مَنعة المدينة هو فن العمارة التي اعتُمدت. وقد بلغ عدد الدوائر سبعاً، يقع القصر الملكي والمستودعات في آخرها.

ودائرة السور الخارجي تكاد تطابق دائرة سور أثينا، والحجارة عند هذا الجدار بيضاء، يليها صفّ من الحجر الأسود، فالقرمزي، فالأزرق، والخامس برتقالي، وهذه الصفوف مطليّة جميعها بالدهان. وأما الصفّان الأخيران من حجارة الجدار فمطليّان بالفضي والذهبي. وقد شيّد ديوسيس هذه التحصينات كلها حماية لنفسه وقصره. وأما عامة الشعب فكان عليهم أن يقيموا مساكنهم خارج دائرة الأسوار.

ولّما اكتمل بناء المدينة مضى ديوسيس لإعداد المراسم الملكية، وكان من تقاليده ألا يسمح لأحد بالاقتراب من الملك، فيكون الاتصال به عبر مراسلين، وقد حرّم على رعاياه أن يشاهدوا شخص الملك، وحظر عليهم أيضاً أن يضحكوا أو يبصقوا في حضرة جلالته. وقد وضع ديوسيس هذه المراسم، وهو أول من ابتدعها، حماية لشخصه، خشية أن رفاقه- وهم لا يقلّون عنه أصلاً ومَحْتداً، ويضارعونه بأساً ورجولة- إذا ما اعتادوا مشاهدته، قد يَبْرَمون به ويتواطؤون عليه، أما إذا غاب عن العين فلعله يكون له وَقْعٌ في نفوسهم، ويحسبونه مجبولاً من جِبلّة غير جبلّتهم.

ثم إن ديوسيس انقطع لعمله، بعدما أرسى تلك التقاليد، واستقر على العرش، وأخذ يتابع نهجه في الاهتمام بقضايا الناس وخلافاتهم على ما عُرف عنه من دقة وصرامة. وقد جرت العادة على أن يرفع صاحب الدعوى قضيته بكتاب إلى الملك، فينظر فيها، ويذيع بعدئذ على المتخاصمين قراره. وكان قد بثّ العيون والأرصاد في كل أرجاء مملكته، فإذا بلغه نبأ اعتداء أو تجاوز بعث في طلب الآثم، ثم أوقع به العقاب جزاءً وفاقاً لما ارتكب من الذنب. وحّد ديوسيس صفوف الميديين، وانفرد بعدئذ بحكمهم، ثم خلفه ابنه فراورتيس

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٧٧ - ٨٠.

قراءة واقعية

الحقيقة أن هيرودوت يستحق التقدير والثناء، وهو أول المؤرخين اليونان وأعظمهم[1]، فلولا جهوده القيّمة لما عرفنا جوانب هامة من تاريخ غربي آسيا، بدءاً من القرن (٨ ق.م) إلى القرن (٥ ق.م)، وقد استقى المؤرخون من كتابه معظم المعلومات المتعلقة بالميديين، ومع ذلك لا بد من الحذر والتمحيص حينما نقرأ ما دوّنه ذلك المؤرخ الجليل، ليس اتهاماً له ولا تشكيكاً فيه، وإنما لأسباب ثلاثة:

- أولها أن هيرودوت لم يعاصر عهد المملكة الميدية، وصرّح في كتابه أنه اعتمد في رواية الأحداث المتعلقة بالمملكة الميدية على **رواية الثّقات من الفرس"**[2]، وليس على الرواة الميديين.
- وثانيها أنه كان ينقل كل ما يسمعه وما يقرأه، بما فيه الخرافات والأساطير، من غير تدقيق وإخضاع لمنطق العقل.
- وثالثها أنه عاش قبل الآن بحوالي ألفين وأربعمئة سنة، ومنذ ذلك الحين وإلى اليوم حقّقت العلوم، بما فيه علم التاريخ المقارن، تقدماً هائلاً في طرائق الاستقصاء والتحليل، وفي مناهج البحث العلمي بشكل عام، وما كان ذلك متوافراً في عصره.

1- يتألف اسم هيرودوت من مقطعين هما (هيرو/هيرا) معبودة اليونان، ولعله صيغة من صيغ (آرو/آرا) بمعنى (نار)، باعتبار أن النار كانت مقدسة عند الشعوب الآرية، والملاحظ أن اسم (هيرو) موجود عند الكرد، ويطلقونه على الإناث، ويُطلق على الذكور بصيغة (هورو). أما المقطع (دوت/دَوتا) بمعنى (عطاء/هبة)، وهو مستعمل أيضاً بهذا المعنى في اللغة الكردية، ويعني اسم هيرودوت (هبة الإله هيرو/هيرا). وهيرودوت من سكان هاليكارناسوس Halicarnassus إحدى بلدات جنوب غربي آسيا الصغرى (تركيا حالياً)، عاش على الأرجح بين سنتي (٤٨٠ – ٤٢٦ ق.م)، وقد بدأ رحلاته وهو في الخامسة والثلاثين من عمره؛ أي في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، وبعد مرور قرن على سقوط مملكة ميديا، ودامت رحلاته (١٧) سنة، زار خلالها اليونان، وشمالي إفريقيا، ومصر، وسوريا الكبرى، وبلاد الرافدين، وبلاد القوقاز. تاريخ هيرودوت، ٢٠ – ٢٢.

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٧٧.

وبقراءة ما أورده هيرودوت وغيره من المؤرخين، حول نشأة المملكة الميدية، قراءة واقعية، وتناول الأحداث في سياقها التاريخي الطبيعي، نتوصل إلى أن عبقرية الزعيم الميدي دياكو تتمثل في الإنجازات الآتية:

أولاً- تكوين وعي الأمة: ذكر دياكونوف أن الميديين، في عهد دياكو، كانوا يعيشون في (القرى- الدولة)، وأضاف قائلاً: "**فوجود القرى المستقلة (كومه) أدّى إلى سيادة التناقضات والصراعات الموجودة داخل المجتمع، وبروز أشخاص يطمحون إلى السيطرة والسلطة**"[1] وكانت مهمة دياكو صعبة جداً، إنها تمثّلت في الانتقال بالقبائل الميدية من حالة الانتماء إلى (القبيلة- الدولة) إلى حالة الانتماء إلى (الأمة- الدولة).

وقد أفلح دياكو في إقامة تحالف اتحادي شبه فيدرالي بين القبائل الميدية، ويبدو أنه أسس ما يشبه قيادة جماعية تضم قادة القبائل، واختير من ثَمّ لأن يكون القائد الأعلى باعتباره الأكثر نفوذاً بينهم، واستطاع بهذه الخطوة الذكية أن يتغلّب على واحدة من أكثر الخصائص الضاربة بجذورها في الشخصية الميدية وسليلتها الشخصية الكردية، وكانت من أكثر العوامل في تمزيق الشعب الكردي داخلياً طوال التاريخ؛ أقصد خصيصة (سيكولوجيا الجبال)، وهي سيكولوجيا تتمحور حول التصلّب في الرأي، والعناد في الموقف، والاعتزاز الفَردي والقبلي بشكل متطرف، ورفض الانصياع لقيادة عليا موحَّدة، ومعروف أن أمة لا تجتمع تحت قيادة واحدة لا يمكن أن تمتلك عوامل القوة والتقدم.

ثانياً – بناء العاصمة: اتخذ دياكو مدينة أكباتانا عاصمة للتكوين السياسي الجديد، وسميت بعدئذ (آمدان)، وكان اسمها قبل العصر الميدي (أكاسّيا) Akessaia، وهي مشتقة من كلمة (كار- كاسي) الآشورية، ومعناها (مدينة الكاسّيين (الكاشّيين). وسمّاها المؤرخون المسلمون (هَمَذان)، ويقال: إن همذان بنيت

1- دياكونوف: ميديا، ص ١٧٠، ١٧١

بعدئذ بالقرب منها، وسمّى الآشوريون أگباتانا (بيت دياكو)، كانت العاصمة الميدية، وثمة قول بأن أگباتانا- قبل أن تصبح مدينة ملكية- كانت تعرف باسم (هانگماتانا) Hangmatana، وتعني (مكان الالتقاء)[1]

ومعنى (أگباتانا) (ملتقى الطرق الكثيرة) أو (مجلس الاجتماع)، ولا يخفى الشبه الصوتي والدلالي بين لفظة (أگباتانا) والعبارة الكردية é gi bi tené ، أو yek bi tené، ومن معانيها (الفريد، المتميّز، لا مثيل له، المستقل)، وكانت تقع في واد خصيب جميل المنظر، تسقيه المياه الذائبة من الثلوج التي تغطي قمم الجبال المجاورة. وأحسب أن اتخاذ عاصمة موحّدة لمملكة ميديا كانت خطوة هامة، تدل على نضوج الوعي السياسي عند هذا القائد، فالعاصمة ليست مجرد بيوت وأسواق ودوائر الحكومة، إنها رمز إلى وحدة الأمة واستقلاليتها.

وذكر هارڤي بورتر أن (مادي) كانت تنقسم قديماً إلى: مادي أتْرُوبَتِينه، وهي القسم الشمالي. ومادي الكبرى وهي القسم الجنوبي، وتسمى في بعض المصادر الإسلامية باسم (العراق العجمي)، وأفاد أنه كانت ثمة مدينتان في ميديا تحملان اسم (أگباتانا)، وقد انفرد بهذا المعلومة، لقد قال:

"ومن أكبر مدنها القديمة أَكْبَتنا، وهي في مادي الكبرى، شرقي جبل زاغروس، وتسمى هَمذان، وقيل إنها كانت كنينوى اتساعاً، وكان أهلها كثيرين، وإنه كان فيها قصر يعجز عن وصفه اللسان، محيطه نحو ميل، وفيه أروقة ودور وأعمدة كثيرة، وسطحه مغطّى بالفضة بدلاً من القرميد، وجوائزه وروافده وأعمدته وسائر خشبه مغشّاة بالفضة، وقيل: إن بعضها مغشّى بالذهب، وآثاره قليلة، وعلّة ذلك أنه كان جانب عظيم منه خشباً.

ومنها مدينة أخرى في الشمال اسمها أَكْبَتنا أيضاً عند مدينة تَخْت سليمان، والظاهر من الآثار أنها هي المدينة التي وصفها هيرودوت بقوله إنها مبنية على تلّ، ولها

1- أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ٢٠٦، هامش (١). عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٧١.

سبعة أسوار تحيط بالتل، كل منها أعلى مما خارجه، فصارت كأنها درجات. وشرفاتُ كلٍّ من تلك الأسوار ذات لون مخصوص، فشرفاتُ الأدنى بيضاء، وشرفاتُ ما فوقه سوداء، وشرفاتُ ما فوقه قرمزية، وشرفاتُ ما فوقه زرقاء، وشرفاتُ ما فوقه برتقالية، وشرفاتُ ما فوقه فضية، وشرفاتُ ما فوقه ذهبية، فكان منظر المدينة يبهر العيون، وكان على رأس التل داخل السور السابع قصرُ الملك وجميع كنوزه"[1]

ثالثاً – اختيار موقع العاصمة: إن اختيار قادة الشعوب عواصم بلدانهم- وخاصة قديماً- لم يكون ضرباً من الارتجال، وإنما ثمة اعتبارات كثيرة كانت تجتمع في ذلك الاختيار، منها علاقة الموقع الجغرافي بغيره من مناطق البلاد، ووقوعه في مكان تتوافر فيه المياه والتربة الخصبة والمناخ المناسب، هذا إضافة إلى أهمية حصانة الموقع، وإمكانية الدفاع عنه في الحروب، والأهمية الاقتصادية.

ويبدو أن دياكو قد أخذ كل هذه الأمور بالاعتبار في اختيار مكان عاصمة مملكة ميديا، ولعل أبرز تلك الاعتبارات هو أن أگباتانا كانت مركزاً تجارياً مهماً بالنسبة إلى القوافل المتنقلة شرقاً وغرباً على (طريق الحرير)، وهذا يعني أن الدولة الناشئة كانت تسيطر جغرافياً على شريان تجاري منتِج اقتصادياً ومهمّ جيوسياسياً على الصعيد المحلي والإقليمي والعالمي، قال دياكونوف: "**فإن أهم طرق القوافل كانت تلتقي في أگباتانا**"[2]

ومن أگباتانا كان طريق الحرير التجاري يستمر متجهاً إلى الشمال الشرقي نحو قزوين، وإلى الشرق متجهاً إلى مدينة رَغَه Raga (الريّ) قرب عاصمة إيران الحالية (طهران)، وكانت مدينة رغه تشبه إكباتانا في أنها نقطة التقاء تجاري هام، فمنها يخرج الطريق الثاني إلى الغرب، وهناك طريق ثالث عبر قزوين، وإلى تبريز، وإلى السهول حتى بحيرة أورميا Urmia، أو إلى آشور[3]

1- هارڤي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٣.

2- دياكونوف: ميديا، ص ١٧٣.

3- عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٨٤.

وفي أكباتانا كان يمر الطريق المعروف باسم (الطريق الملكي)، إنه الطريق الذي كان يربط آسيا الغربية بآسيا الشرقية، ومنه عبر ملوك آشور باتجاه الشرق، كما أن **دارا الثالث** عبر منه سنة (٣٣٠ ق.م)، فارّاً من وجه الإسكندر المكدوني، ومنه عبر الإسكندر غازياً الشرق حتى الهند، ومنه توجّه الملك الفارسي **يَزْدَجِرْد الثالث** شرقاً، هارباً من الزحف العربي الإسلامي سنة (٥٥٠/٥٥١ هـ)، ومنه عبر الفاتحون العرب أنفسهم إلى وسط آسيا، ومن الطريق الملكي نفسه عبرت جحافل المغول بقيادة **هولاكو**، ودمّرت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية سنة (٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م)[1]

ولم يهمل دياكو الحرص على توافر البعد الجمالي في اختيار موقع العاصمة، والحقيقة أن البعد الجمالي، وخاصة جمال الطبيعة، متأصل في شخصية أسلاف الكرد منذ القدم، قال ول ديورانت:

"وفي أكباتانا، أي (ملتقى الطرق الكثيرة) الواقعة في واد جميل المنظر، أخصبته المياه الذائبة من الثلوج المغطية لقُلَل الجبال، أنشأ ديوسيس أول ملوكهم عاصمته الأولى، وزيّنها بمقرّ ملكي يشرف عليها، ويغطّي ثلثي ميل مربع من الأرض"[2]

رابعاً – القصر الملكي: بنى دياكو في العاصمة أكباتانا قصراً فخماً، واتخذه مقراً ملكياً يشرف على المدينة، ويغطي ثلثي ميل مربع من الأرض كما مر، وفي هذه الخطوة دليل آخر على أن الرجل كان يودّ التخلص من الطابع القبلي البسيط الساذج، والارتقاء إلى ما يوحي بالتحضر ورفعة الشأن، وما كان ليستطيع بناء ذلك القصر الفخم لولا أن دولته الجديدة كانت تحظى بقدر معقول من الثراء، ولعله كان يؤكد من خلال تلك الأبهة أن المملكة الميدية لا تقل شأناً ومكانة عن الدول الكبرى في ذلك العصر، وأنه ليس زعيم قبيلة، وإنما هو زعيم لشعب، وقائد لأمة، وملك لمملكة.

1- وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/٣٥٠. الهمذاني: جامع التواريخ، ١/٢٨١- ٢٨٣.

2- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/ ٤٠٠. والقُلَل: القمم.

خامساً – إصدار المراسيم والقوانين: تأكيداً لحرصه على الانتقال من نظام القبيلة إلى نظام الدولة وضع دياكو تشريعات وقوانين تنظّم العلاقة بين الرعية والسلطة، وقد ذكر هيرودوت أن دياكو أصدر أوامر تقضي بألا يسمح لإنسان بالمثول بين يديه، بل عليه أن يعرض أمره على يد رسله، وكان يعدّ من سوء الأدب أن يضحك إنسان أو يبصق أمامه.

وفسّر هيرودوت هذه المراسيم وأشباهها بأن دياكو كان يريد "**أن يبدو لمن لا يرونه أنه من طبيعة غير طبيعتهم**"[1] وكان من الممكن لهيرودوت أن ينظر إلى هذه المراسيم على أنها محاولة من دياكو للانتقال بشعبه من ثقافة (البداوة) والانفلات إلى ثقافة (الحضارة) والانضباط، وبناء أصول حضارية في التعامل بين الشعب والحاكم.

سادساً – تأسيس الجيش: بنى دياكو جيشاً مهمته حماية المملكة الناشئة، والتصدّي لمن تحدّثه نفسه بالعدوان عليها، ولا ريب في أنه أخذ بالاعتبار أنه يجاور الإمبراطورية الآشورية الشرسة، وأنه يدين لها بالتبعية، وإن كانت تبعية اسمية، تقتصر على دفع الضرائب والهدايا المفروضة، ولا بد أنه حرص على أن يكون المقاتل الميدي في مستوى المقاتل الآشوري من حيث القوة والبسالة والخبرة والانضباط.

مشروع التحرير

ولن تتضح أهمية ما بدأ به دياكو من إنجازات، واستكمله بعدئذ ولده خَشْتْريت (فراورتيس/ فراورت)، ما لم نُلق نظرة على الخريطة الإقليمية في غربي آسيا خلال النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، فحينذاك كانت بلاد ميديا محاطة بأربع ممالك إقليمية قوية: هي مملكة مانناي (يسميها دياكونوف: ميثانيا) في الشمال الشرقي، ومملكة أورارتو في الشمال الغربي، ومملكة آشور في الغرب، ومملكة عيلام في الجنوب، إضافة إلى دولة السكيث في شمالي ميديا قرب القوقاز، وكانت بلاد ميديا هي وحدها التي تفتقر إلى الاستظلال بلواء دولة واحدة.

1- المرجع السابق، ٢/٤٠٠.

ويمكننا القول بأن القائد الميدي كان يمتلك مشروعاً تحررياً متكاملاً، وكان يضع مشروعه موضع التطبيق خطوة خطوة، وعلى نحو متكامل، وكان يعمل بصورة أساسية لإحداث تغيير في الذهنية الميدية، ويكرّس ذلك التغيير عملياً بإحداث تغييرات جوهرية في هيكلية السلطة والإدارة والعلاقة بين السلطة والشعب، وبما أن هدفه الأكبر هو التحرر من الهيمنة الآشورية فلا بد من تجاوز الذهنية القَبَلية (الكُوچَرية) الارتجالية القابلة للوقوع في شَرَك السذاجة والغفلة معظم الأحيان، والانتقال إلى تكوين (الذهنية القومية)؛ ذهنية (الأمة) مجسَّدة في شكل (الدولة).

ولم يكن دياكو قائداً ضيّق الأفق، إنه لم يضع العربة أمام الحصان كما يقول المثل الدارج، إنه كان يمتلك حسّاً قيادياً كافياً لأن يراعي مسألة (ترتيب الأولويات)، فيقدّم الأهم على المهم، ويقدّم ما هو أساسي وجوهري على ما هو ثانوي، وينطلق من الداخل إلى الخارج، ويؤسس (القوة الذاتية) قبل البحث عن (القوة الخارجية).

وبعد هذه الترتيبات الداخلية الهامة توجّه دياكو إلى النشاط على الصعيد الإقليمي، وقد مرّ أن إمبراطورية آشور كانت تسيطر على بلاد شاسعة، تمتد من حدود أفغانستان إلى السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وإلى مصر ضمناً أحياناً، فكيف يمكن لدولة ناشئة، لم تتخلّص بعدُ بشكل نهائي من الثقافة القَبَلية، أن تقف لوحدها في مواجهة إمبراطورية، ذات خبرة في احتلال أوطان الشعوب، ولها جيش متمرّس في الحروب، ولها إمكانيات اقتصادية ضخمة؟

وقد لعب دياكو لعبة التوازنات الإقليمية المعقدة بذكاء ودهاء، واستطاع أن يتسلل من خلال تنافسات الدول المجاورة، وعبر تقاطعات المصالح فيما بينها، فيجمع قبائل بلاد ميديا في دولة واحدة، ويبدو أنه جعل نفسه في البداية تابعاً لمملكة مانناي في الشمال الشرقي (أذربيجان)، ليردّ عنه اعتداءات الدول الأخرى، ولا سيما الإمبراطورية الآشورية، وبنى تحالفاً مع مملكة أورارتو في الشمال الغربي، ولا ننس القرابة الثقافية والإثنية بين قبائل ميديا ومانناي وأورارتو.

وتحت ستار تلك التبعية وذلك التحالف راح دياكو ينظّم أمور دولته الناشـئة، ويعمل لمأسسة العلاقات في المجتمع الميدي، فاتخذ أگباتانا عاصمة، ونصب نفسه ملكاً، وأسس جيشاً، كما مرّ سابقاً، وهنا كان من الطبيعي أن تتوجّس القوة الإقليمية الكبرى (الإمبراطورية الآشورية) خيفةً من ظهور هذه المملكة الجديدة، وخاصة أن تجربة الحكام الآشوريين في إخضاع القبائل الميدية كانت تجربة مريرة، فكيف إذا اجتمعت تلك القبائل تحت لواء دولة واحدة، وفي جيش واحد، وكانت بقيادة زعيم ذكي وشجاع وطموح ومخلص مثل دياكو؟! وقد كتب ديورانت في هذا الصدد يقول:

"واشتدّ ساعد الميديين في أيامه بفضل حياهم الطبيعية والاقتصادية، وأصبحوا بتأثير عاداهم وبيئتهم ذوي جَلَد وصبر على ضرورات الحروب، فكانوا بزعامته خطراً يهدد آشور، فأغارت هذه على بلاد ميديا مرة بعد مرة، وظنت أها قد هزمتها هزيمة مُنْكَرة لا تجرؤ معها على مناوأها، ولكنها وجدها لا تملّ الكفاح لنيل حريتها"[1].

إعلان الثورة

بعد أن بنى دياكو جبهة داخلية متماسكة، وأسّس مملكة، فتّش عن حلفاء إقليميين، يقفون معه ضد الهيمنة الآشورية، وتكون لهم مصلحة في ذلك، فوقع اختياره على مملكة أورارتو، وكانت تقع على التخوم الشمالية لبلاد ميديا، وتعاني من العسف والقهر والتدمير على أيدي ملوك آشور حيناً بعد آخر. وبعد أن تحالف دياكو مع مملكة أورارتو قاد الثورة على الإمبراطورية الآشورية، وأعلن استقلال ميديا، ولا ريب في أنه اتخذ في هذا الصدد إجراءات عملية؛ منها رفض دفع الضرائب والإتاوات، وعدم الانصياع للسياسات الآشورية.

1- المرجع السابق، ٢/٤٠٠.

وكان من الطبيعي- حسب الذهنية الإمبراطورية- أن يعمل حكام آشور للقضاء على مملكة ميديا المتاخمة لهم، وكان من الطبيعي أيضاً أن يتصدّى دياكو للمضايقات والتحرشات الآشورية، ولم تدم فترة المناوشات الأولية بين الفريقين طويلاً، فالإمبراطورية الآشورية كانت ما تزال قوية متغطرسة، وكان يهمّها أن تحافظ على مجالها الحيوي، وسرعان ما قاد الملك **سرجون الثاني** جيشه القوي الشرس إلى جبال ميديا، فحطّم الحلف الميدي-الأورارتي، وقضى على القوة الميدية، وأسر دياكو سنة (٧١٥ ق.م)، وفي رواية سنة (٧١٤ ق.م)، ونفاه مع أسرته وحاشيته الملكية إلى مدينة حَماه (هامات) في سوريا، وبعد فترة من الوقت غير معروفة أفرج الآشوريون عن دياكو، وأعادوه ليقيم في آشور، وهو ما يسمّى في عصرنا بالإقامة الجبرية.

والحقيقة أن هذا التصرف المرن غريب على سلوك حكام آشور، فالمعروف أنهم كانوا يلجأون إلى البطش بالزعماء الذين يثيرون القلاقل ضدهم، فكانوا يقودونهم أسرى مهانين إلى العاصمة نينوى، ويعرّضونهم لأبشع أنواع الإذلال التعذيب، كانوا يقطعون ألسنتهم، ويبترون أعضاءهم، ويسلخون جلودهم وهم أحياء، ويرفعون رؤوسهم على أسنّة الرماح، ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالثورة، فلماذا لم يبطش سرجون الثاني بالزعيم الميدي وبالقادة الميد الذي قاتلوا الجيش الآشوري تحت لوائه؟! ولماذا اكتفى بنفيه إلى سوريا؟! بل لماذا سمح الآشوريون له بعدئذ بالعودة إلى آشور المتاخمة لميديا[1]؟!

هذه وغيرها أسئلة بحاجة إلى إجابات مقنعة، والأرجح أن الآشوريين أعادوا دياكو إلى آشور، وعلى مقربة من ميديا، ليساعدهم عند اللزوم على تهدئة الأوضاع في ميديا، تلك البلاد المنيعة بجبالها، والتي يسكنها أناس بواسل يعشقون الحرية، ويأبون الانصياع، ويكون في الوقت نفسه حليفاً لهم ومؤيداً لسياساتهم، ولا سيما أن ميديا كانت تتوسط عِيلام ومانناي وأورارتو، وسكيثيا، وكانت هذه الدول الأربع تثير، بين الحين والحين، بعض المنغّصات لراسمي السياسات الآشورية ومنفّذيها، وتتملّص من التبعية لآشور والتحالف معها كلما سنحت لها الفرصة.

1- دياكونوف: ميديا، ص ٢٥٧.

وألمح وراء المرونة غير المعهودة التي أبداها حكّام آشور إزاء دياكو سبباً آخر؛ وهـو أهمية بلاد ميديا- وخاصة العاصمة أگباتانا- بالنسبة إلى الاقتصاد الآشوري، ولا يخفى أن الطرق التي يسلكها التجار هي الطرق ذاتها التي يسلكها دعاة الأديـان والدبلوماسـيون، وتسلكها الجيوش، أجل، **إن للتاجر والكاهن والدبلوماسي والغازي المسارات نفـسها**، وإذا أخذنا هذه الحقيقة بالحسبان أدركنا حاجة الإمبراطورية الآشورية إلى السيطرة علـى طرق التجارة العالمية الموصلة من غربي آسيا إلى وسط آسيا وشرقيها، تلك الطرق التي كان (طريق الحرير) هو الشريان الأكبر فيها، بل أفاد أكثر من مؤرخ أن أگباتانا كانت تسمى (ملتقى الطرق) تارة، (ملتقى الطرق الكثيرة) تارة أخرى[1]، وسميت بذلك الاسم لأن فرعاً رئيسياً من فروع (طريق الحرير) كان يمر ببلاد ميديا، وتحديداً من العاصمة (أگباتانا).

وهكذا فقد كان من الغباء السياسي أن يقود حكام آشور الجيوش للسيطرة علـى طرق التجارة في شرقي البحر المتوسط وعلى الموانئ هناك، ليحققوا الاتصال مع أوربا غرباً، ويهملوا في الوقت نفسه السيطرة على طرق التجارة العالمية الـتي توصـلهم إلى أسواق وسط آسيا وشرقي آسيا، ولو تهاونوا في ذلك لحكموا علـى إمبراطوريتـهم بالاختناق اقتصادياً، وبالضعف عسكرياً وسياسياً، وهذا ما لا يفعله حكّام إمبراطورية تحتاج على الدوام إلى جيش كثير العدد، ومتسلح بأقوى الأسلحة، لتستمر في فـرض إرادتها وهيمنتها المطلقة على الشعوب المجاورة.

ومن المحتمَل أن حكّام آشور لم يفرجوا عن دياكو وحاشيته، ويسمحوا بعـودتهم إلى آشور، إلا ليكون هو وأفراد أسرته ومن معه من زعماء ميديا رهائن، يـضغطون عليهم لتنفيذ سياساتهم ومصالحهم في المنطقة؛ والدليل على ذلك أن المصادر لا تـذكر أية ثورة أخرى قامت في ميديا ضد السلطة الآشورية بعد إعادة دياكو إلى آشور، وقد حكم دياكو ميديا حوالي ثلاثة وخمسين سنة، والأرجح أن حكمه كان بـين سـنتي (٧٢٧ – ٦٧٥/٦٧٤ ق.م).

1- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/ ٤٠٠. طه باقر وآخران: تاريخ **إيران القديم**، ص ٤٠.

٥

الملك خَشْتريت الميدي: المؤسس الثاني.

(توفي سنة ٦٥٣ ق.م)

رحلة الأسماء

لم تذهب الجهود التي بذلها دياكو لتأسيس مملكة ميديا هباءً، فقد استكملها من بعده ابنه خَشْتريت، وقبل استعراض جهوده في هذا المجال دعونا نقف عند معضلة الأسماء في التاريخ القديم، فهي معضلة تواجه قارئ التاريخ كائناً من كان، وتصبح أحياناً معضلة ليست مزعجة فقط، وإنما مضلِّلة أيضاً، وإليكم بعض الأمثلة:

- الكرد: عُرفوا باسم (كُورْتَش Kurtash)، كورتي، كاردو، گردا Grda، كاردوخي، كوردوئين، جُردي، أكراد).
- الميتّانيون: فرع كبير من أجداد الكرد، ومن أسمائهم (حوريون)، والحوريون أنفسهم يسمّون (هُوري)، و(حُورّي) و(خُوري)، و(خُرّي)، وفي التوراة (حُويِيم) و(حُورِيم).
- الگوتيون: فرع كبير من أجداد الكرد، يسمون (كوتي) و(جُوتي)، و(غُوتي)، و(جُودي)، وإلى هذه الصيغة نُسب جبل (جُودي) في القرآن، باعتبار أن ذلك الجبل كان من جملة المواطن التي استقر فيها الگوتيون.
- أذربيجان: من أسمائها القديمة (ألبانيا، وأتروپاتيا).
- الفرس: يسمون (پُرس، عجم).
- اليونان: يسمون (إغريق، هيلليني).

- البحر الأحمر: كان يسمى (البحر الأرتيري).
- القُدس: من أسمائها (يَبُوس، إيلْيا، أُورْشَليم).
- حلب: من أسمائها القديمة (حَلَبو، خَلَب، بَرهوَيه).

والأمثلة في هذا الباب كثيرة جداً، بل إن قارئ التاريخ القديم، وكذلك الباحث في الجغرافيا القديمة، لا يتمكن من فهم الأحداث والشخصيات والأماكن على حقيقتها ما لم يقم برحلة مع الأسماء، ويعرف التحوّلات التي طرأت عليها خلال القرون، وتحصل هذه التحوّلات نتيجة أمور أهمها:

- الاختلاف في الصوتيات بين اللهجات ضمن اللغة الواحدة (مثلاً: كُـردي Kordi، كِردي Kirdi، جُردي Chordi في العربية).
- الاختلاف في الصيغ بين اللغات (مثلاً: أخمـيني Akhmanish سمّـوا في العربية (عَجَم)، وأطلق هذا الاسم على سكان بلاد فارس، ثمّ عُمّم على كل من هو غير عربي (أعاجم).
- إطلاق اسم شخص أو قبيلة على شعب بأكمله، مثـل إطـلاق اسـم (إسرائيل)- وهو لقب للنبي اليهودي يعقوب- على العبرانيين.
- إطلاق اسم جديد على مسمًّى سابق، مثل (جزيرة بُوتان)، سماها العـرب: جزيرة ابن عُمَر، ومثل (آمدانو/ آمد)، سماها العثمانيون: دياربكر؛ وقد اقتبسوا هـذه الصيغة من اسم (ديار بكر) الذي أَطلقه العرب ليس على مدينة آمد، وإنما على المنطقة التابعة لها، والدليل على ذلك أن الأعلام الذين نُسبوا إلى (آمد/آميـد) قبـل العهـد العثماني كانت كنيتهم (الآمدي)، وليس (الديارِبَكْري/ الديابكرلي)، وأبرز مثال على ذلك الناقد الكبير (أبو القاسم الحسن بن بشْر الآمدي ت ٣٧٠ هـ/٩٨٠ م) صاحب الكتاب النقدي الشهير (المُوازَنة بين شعر أَبي تَمّام والبُحتُري).

إرث ثقيـل

ويصدق ما سبق في اسم خَشْتريت أيضاً، وقد يُنطَق (خاشتريت)، وفي الحالين تعني بالكردية: (الأكثر سعادةً وحيوية)، مع الأخذ في الحسبان أن الكردية المعاصرة تشتمل

على كثير من الصيغ والصوتيات الميدية القديمة. وبدءُ الأسماء بالمقطع (خاش) أمر شائع في الأعلام الميدية خاصة والكردية عامة، ومثال ذلك في الميدية: كَيْخُسْرُو (بالعربية: كسْرى)، ولعله محرّف من: كَيْ خشرو/خاشرو/خاشْ- رُو (الملك السعيد)، وإذا نطَقنا (رُو Ro) بصيغة Ru التي تعني (الوجه/المُحيّا) فيكون معنى خشرو (الميمون الطلعة). وفي الكردية هناك اسم (خوشْناف) Khoshnav، وكثيراً ما تتبادل صيغتا (خُوشْ) و(خاشْ) موقعيهما في صوتيات اللغة الكردية.

وسُمّي خشتريت في بعض المصادر (گشتريتي) أيضاً، وخشاثريتا Khshathrita، كما هو وارد في كتابات نقش بَهَسْتون (بيستون) التي دُوّنت في عهد الملك الأخميني الثالث دارا الأول (٥٢٢ – ٤٨٠ ق.م)، وسمّاه هيرودوت باسم (فراوُرْتيس) Phraortes، وحُرّفت هذه الصيغة أحياناً إلى (فرورتيش)، وكتبه بعض المترجمين العرب بصيغة (فراورطيس)، وأورده آخرون بصيغة (براورتيش/ براؤرت)، وأورده دياكونوف بصيغة (فرؤرت/ فراأورت)، ورأينا من الأنسب أن ننطق اسم هذا الملك بالصيغة الميدية (خَشْتْريت) لسهولتها وأصالتها.

وتفيد معظم المصادر التي تناولت سيرة هذا الملك أنه ابن الملك الميدي الأول (دياكو)، وثمة من يرى أنه حفيد دياكو حسبما ذكر دياكونوف[1] وبمتابعة التسلسل الزمني لعهد كلٍّ من دياكو وخشتريت، والمهمّات الجسام التي قام بها خشتريت، يصبح راجحاً أنه ابن دياكو وليس حفيده؛ إذ من المنطقي أن يكون الذي قام بتلك المهمّات الخطيرة، على الصعيد الاجتماعي والسياسي والعسكري، رجلاً راشداً ناضجاً متمرّساً، وليس شابّاً غضّ العود وحديثَ عهد بأمور القيادة والسياسة.

وقد مرّ أن الزعيم الميدي دياكو كان أول من جمع كلمة القبائل التي تسكن بلاد ميديا، وكان أول من كافح بصبر وذكاء للانتقال بالمجتمع الميدي من منظومة القَبيلة، ومنظومة (القرية– الدولة)، إلى منظومة الدولة الجامعة المانعة، وعمل بحزم لترسيخ

١- دياكونوف: ميديا، ص ٢٥٦.

الوعي المؤسسي في ذهنية الإنسان الميدي، إدراكاً منه بأن الذهنية القَبَلية الضيقة والمتعصبة لا تستطيع تكوين مجتمع حضاري، هذا عدا أنها- مهما أوتيت من بسالة وفروسية وروح الفداء- غير قادرة على مواجهة مؤسسات دولة مركزية تمتلك سلطة اتخاذ القرارات، ولها في الوقت نفسه قدرة عالية على تنظيم القدرات المعنوية والموارد المادية، وتوظيفها في تحقيق الأهداف المرسومة.

استكمال مشروع التحرير

بعد أن توفي دياكو سنة (٦٧٥/ أو ٦٧٤ ق.م) تولّى الحكم ولده خَشْتريت، ولا توجد معلومات عنه خلال عهد والده، وذكر دياكونوف أنه تربّى في أرض الآشوريين حينما كان والده قد أُبعد إلى هناك، وذكر أيضاً أن الآشوريين كانوا يعتقدون أنه سيكون "**حاكماً موالياً لهم، ويسير على السياسة التي فيها مصلحة الآشوريين، مثل الأشخاص الآخرين الذين ربّوهم سابقاً، ومن ثَمّ أصبحوا طوع بنانهم، ملوكاً وحكّاماً موالين لهم**"[1]

وحينذاك كان الملك الآشوري سرجون الثاني Sargon 11 (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) قد توفي، وكان خليفته سَنْحاريب Sennacherib (٧٠٤ – ٦٨٠ ق.م) قد قُتل بيد أحد أبنائه، وتولّى الحكم ابنه الثاني أسرحَدُّون Eserhaddon (٦٨٠ – ٦٦٩ ق.م)، ولعل هذه التحولات في العلاقات السياسية الإقليمية شجّعت خشتريت على أن يجعل نفسه في حلٍّ من اتفاقية والده مع السلطة الآشورية، وليس من المستبعد أنه هو نفسه كان عنصراً فاعلاً في صناعة تلك التحولات؛ إذ لا أعتقد أن خشتريت- وقد تربّى في أحضان والده دياكو، ذلك الزعيم القدير والذكي والشجاع، والطامح إلى تكوين دولة قوية- كان يخلد إلى الكسل، ويتقاعس عن تنفيذ مشروع والده التحرري.

1- المرجع السابق، ص ٢٥٧

ومعروف أن معظم المعلومات المتعلقة بقيام مملكة ميديا، وحربها التحررية، وتحوّلها بعدئذ إلى إمبراطورية كبرى في غربي آسيا، ما زالت مدفونة في أنقاض القلاع والمدن في ميديا المركزية، وهذا أمر شكا منه تقريباً كل من بحث في تاريخ ميديا، ولذلك ليس أمامنا إلا أن نملأ الفجوات المعلوماتية التي تعترضنا بتوقعات واحتمالات تتناسب مع منطق الأحداث في ذلك العصر، ومن تلك الفجوات أن المصادر تفاجئنا بالزعيم الميدي خشتريت وهو يعقد التحالف مع بعض زعماء المناطق المجاورة، ويعلن الثورة على السلطات الآشورية، في حين وجدنا المصادر نفسها، وخاصة (تاريخ هيرودوت)، تذكر بالتفصيل الخطوات والإجراءات التي اتخذها دياكو على الصعيد الداخلي، قبل أن يتحرك على الصعيد الخارجي، ويعلن الاستقلال عن آشور.

ولا نعتقد أن خشتريت- وهو الزعيم الفَطِن- ترك الأمور فوضى داخل ميديا، وتوجّه مباشرة إلى عقد التحالفات مع القوى المجاورة، تمهيداً لإعلان الثورة على قوة كبرى هي الإمبراطورية الآشورية، إن منطق الأحداث يقتضي أنه وجد نفسه في مجتمع متماسك إلى حد كبير، بفضل المؤسسات الاتحادية التي أرسى والده دياكو دعائمها، فالمعروف أن الكيان السياسي الذي أقامه دياكو لم يكن كياناً مركزياً، وإنما كان كياناً اتحادياً بين القبائل التي تقيم على أرض ميديا (كيان فديرالي حسب مصطلحات العصر الحديث)، وكان ثمة مجلس اتحادي يضم زعماء تلك القبائل، وينتخب ذلك المجلس كل مرة الزعيم الذي يتوسّم فيه القدرة على القيادة الرشيدة.

والأرجح أن ذلك الكيان الاتحادي استعاد عافيته بعد عودة دياكو من المنفى، وممارسته لسلطاته في الحكم من جديد، بل لا شك في أن دياكو عمل لتعزيز ذلك الكيان بصمت، ودون إثارة توجّسات السلطات الآشورية وغضبها، وبطبيعة الحال كان بقاء ذلك الكيان الاتحادي متماسكاً يصبّ في مصلحة السلطات الآشورية أيضاً، فما دام دياكو قد ضمن للسلطات الآشورية ألا يثير القلاقل ثانية- وهذا ما التزم به فعلاً- فالأفضل أن يبقى ذلك الكيان كما هو بدلاً من أن يتشرذم، ويتحوّل إلى (صندوق باندورا)، فتخرج منه الأفاعي بحسب رواية الأسطورة اليونانية، وتثير المشكلات في وجه السياسات الآشورية.

ولا ننس في الوقت نفسه أن دياكو لم يكن زعيماً عادياً، إنه كان زعيماً إستراتيجياً من الطراز الأول، وكان صاحب مشروع نهضوي تحرري متكامل، وصحيح أن الظروف الإقليمية لم تمكّنه من استكمال مشروعه؛ وهو الاستقلال عن المملكة الآشورية، لكن في التاريخ العالمي أدلة كثيرة على أن أصحاب المشاريع الكبرى، وخاصة إذا كانت تشتمل على تحوّلات إستراتيجية جوهرية، لا يتخلّون عن مشاريعهم عند أول إخفاقة، وإنما يعرفون كيف يركبون الموجة أو ينحنون لها عند اللزوم، ويستمرون في ترسيخ أركان مشاريعهم في عقول الجماهير وقلوبها، ويستمرون في تطوير المؤسسات الكفيلة بالحفاظ على تلك المشاريع، منتظرين الفرصة المواتية للذهاب بمشاريعهم إلى غاياتها القصوى.

توازنات إقليمية

ليس ثمة ما يمنعنا من أن نحسن الظن بالقائد الميدي دياكو في هذا المجال، وليس ثمة ما يمنعنا أيضاً من أن نحسن الظن بولده وخليفته خَشْتريت، بل لا نشك في أنه كان، في حياة والده وبرعايته، من المساهمين الأوائل في السير بالمشروع النهضوي الميدي قُدماً إلى الأمام، وأنه عمل بكل ما أوتي من جهد لتعزيز قوة الجبهة الداخلية في المجتمع الميدي، وإعداد الجماهير ومؤسسات الدولة للانتقال بالمشروع النهضوي التحرري من طور التخطيط إلى طور التنفيذ، وكان يدرك- ولا ريب- أنه لن يفلح في ذلك ما لم يعمل في الوقت نفسه على ترتيب الأوضاع إقليمياً، وإقامة تحالفات إقليمية تحمي مشروعه، وتمكّنه من تنفيذه.

وهكذا باشر خَشْتريت توحيد القبائل الميدية تحت قيادته، واستطاع أن يضم معظمها تحت سلطته، بل إنه جذب إلى صفه قبائل أخرى أهمها السيمَّريون (الكيمَّريون) Cimmerians والسكيث Scythians، وجعل القبائل الفارسية التي استقرت، منذ القرن الثامن ق.م، في الجهات الشرقية الجنوبية من إيران، تابعةً له أيضاً، وذكر هيرودوت أنه عندما استلم خشتريت الحكم في مملكة الميديين اشتبك مع الپارس (الفرس) في المعارك، وفسّر هيرودوت ذلك قائلاً:

"ولم يكن فراورتيس هذا ليرضى بمملكة من الميديين وحدهم، فأخذ بمهاجمة الفرس، ثم دخل بلادهم على رأس جيش عرمرم، وما زال يَجِدّ في قتالهم حتى استولى على كل أرضهم، وأخضعهم للميديين"[1]

ويبدي دياكونوف الشك في مسألة سيطرة خشتريت على الفرس، ولا يقدّم دليلاً على شكه[2]، علماً بأن هيرودوت قد استقى معلوماته من (الفرس الثقات) حسبما مرّ، ونعتقد أن هيرودوت كان على صواب، فالفرس كانوا يتاخمون ميديا من الجنوب الشرقي، وبما أن خشتريت كان قد قرر الهجوم على آشور في عقر دارها غرباً، فكان من الطبيعي أن يطمئن إلى أنه لن يُطعن في الظهر من قبل الفرس، ووجد أن أفضل وسيلة لحماية ظهر مملكته هي إخضاع فارس لحكمه، وهذا ما فعله لاحقاً. ويقول هيرودوت في هذا الشأن:

"وبات فراورتيس ملكاً على شعبين كلاهما قوي ذو بأس، فمضى بعد هذا النصر الذي تحقق له ليستولي على آسيا، وكان له النصر في كل حملة، فأخذت البلدان تتهاوى واحدة بعد الأخرى أمام سطوته، ثم كان أن شنّ الحرب في النهاية على الآشوريين"[3]

وإن حكم خشتريت لبلاد ميديا جاء بعد فترة تراخى فيها الضغط الآشوري على بلاد آريانا (إيران)، في عهد الملك سنحاريب (٧٠٤ — ٦٨٠ ق.م) خليفة سرجون الثاني، بسبب انشغاله بالقلاقل في بلاد بابل وعيلام وسوريا[4] واستمر الميديون في قوتهم في عهد الملك الآشوري أسرحَدّون (٦٨٠ — ٦٦٩ ق.م) ابن سنحاريب وخليفته، بل حدث نوع من التحالف بين مملكة آشور وبعض الأمراء الميديين، وقد

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٢٦٢.

3- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠. المقصود بآسيا: غربي آسيا.

4- طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٣٩.

جاء ذلك في نص المعاهدة السياسية التي أبرمها أسرحدون مع رؤساء الأقاليم التابعة للإمبراطورية في أخذ ولاية العهد لابنه آشوربانيبال Ashurbanipal[1]

الثورة الكبرى

واستعداداً لإعلان الثورة الكبرى على السلطات الآشورية بدأ خشتريت بالتحالف مع زعيمين مجاورين لبلاده، هما (مامي تيارشو) صاحب ماداي، و(دوسانني) صاحب بلاد سابارد، وذكر دياكونوف أن هذين الحليفين كانا ميديين، وهذا يعني أنهما كانا يحكمان منطقتين من ميديا، لكنهما لم يكونا ضمن الاتحاد الذي أقامه دياكو سابقاً[٢] وبدأ القادة الثلاثة العمل في وقت واحد، واستكمالاً لامتلاك أوراق ضغط إقليمية قوية أخرى اتفق الحلفاء مع مملكة السكيث، ومع مملكة ماننای، اعتقاداً منهم بأنهم بذلك يضمنون القوة الكافية لمواجهة جيوش الإمبراطورية الآشورية المعروفة بقوتها وبطشها[٣]

وفي شهر نوروز/آذار/مارس سنة (٦٧٣ ق.م) انتفض الميديون بقيادة خشتريت، وهذا يعني أن خشتريت كان قد أعدّ العدّة لتلك الثورة منذ أيام والده، وجعل الأمور تنقلب رأساً على عقب، يقول دياكونوف:

"حين كان الميديون يحاصرون القلاع الآشورية فإن هذا كان يدعو إلى جذب الانتباه؛ لأن هذا الحصار لم يكن على شاكلة المعارك، بل يدل على انتفاضة وثورة، قامت على أرضية إستراتيجية، وفنون حربية، مثلاً إن الجيش الذي حاصر مركزاً آشورياً مهمّاً مثل قلعة كيشسو لم يكن نفس الجيش الذي كان يترك القرى، ويلجأ إلى الجبال خوفاً من اقتراب الجيش الآشوري. وفي الحقيقة إن الخبرة التي اكتسبها الميديون من الحروب المتعددة مع الآشوريين ظهرت بوضوح في هذا الوقت، ومن المحتمل أن

1- المرجع السابق، ص ٣٩.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٢٥١، ٢٥٧.

3- المرجع السابق، ص ٢٥١.

گشتريتي بتحالفه مع السكان الصحراويين طوّر تكتيكات الحرب، والرمي بالسهام، وتدرّبَ الفرسان على الحرب والفروسية والسباق، وعلى مختلف فنون القتال الأخرى، بهذا الشكل هرب الآشوريون من القلاع، وأخفوا أنفسهم، بينما كان الجيش الآشوري في ذلك الوقت معروفاً بشجاعته وقوته، ومسلّحاً تسليحاً جيداً"[1]

وفي منتصف نيسان/أبريل وبداية أيار/مايو من سنة (٦٧٣ ق.م) ثار المواطنون الميديون في ميديا المركزية، وبدأ الثوار بالهجوم على القلاع الآشورية وحصارها، وتحررت جميع الأراضي الميدية الشاسعة [2]

وذكر دياكونوف أنه في سنة (٦٧٣ ق.م)، وأثناء نشوب المعارك الآشورية الميدية التي تلت ذلك بين سنتي (٦٢٥ – ٦١٥ ق.م)، لم تكن المملكة الميدية وحدها تعمل لتحرير نفسها، وإنما كانت الدويلات والممالك الصغيرة الأخرى في المنطقة التي عُرفت بعدئذ باسم ميديا تعمل للهدف نفسه، وانضمت إلى المملكة الميدية المؤسسة آنذاك[3]، وهذا يعني أن دياكو وخشتريت كانا قد أفلحا في تعميم المشروع النهضوي التحرري بين سائر الأقوام الميدية، فصار مطلباً جماهيرياً عاماً.

وبلغت جرأة الملك الميدي أنه قرر أخيراً الهجوم على نينوى عاصمة الإمبراطورية الآشورية نفسها، وإزاحة التسلط الآشوري على شعوب غربي آسيا جميعها، لكن حكام آشور، بما كانوا يمتلكون من خبرة سياسية طويلة، عرفوا كيف يواجهون الخطر الذي يداهمهم، وأدركوا أن خير وسيلة لإجهاض الهجوم الميدي على عاصمتهم هي تهديم التحالفات الميدية مع الممالك المجاورة، وإشغال القوات الميدية بأعداء معروفين بقوتهم وشراستهم وبطشهم؛ هم السكيث.

وكان السكيث قد تحالفوا حينذاك مع السِّمّريين (الكيمِّريين) أعدائهم السابقين، ونشروا الدمار في بلاد آشور، ودمروا مدن آسيا الصغرى، وشمالي سوريا، وفينيقيا،

1- المرجع السابق، ص ٢٥٠، ٢٥١. والسكان الصحراويون: السكيث.

2- المرجع السابق، ص ٢٥٢.

3- المرجع السابق، ص ٢٥٨.

ووصلوا إلى دمشق وفلسطين[1] لكن حكام آشور روّضوا السكيث، وجرّوهم إلى صفوفهم، ولجأوا إلى أسلوب المصاهرة؛ إذ قام الملك الآشوري **آشوربانيپال** بتزويج ملك السكيث ماديا (ماديس) Madyes ابن بارتاتوا (بروتوتي) Partatua من ابنته، ليقوّي التحالف الآشوري- السكيثي

الإخفاق

قرر آشوربانيپال البدء بضرب التحالف الميدي- المانّايي، فأعلن الحرب على مانناي، وكانت المملكة المانناية تشكل قوة مهمة حينذاك[3]، ودار صراع آشوري- مانناي، وحاول الملك المانناي (أخسيري) الهجوم على الجيش الآشوري ليلاً والقضاء عليه، لكن الهجوم فشل، وأُجبر أخسيري على الانسحاب، واحتل الآشوريون إيزيرتا (سَقِز الحالية جنوبي بحيرة أُورميا) عاصمة المملكة المانناية.

ويفهم من كتابات آشوربانيپال أن المواطنين في مملكة مانناي قاموا بانتفاضة جماهيرية لتأييد المملكة الميدية، لكن الملك المانناي أخسيري رضخ في النهاية للضغط الآشوري، وخضع لآشوربانيپال، وأعلن التبعية له، لكن الثوار رفضوا نهجه، وقتلوه ورموا بجثته من على الجبل، وقضوا على جميع النبلاء المنضمين إليه، فتحالف ابنه **أوالي** (أُوآلي) مع آشور بانيپال، وأرسل له ابنته هدية تعبيراً له عن الولاء، وفرض بانيپال الجزية والضرائب على شعب مانناي.

والسؤال المهم هو: أين كان خشتريت حينما هاجم الآشوريون مملكة مانناي؟ ولماذا لم يبادر إلى نصرة حلفائه؟ للأسف لا نجد في المصادر إجابات شافية عن هذين السؤالين، لكن الأرجح أن الآشوريين كانوا قد أشغلوا خشتريت مع قواته بمعارك على

1- طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤٠.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٢٦٠.

3- المرجع السابق، ص ٦١.

الحدود الآشورية الميدية، والأرجح أنهم سلّطوا حلفاءهم السكيث على بلاد ميديا لإشغال الجيش الميدي، والمهم أن خشتريت خسر حليفاً قوياً بانتقال مانناي إلى التبعية الآشورية، وبقيت ميديا وحيدة في مواجهة الإمبراطورية الآشورية وآلتها العسكرية القوية، وذكر دياكونوف أنه من المحتمل أن ملوك مانناي تلقوا مساعدة عن طريق ملك السكيث (ماديا) صهر آشور بانيپال، وأدّى ذلك إلى عدم الارتياح بين السكيث والميديين الذين كانوا في جنوب مانناي[1]

وهكذا أحكمت السلطات الآشورية قبضتها على الممالك التي كانت متحالفة في السابق مع خشتريت، وأعادتها إلى بيت الطاعة، ثم أوعز آشور بانيپال إلى السكيث بقيادة ماديا بن بارتاتوا لمهاجمة الميديين من الخلف، وصارت القوات الميدية بين قوتين مقاتلتين شرستين ومتمرّستين، فخسر خشتريت المعركة، والأرجح أنه قُتل فيها سنة (٦٥٣ ق.م)، بعد أن حكم ميديا اثنتين وعشرين سنة، وكانت النتيجة أن السكيث احتلوا ميديا حوالي ثمان وعشرين سنة (٦٥٣ – ٦٢٥ ق.م)[2]، ولا ريب في أن ذلك كان بموافقة حكّام آشور، ولعلهم قدّموا ميديا للسكيث مكافأة لهم على ما قدّموه من دعم لإنقاذ الإمبراطورية من الانهيار.

وكان على ميديا أن تنتظر زعيماً آخر يستكمل المشروع التحرري.

وكان ذلك الزعيم هو كَيْخسرو (كياكسار) بن خشتريت.

1- المرجع السابق، ص ٢٦٤.

2- طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤٠.

٦

الملك كَيْخُسْرو الميدي: محرر غربي آسيا

(توفي سنة ٥٨٥ ق.م)

عنف إمبراطوري

الذهنية الإمبراطورية والعنف صديقان حميمان، وحيثما وجدتَ إمبراطورية فابحث عن العنف تحت عباءتها، وما من إمبراطورية قامت إلا مارست قدراً كبيراً من العنف، وكان ذلك العنف يتناسب طرداً مع الثقافة السادية التي تربّى عليها الحكّام الإمبراطوريون من جانب، ومع مقدار الرفض الذي كانت تعبّر عنه الشعوب المقهورة على شكل انتفاضات وثورات من جانب آخر.

واقتران العنف بالذهنية الإمبراطورية أمر طبيعي جداً؛ لأن الشعب الذي يعتنق عقيدة غَزواتية توسّعية، ويسعى لتأسيس إمبراطورية على أسس دينية أو قومية، يجد نفسه مضطراً إلى الاعتداء على الشعوب الأخرى سواء أكانت مجاورة له أم بعيدة عنه، ومن الطبيعي أن تلجأ الشعوب المعتدى عليها إلى مقاومة الجهة الإمبراطورية، وتدافع عن أوطانها وهوياتها، ومن الطبيعي أيضاً أن تلجأ الجهة الإمبراطورية، وقد تشبّعت بأقصى ما يمكن من مبادئ العنف ونيّات التدمير، إلى وضع مبادئ الرحمة جانباً، والبطش بتلك الشعوب، وإخضاعها بالحديد والنار.

ومنذ خمسة آلاف سنة كانت شعوب غربي آسيا ضحية العنف الإمبراطوري، وكانت تلك الإمبراطوريات بهوية شرقية تارة، وبهوية أوربية تارة أخرى، فكان العنف شرقياً أصيلاً حيناً، وكان غربياً دخيلاً حيناً آخر؛ وفي الحالين كانت

رؤوس البشر تبدو بالنسبة إلى الإمبراطوريتين على أنها ثمار يانعة حان أوان قطافها، ألم يقل **الحجّاج بن يوسف الثَّقَفي** (من أركان الإمبراطورية الأُمَوية العربية) لأهل الكوفة في العراق، وهو في المسجد: "**إني أرى رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها، وإني لَصاحبها**"؟!

والغريب أنه كان للإمبراطوريات الشرقية قصب السبق في ميدان صناعة العنف المُبرمج المُمَنْهج، والغريب أيضاً أن العنف الإمبراطوري الشرقي المُبرمج المُمَنهج كان يستند على الدوام إلى مرجعية دينية، إنه كان عنفاً يتمّ باسم الله، وفي سبيل الله، وبطبيعة الحال كان صنّاع كل إمبراطورية يتصوّرون (الله) ويصوّرونه بالصورة العنيفة التي تتناسب مع نزعتهم السادية وجشعهم الإمبراطوري.

ويعلم كل قارئ لتاريخ الشرق أن الإمبراطورية المغولية، بقيادة جنكيزخان وأبنائه في القرن الثالث عشر الميلادي، كانت الإمبراطورية الأكثر شراسة، والأشد عنفاً، والأقسى تدميراً، إزاء الشعوب المغلوبة، ليس لأنها كانت تهدف إلى احتلال الأوطان، ونهب ثروات الشعوب فقط، وإنما أيضاً لأنها كانت تتخذ من الإرهاب عقيدة، ومن البطش بالشعوب رسالة إلهية؛ بحسب ما أوحى به الشامان الأكبر إلى جنگيز خان وخلفائه، ولذلك كان القادة المغول، خلال احتلالهم لمدينة ما، يفرضون على كل مقاتل مغولي أن يأتي برَأس بشري، أو بعدة رؤوس، ثم يقيمون من تلك الرؤوس أهرامات تكون فيها الوجوه جميعاً إلى الخارج، ولا تسألوا عن متعة المغول قادةً وجنداً وهم يتأملون تلك الأهرامات البشرية.

رؤوس تُقطع وجلود تُسلخ

لقد عانت شعوب غربي آسيا قبل الميلاد بحوالي ألف سنة من قسوة إمبراطورية شرقية أخرى، لم يكن قادتها يقلّون شراسة وعنفاً وبطشاً عن قادة الإمبراطورية المغولية؛ أقصد الإمبراطورية الآشورية، وكما هي العادة في الشرق كان الزعيم الإمبراطوري الآشوري يستند إلى مرجعية دينية في ممارسة عنفه الإمبراطوري، فكان

يقدّم نفسه لشعبه وللعالم على أنه ربيب **الإله آشور** وحبيبه، وأن آشور منحه صكاً مقدساً أبدياً مفتوحاً، يباح له، بموجب ذلك الصك، أن يغزو الجهات الأربع، وينهب ويسلب ويسبي ويأسر ويقتل ويدمّر بتكليف من الإله آشور، وفي سبيل الإله آشور.

ويعدّ **آشور ناسَربال الثاني** (٨٨٤ – ٨٥٩ ق.م) واحداً من أقوى ملوك آشور، وكان يسيطر على بلاد الرافدين وكردستان وسوريا الكبرى، وإليكم بعض مما افتخر به هذا الملك الإمبراطوري في مجال العنف:

- من الألقاب الملكية التي خصّ بها نفسه: "**أنا آشور ناسَربال الأميرُ المطيع الذي يعبد الآلهة العظيمة، أنا التنّين الضاري، غازي المدن والجبال كلها، ملكُ الملوك، وفارضُ الحصار على المتعنِّت، المتوَّجُ بالبهاء، والباسلُ في المعركة، البطلُ الشامخ، عديمُ الرحمة، المثيرُ للصراع**"[1]

- ويفخر آشور ناسَربال بالمرجعية الإلهية التي يعتمدها في نزعته الإمبراطورية: "**عندما دعاني آشور– ربّي العظيم– باسمي، وجعل سيادتي مطلقة على ملوك الجهات الأربع، وجعل اسمي العظيم هو الأعلى، وضع سلاحه الذي لا يعرف الرحمة في ذراعيّ المَلكيتين، وأمرني بحزم بأن أَحكم وأُخضع وأدير البلاد والمرتفعات الشامخة**"[2]

- ويقول في وصف إحدى غزواته لجبال كردستان: "**وأَعملتُ السيف في تقطيع أجزاء ٢٠٠ من رجالهم المقاتلين، وسُقت جشوداً من الأسرى وكأنهم قطعان غنم، وبدمائهم صبغت الجبل أحمر مثل صوف أحمر**"[3]

- ويقول في غزوة أخرى له إلى جبال كردستان: "**فأعملتُ السيوف بتقطيع ٢٦٠ جندياً من مقاتليهم، وقطعت رؤوسهم وجعلت منها كومة، وسوّيت مع**

1- البرت كيرك كريسون: الكتابات الملكية لآشور ناصربال الثاني، ص ٢٢.

2- المرجع السابق، ص ٢٤. والمرتفعات الشامخة هي جبال كردستان.

3- المرجع السابق، ص ٢٥.

الأرض مدنهم، ودمّرها وأحرقتها؛ تلك المدن الواقعة في المرتفعات الشاهقة، ثم نزلت القوات الكثيرة التي هربت من أسلحتي إليّ، وركعت عند قدمي، ففرضتُ عليهم الإتاوة وعمل السخرة، وسلخت بوبو بن بابوا حاكم مدينة نيشتون حياً في مدينة أربيل، وعلّقت جلده على السور"[1]

● وفي غزوة له إلى منطقة نهر الخابور في كردستان يقول: "**وبتأييد من آشور والإله أَدَد؛ الإلهين العظيمين اللذين جعلا سيادتي مطلقة، حشدتُ عجلاتي وجندي، وانطلقت إلى نهر الخابور، وجعلت آزي- إيلي حاكماً يمثّلني عليهم، وجعلت كومة من الرؤوس أمام بوّابته، وسلختُ جلود النبلاء الذين تمردوا عليّ، ثم نشرت جلودهم على الكومة، فبعضُها في داخل الكومة، وبعضها علّقتها على أعواد مغروسة في الكومة، وبعضها وضعته على أعمدة حول الكومة، وأتيت بالعديد منهم إلى بلادي، فسلخت جلودهم هناك، ونشرتها على الأسوار**"[2]

وجملة القول أن مفاخر هذا الملك كلها تدور حول البلاد التي غزاها، والشعوب التي قهرها، والثروات التي سلبها، والهدايا التي سيقت إليه قسراً، والمدن التي أحرقها ودمرها، والزعماء الذين سلخ جلودهم، والأسرى الذين ساقهم كقطعان الغنم، فقتلهم أو أحرقهم أو أبقاهم لأعمال السخرة، ولم يكن آشور ناصربال فريداً في نزعة العنف الإمبراطورية هذه، وإنما كان معظم من سبقه ولحقه من ملوك آشور ينهجون هذا النهج، وكانت حملات العنف والبطش تمتد إلى كل بقعة من بقاع غربي آسيا، بدءاً من قلب بلاد فارس شرقاً إلى مصر غرباً.

وثمة شعبان تحمّلا النصيب الأكبر من عنف ملوك آشور؛ هما الشعب الميدي في جبال كردستان، والشعب البابلي في سهول بلاد الرافدين، ويبدو من سير الحملات الآشورية أنها كانت متوجّهة على الغالب إلى كردستان، إذ ثمة على الدوام حديث عن

1- المرجع السابق، ص ٢٥ – ٢٦

2- المرجع السابق، ص ٢٧.

اجتياز الممرات الصعبة، وتسلّق الجبال الوعرة، والصعود إلى المدن الواقعة في قمم الجبال الشاهقة، وهذا أمر طبيعي، فمن السهل على الجيوش الإمبراطورية أن تسيطر على المدن الواقعة في السهول، لكن الصعوبات تكمن في غزو سكان الجبال، ويبدو مما ورد في كتابات ملوك آشور أن القبائل الكردية – سواء أكانت ممثّلة في الميديين أم في الكردوخ- كانت أكثر ثورة على السلطات الآشورية، وكانت أكثر قدرة على مقاومتهم؛ وكان عليها من ثَمّ أن تتحمّل القسط الأكبر من انتقامهم وبطشهم.

كيخسرو مخطّطاً

مرّ في سيرة دياكو الميدي أن الميديين كانوا يفجّرون الثورة تلو الثورة ضد ملوك آشور، فقاد دياكو الثورة الأولى الكبرى، لكنه أخفق، ثم تابع ابنه خشتريت (فراورتيس) مسيرة الكفاح ضد الحكم الآشوري طوال (٢٢) سنة، ثم خلفه على الحكم ابنه كَيْخُسْرو Kai-Khosru (حكم على الأرجح بين ٦٢٥ – ٥٨٥ ق.م)، ويسمّى كي أخسار Cyaxares، وذكر دياكونوف المقطع الثاني بصيغة (إخسار) Exear، و(خسارت) Xsart، وأفاد أنها تعني الشجاعة والجسارة[١]

أما هيرودوت فذكر اسم كيخسرو بصيغة (سياشاريس)، وذكره هارفي بورتر بصيغة (كيكسارس)، وذكره ول ديورانت بصيغة (سياخسار، سياكزارس)، ويسمى أُوڤاخشترا Ouvakhshatra أيضاً، كما يسمى في بعض المصادر (اكسركيس)، ويعود الاختلاف في اسمه إلى الجهة التي ذكرته، سواء أكانت بابلية، أو آشورية، أو يونانية، أو فارسية، أو أرمنية، أو سريانية، أو عربية؛ وهذا التغيّر في الأسماء عندما تنتقل من لغة إلى لغة أمر معروف في المصادر التاريخية القديمة[٢]

1- دياكونوف: ميديا، ص ٣٥٧. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤٠.

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠. هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٦. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠١.

وليس من المستبعد أن يكون اسم (كيخسرو) في أصله لقباً كما هي عادة ملــوك غربي آسيا، وأن صيغته الأصلية هي (كَيْ خاشْ رُو)؛ أي (الملك السعيد) أو (الملــك الخالد)؛ باعتبار أن كلمة (كَيْ) تعني (الملك)، و(خاش) تعني (الطيب، السعيد، الحيّ)، ولشهرة هذا الملك اقتبسه ملوك الفرس، وتحوّل في المصادر العربية إلى صيغ (كسْرى)، ومعروف أن حرفي (س، ش) يتبادلان الأدوار الصوتية، فيحل أحدهما محل الآخر حينما تنتقل الكلمة من لغة إلى لغة، ومثال ذلك تحوّل كلمة (شابور) الفارسية إلى (ســابور) في اللغة العربية.

وكيخسرو هو أعظم ملوك ميديا، إنه ورث عن أبيه خشتريت (فراورتيس) خصالاً قيادية متميزة، فكان قائداً محنّكاً حازماً، ورجل دولة عظيماً، كما أنــه نــذر نفــسه لاستكمال المشروع التحرري الميدي الذي بدأ على يدي جده دياكو، وتقدّم به والده خشتريت أشواطاً إلى الأمام، ويكفيه عبقرية أنه وقف في وجه الإمبراطورية الآشورية، وكانت أعتى قوة سياسية وعسكرية في غربي آسيا، فألحق بها الهزيمة، وأخرجهــا مــن دائرة التأثير السياسي الفاعل في غربي آسيا.

وتميّز كيخسرو برؤية إستراتيجية رحيبة، وبحسّ سياسي واقعي، وبخصال قياديــة نادرة، كما أنه كان توّاقاً إلى تحرير ميديا وشعوب غربي آسيا من الحكم الآشــوري، وكي يحقق هذا الهدف قام بإنجازات ثلاثة مهمة؛ لولاها لما حقق أي نجاح يُذكر.

- **الإنجاز الأول**: توحيد القبائل الميدية تحت لواء واحد، على نحو أوسع مما فعله جده ووالده، ووضعها أمام هدف واحد، يتمثل في الخلاص من التبعية لمملكة آشور، فأسكن القبائل الرحّالة ونظّم شؤونها، وسنّ القــوانين، ونظّم الجيش علــى أســس حــديثة لتحقيق التوازن مع الجيش الآشوري، مقتبساً بعض أســاليب الــسكيث في القتــال؛ مثل سرعة الحركة والمنــاورة، وتشكيل خيّــالة سريعة الحركة، وتمييز رماة الســهام عن الفرســان، كما جعل (أكباتانا) عاصمته الدائمــة.
- **الإنجاز الثاني**: القضاء على الخطر السكيثي، وصحيح أنه أفلح سابقاً في تقلــيم أظافر الغزاة السكيث، وأن الفريقين كانا قد عقدا معاهدة فيما بينهما، لكنــه كــان

يدرك أن السكيث يمكن أن يهددوا المملكة الميدية عند أول فرصة سانحة، وأنهم لن يترددوا في طعن الميديين في الظهر، وهذا ما فعلوه أكثر من مرة، وخاصة في عهد خشتريت كما مرّ.

لذلك قرر كيخسرو ألا يتيح للسكيث إمكانية عرقلة خطته ضد خصمه الأكبر (الإمبراطورية الآشورية)، والهجوم على ميديا من الخلف ثانية، فدعا قادتهم إلى حفل عامر بالأطعمة اللذيذة والأشربة المسكرة، ولما أكل القوم من الطعام ما طاب، وشربوا من الخمر ما لذّ، وأصبحوا سكارى، أمر كيخسرو المقاتلين الميد بالانقضاض عليهم، والفتك بهم جميعاً، فبقي السكيث من غير قيادة فعّالة، وتضعضعت صفوفهم، وأصبح من السهل على الملك الميدي السيطرة عليهم، وكبح جماحهم.

● **الإنجاز الثالث**: عقد التحالف بين ميديا وعيلام في الجنوب، وبين ميديا وبابل في الغرب، وكان تحالفه مع الملك البابلي (الكلداني) نابوپولاصّر Nabopolasser هو الأهم إستراتيجياً، حتى إنه وافق على تزويج ابنته **أُوميد** (أميتس) من نبوخذنصّر (بُختَنَصّر) بن نابوبولاصّر[1]، وهي التي بنى لها نبوخذنصّر (الحدائق المعلّقة) الشهيرة، وكان نابوپولاصّر والياً على بابل من قبل الملك الآشوري آشور بانيبال، لكنه كان يطمح إلى الاستقلال الكامل عن المملكة الآشورية، وبهذا التحالف لم يضمّ كيخسرو قوة جديدة إلى قوته فحسب، وإنما جرّد السلطة الآشورية من إمكانية تحشيد هذا الشعب ضد الميديين.

كيخسرو محرراً

وهكذا كان الزعيم الميدي على وعي تام بأن القضاء على قوة عظمى لا يكون إلا بقوة عظمى مماثلة، وكان يدرك أنه لا يكفي أن يكون القائد طموحاً،

1- دياكونوف: ميديا، ص ٢٨٣. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤١.

وإنما من الضروري أن يكون قادراً على تجسيد ذلك الطموح في أهداف وخطط وبرامج قابلة للتنفيذ، وكان يعلم أيضاً أن أمة تعاني من خصومات داخلية، ومن تشرذم ثقافي وسياسي، ومن تعدد في مصادر صنع القرار، لا يمكن أن تحرر أرضاً أو تردّ عدواً.

بلى إن كيخسرو كان يدرك كل هذه الحقائق، وإن سلوكه القيادي وسياساته خير دليل على ذلك، كما أنه كان يعرف أن تهيئة المناخ السياسي الإقليمي لتحقيق الأهداف المرجوّة أمر لا بد منه، وبعد أن استكمل الاستعدادات العسكرية، وأنجز التحضيرات الخارجية عبر التحالفات، هاجم المملكة الآشورية سنة (٦١٥ ق.م)، واتخذ أرّابخا (كَرْخِيني = كركوك) قاعدة لانطلاقة أعماله الحربية، وزحف بجيشه على العاصمة الإمبراطورية نينوى، لكنها قاومته مقاومة عنيفة، وفي الأخبار أن سبب فشل كيخسرو في احتلال نينوى كان بسبب تصدّي السكيث له[1]

ونتيجة لذلك توجّه كيخسرو إلى مدينة آشور، وكانت تعدّ العاصمة الدينية للآشوريين، ويقع فيها معبد الإله آشور، ففتحها، قال دياكونوف:

"قتل الجيش الميدي الرجال المتنفّذين والمستشارين للدولة الآشورية في المدينة، وسلبوا المعابد الآشورية، وحصلوا على ثروات طائلة من هذا السلب؛ تلك الثروات التي جمعها الآشوريون طوال سنين الحروب الماضية، والتي سلبوها من الأقوام والشعوب في تلك المنطقة"[2]

وبينما كان جيش كيخسرو يدمر مدينة آشور، كان الملك الكلداني نابوبلاصّر يمارس سياسة انتهازية، ويبدو أنه كان ينتظر انكشاف الحرب بين ميديا وآشور عن نتيجة معيّنة، ليتخذ على ضوئها قرار الانضمام إلى هذا الطرف أو ذاك، وأراد أن يجعل من حليفه الجديد كيخسرو أداة له فحسب، كتب دياكونوف:

1- طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤١.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٢٨٧.

"إن ملك أكّد (بابل) وجيشه الذي كان ينوي التوجّه لمساعدة الميديين لم يلحق المعركة، إن تأخير نابوبلاصّر بالكامل كان برغبته، احتمال بتواطؤ كبار الرجال والكهنة الآشوريين مع بابل، وهذا وارد جداً"[1]

ويبدو مما رواه دياكونوف أن نابوبلاصّر كان متعاطفاً مع دولة آشور ثقافياً، وقد أعلن الملك البابلي (الكلداني) في كتاباته قائلاً: **"لأنه لم يذهب إلى نجدة معبد آشور انزعج من أجلهم كثيراً، بحيث انكبّ على وجهه على الأرض"**[2]، لكنه كان يعادي آشور سياسياً، ويعمل للتحرر من قبضتها، ولم يجد بدّاً من التوجّه إلى أنقاض آشور، وعقد حلف تعاون وصداقة مع كيخسرو، وجعل ذلك التحالف أكثر متانة بأن خطب لابنه نبوخذنصّر ابنة الملك الميدي كما مر قبل قليل.

وفي سنة (٦١٢ ق.م) شنّ الحليفان الميدي والبابلي الهجوم مرة أخرى على نينوى **"مدينة الدم"**؛ حسب تسمية الشعوب المجاورة[3]، ولم يكن اقتحام عاصمة الإمبراطورية الآشورية أمراً سهلاً، إنها صمدت بقوة، ودافع الملك الآشوري **سين شاريش كون** (ساراك) ابن آشور بانيبال عن عاصمته بعناد، والأرجح أن الفريق المهاجم استعان بفيضان مياه دجلة، فوجّهه إلى أسوار المدينة المنيعة، فجرفت المياه جوانب منها، وبعد حرب طاحنة وحصار شديد، أيقن الملك الآشوري بالهلاك، فجمع نساءه في قصره، وأشعل فيه النار، ورمى نفسه فيها، فاحترقوا جميعاً[4]

قال هيرودوت في تاريخه مشيداً بانتصار الميد على الآشوريين:

"شقّ الميديون عليهم عصا الطاعة، فحملوا السلاح في وجههم، وقاتلوهم ونزعوا عن أعناقهم نير العبودية، وباتوا أحراراً، وكانت تلك مأثرةً اقتدت بهم

1- طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤١. دياكونوف: ميديا، ص ٢٨٧.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٢٨٨.

3- المرجع السابق، ص ٢٨٠.

4- هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٦٨.

فيـها أمـم أخرى قُيّض لها أن تستعيد استقلالها، وهكـذا استفحـل أمـر الثورة، فكان أنْ نعمت الأمـم في كل أرجـاء تلك الأرض بنعمة الاستقلال في تصريف شؤونها"[1]

وقال النبي العبراني ناحوم (كان أسيراً في نينوى) واصفاً سقوط نينوى أمام الهجوم الميدي-البابلي، ومعبّراً عن ارتياح الشعوب التي كانت تخضع للآشوريين:

"نَعست رعاتُك يا مَلكَ أشور. اضطجعت عظماؤك. تشتّت شعبُك على الجبال ولا من يجمع. ليس جبرٌ لانكسارك. جرحُك عديم الشفاء. كلُّ الـذين يـسمعون خبرَك يصفّقون بأيديهم عليك؛ لأنه على مَن لم يمرّ شرُّكَ على الدوام"[2]؟!

وصحيح أن الحلف الميدي- البابلي كان ناقماً على السلطات الآشـورية، فـدمّر قسماً من نينوى، لكنه لم يلجأ إلى البطش والتنكيل بالجماهير على طريقة الـسلطات الآشورية، كتب دياكونوف يقول:

"إن الأقوام التي كانت تعيش في أسر الآشوريين كانت تنتظر بفارغ الصبر مجيء هذا اليوم، والتصرف بهذا الشكل مع الظالمين، والمآسي التي تعرضوا لها على أيدي الآشوريين لا بد من ممارستها عليهم، كما كانوا يفعلون بهم، لقد كـانوا يحرقـون الأخضر واليابس، وأشعلوا النيران في القرى والقلاع، وأحرقوا الأطفال الصغار، ألم يخرّبوا القصور والمعابد؟ ألم يكسّروا تماثيل ورسومات الآلهة؟ ألم يأخـذوا النـساء أسرى بثياب ممزّقة؟ هل كان للآشوريين الحق في فعل كل هذا دون أن ينتظروا أن يفعله الناقمون عليهم بالمقابل؟ مع كل هذا يظهر أن أفعال الميديين وحلفائهم مـع الآشوريين كان أخفّ بكثير عما ارتكبه الآشوريون ضد الـشعوب والأقـوام في منطقة الشرق القريب"[3]

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٧٧.

2- العهد القديم، الأصحاح ٣، الآية ١٨، ١٩ وانظر أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٢٩٤.

3- دياكونوف: ميديا، ص ٢٩٠- ٢٩١. والمقصود بالشرق القريب: غربي آسيا.

وأفاد دياكونوف أن الميديين لم يقضوا على الآشوريين من المواطنين المظلومين، و لم يهدفوا إلى القضاء عليهم وعلى ثقافتهم: "**إن قوم آشور لم يُقضَ عليهم في الحقيقة، بل عاشوا في نينوى المدمّرة والمدن المجاورة الأخرى، وبعد سنين عديدة كانوا لا يزالون يعبدون آلهة آشور**"[1]

وصحيح أن الميديين أسروا أعداداً كبيرة من الآشوريين أثناء الحرب، "**ولكنهم لم يتصرفوا مع الأسرى ولا مع المواطنين الآشوريين بالظلم والقسوة كما كان منتظراً**"[2] وقال دياكونوف موضّحاً سبب هذا السلوك الميدي:

"**فإن الميديين كان هدفهم في الانتصار هو التحرر والتحرر فقط، وهذه حقيقة واضحة، فإن القضاء على الإمبراطورية الآشورية وسقوطها تماماً أمسى عاملاً لسعادة جميع بلدان آسيا الغربية**"[3]

و لم تنته الحرب الميدية- الآشورية بسقوط العاصمة نينوى؛ إذ استطاع قسم من الجيش الآشوري الخروج من نينوى بقيادة **آشور باليت** (آشور أوباليت)، وهو عمّ الملك الآشوري ساراك، والأخ الأصغر للملك آشور بانيپال، وتوجّه ذلك القسم من الجيش الآشوري إلى مدينة حرّان[4] متحصّناً بأسوارها، وكانت حرّان حينذاك أكبر مدن شمالي بين النهرين، وكانت شبه دولة مستقلة، ومتحالفة مع الآشوريين، وكان آشور باليت في عهد أخيه آشور بانيپال كاهناً للإله (سين) الحرّاني، وكانت لهذا الإله مكانة مرموقة في سوريا وبلاد بين النهرين، لهذا كانت علاقته قوية بسكّان حرّان

1- المرجع السابق، ص ٢٩١

2- المرجع السابق نفسه.

3- المرجع السابق، ص ٢٩٣.

4- تسمّى (هاران) أيضاً، نسبة إلى الهوريين (الحوريين).

5- دياكونوف: ميديا، ص ٢٩٤.

وجلس آشور بالّيت على عرش آشور في حرّان خريف عام (٦١٢ ق.م)، وتجمّع حوله من تبقّى من القادة الآشوريين والتكتلات التابعة لهم، وكانت الخطة الطويلة الأمد هي إطالة الحرب للاحتفاظ ببقايا المملكة الآشورية، ولو في جزء من أراضيها السابقة، وكان أملهم الكبير في حليفهم فرعون مصر (نَخو/نخاو الثاني)، وفي أن يستمدوا الدعم من مملكة أورارتو التي كانت قد ضعفت بسبب حربها مع السكيث، وتخاف من خطر ميديا، فأبقت على صداقتها مع آشور كالسابق[1]

غير أن الحليفين الميدي والبابلي وقفا للتحالف المعادي بالمرصاد، وعدم السماح للدولة الآشورية بالنهوض ثانية، وفي سنة (٦١٠ ق.م) زحف الجيشان الميدي والبابلي نحو حَرّان، فخرج آشور بالّيت ومن معه من المصريين منها، ولجأوا إلى مدينة كِرْكَميش (قِرْقِميش) على الجهة الأخرى من الفرات، فاحتل التحالف الميدي- البابلي حَرّان بسهولة، وصارت من نصيب الكلدان، وعاد الجيش الميدي إلى ميديا[2]

واستمرت المناوشات بين الفريقين حتى ربيع سنة (٦٠٩ ق.م)، وفي حزيران/يونيو وآب/أغسطس وصل جيش فرعون مصر، وهاجمت القوات الآشورية والمصرية حرّان، ويبدو أن أمر الدفاع عنها كان قد أوكل إلى قوات بابلية محدودة العدد، وفي شهر أيلول/سبتمبر وصلت قوات نابو پولاصّر لفك الحصار عن القوات البابلية في حرّان، وكان آشور بالّيت يحاول خلال ذلك التواصل مع أورارتو، لكن الميديين ضربوا أورارتو بشدة، ووصلوا إلى عاصمتها (توشپا) على سواحل بحيرة (وان)، وسيطروا على مملكة أورارتو، وبما أن القوات الآشورية والمصرية كانت قد تمركزت في كِرْكميش، حاصرتها قوات الحلف الميدي البابلي، وسيطرت عليها سنة (٦٠٥ ق.م)، لأهميتها في توفير النقل عبر الفرات، وكانت تعتبر ملتقى طرق القوافل بين سوريا وبلاد

1- المرجع السابق نفسه.

2- المرجع السابق، ص ٢٨٤، ٢٩٥.

بين النهرين، وصارت كركميش من نصيب بابل، ودخلها الأمير البابلي نبوخذنصّر دون أية صعوبات[1]

وهكذا زالت من الوجود واحدة من أقوى إمبراطوريات العالم القديم، وأصبح غربي آسيا مقسّماً بين أربع دول كبرى، هي: مملكة ميديا، ومملكة بابل الحديثة، ومملكة ليديا في آسيا الصغرى، والمملكة المصرية؛ قال عبد الحميد زايد بصدد القضاء على مملكة آشور:

"وقد قامت أربع قوى (ميديا، كَلديا، ليديا، مصر) في ذلك الوقت بتقسيم الشرق الأدنى بينهم، ولكن ميديا وحدها هي التي يمكن تسميتها بالإمبراطورية"[2]

عبقرية كيخسرو

إن عبقرية كيخسرو لم تقتصر على إسقاط إمبراطورية كبرى قوية، و لم تنحصر في ميادين الحروب، وإنما تجلّت في ميادين الإدارة والسياسة؛ إذ أقام إمبراطورية كبرى، امتدت من أفغانستان ضمناً شرقاً إلى حدود ليديا (وسط تركيا حالياً) وإلى الساحل الشمالي الشرقي للبحر المتوسط غرباً، ومن بحر قزوين والقوقاز شمالاً إلى مضيق هُرْمُز في الخليج الفارسي (العربي) جنوباً، وكان أول من وحّد جميع الشعوب الآريانية في غربي آسيا، وضمّها في دولة واحدة.

ورغم أن الغزاة السكيث فقدوا نصيراً كبيراً لهم بسقوط الإمبراطورية الآشورية، ورغم أن الملك الميدي كان قد قلّم أظافرهم، وأخضعهم لسلطته، لكنهم كانوا ينتهزون الفرصة للانقلاب على الميديين ثانية، الأمر الذي جعل كيخسرو يهاجمهم، وينزل الهزيمة بهم، ففروا من وجهه غرباً، ولجأوا إلى مملكة ليديا المجاورة لمملكة ميديا غرباً، وكان الخط الفاصل بين حدود المملكتين هو نهر هاليس (قِزِل إرماق).

1- المرجع السابق، ص ٢٩٦.

2- عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٨٥.

وطلب كيخسرو من إلياتِّس (إلياتيس) ملك ليديا تسليمه السكيث الفـــارين، لكن إلياتِّس رفض ذلك، فأعلنت ميديا الحرب على ليديا سنة (٥٩٠ ق.م)، وقـــاد كيخسرو جيشه نحو وسط الأناضول، فاستعانت ليديا بحلفائها من الفريجيين وغيرهم من كان آسيا الصغرى، واستعان كيخسرو بحليفه البابلي نابوپولاصّـــر، ودامـــت الحرب بين الدولتين حوالي ست سنوات، دون أن يحقق فريق النصر الحاسم علـــى الفريق الآخر، وصادف أن كسفت الشمس، وأظلم النهار، ففسّر الفريقان ذلك بأنه غضب من الآلهة، فتصالحا وتحالفا، وتزوّج **أستياگ** بن كيخسرو من **أريينس** ابنـــة إلياتِّس، وكان الطرفان شديدي الحماس لتبادل العهود والمواثيق، وجـــرى تبـــادل العهود بأن أحدث كل من كيخسرو وإلياتِّس جرحاً في ذراعه، فأخذ كل واحـــد منهما يلعق الدم من جرح الآخر

والأرجح أن ذلك الحدث كان سنة (٥٨٥ ق.م)، وهي السنة التي تـــوفّي فيهـــا كيخسرو، وخلفه على عرش الإمبراطورية الميدية ابنه أستياگ.

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٦٣ – ٦٤. دياكونوف: ميديا، ص ٣٠٢. هارفي بـــورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٧.

٧

الملك الميدي أستياگ وسقوط مملكة ميديا

(توفي بعد سنة ٥٥٠ ق.م)

قراءة التاريخ

للناس في قراءة التاريخ مذاهب شتى، فبعضهم يقرأ التاريخ من زاوية معرفية استكشافية؛ إنه يعشق الاطلاع، ويهوى البحث عن الحقائق، ويريد معرفة ما جرى على هذه الأرض من أحداث ومشكلات وصراعات.

وبعضهم يقرأ التاريخ من زاوية علمية فلسفية؛ إنه يشغف بالكشف عن العوامل المباشرة وغير المباشرة في صناعة الأحداث، ويهوى الوصول إلى الدوافع الخفية لهذا الحدث أو ذاك، ويسعى إلى الربط بين الأسباب والنتائج، وتحديد المسارات الكبرى لمسيرة الأمم وتوجّهاتها.

وبعضهم يقرأ التاريخ من زاوية اتعاظية أخلاقية، إنه يريد معرفة ما مارسه الأقدمون من الإيجابيات والسلبيات، والمنافع والمضار، وما أنجزه الأخيار وارتكبه الأشرار، ليخرج من كل ذلك بدروس وعِبَر عظات.

وبعضهم يقرأ التاريخ بحثاً عن هوية شُوّهت، وجذور طُمست، وجغرافيا نُهبت، وثقافة اغتيلت، وحقوق سُلبت، وتصحيحاً لحقائق حُوّلت إلى أباطيل، وفضحاً لجرائم عُدّت أمجاداً، وتصويباً لمدنّسات أُنزلت زوراً وبهتاناً منزلة المقدّسات.

وبعضهم يقرأ التاريخ من زاوية نرجسية عنصرية، فيبحث عن كل ما يتعلق بقبيلته أو قومه أو دينه أو مذهبه، حتى إذا فاز ببعض ما يريد شرع ينفخ فيه، فيكبّره

ويُعملقه، ويجمّله ويزخرفه، ويعمد في الوقت نفسه إلى تواريخ الآخرين، فيطمس فيها كل حسنة، ويغيّب عنها كل فضيلة، ويقزّم كل ما فيها من أمجاد؛ لماذا؟ لأنه لا يطيق للآخرين وجوداً؛ إلا إذا كان لهم سيداً مطاعاً، وكانوا له عبيداً وأتباعاً.

وبعضهم يقرأ التاريخ بذهنية إمبراطورية نشأ عليها، إنه مشغوف بالأمجاد العظمى، مهووس باجترار أحداث سُفكت فيها الدماء، وقُطعت فيه الرقاب، ودُمّرت فيه البلدان، ويطيب له أن يبارك العهود التي كان فيها أجداده يمتشقون السيوف، وينقضّون على الشعوب الأخرى، فيحتلون البلاد، ويقهرون العباد، وينهبون الثروات، ويستأثرون بالخيرات، ويذيقون الآخرين أنواع البلاء والنكبات.

عصور ولّت!

نعتقد أن أفضل قراءة للتاريخ هي تلك التي تجمع بين حب الاطلاع، واستكشاف المجهول، ومعرفة الأحداث كما هي، وتمييز الإيجابيات من السلبيات، والمنافع من المضارّ، والخروج من كل ذلك بما يحفظ لكل شعب كرامته، ولكل أمة هويتها، ولكل ثقافة نكهتها، ولكل جغرافيا حرمتها، بعيداً عن النزعات العنصرية، وبمعزل عن الطموحات الإمبراطورية، وبما يرسّخ علاقات المودة بين الشعوب، ويقيم الجسور بين الأمم والثقافات، ويربّي الأجيال على رؤية إنسانية واقعية، فيها حرص على الآخر وجوداً وهويّةً بدل التنكيل به وإلغائه.

أما عصر قعقعة السيوف، وصهيل الخيول، وتجنيد المرتزقة والانكشارية، واكتساح الشعوب، وتشييد الإمبراطوريات القومية أو الدينية أو المذهبية، فقد ولّى، ولم يعد الوعي البشري في القرن الحادي والعشرين يطيق هذه الأحلام النرجسية الوبائية المتخلفة، أجل، إن الأمجاد الوحيدة الممكنة في عصرنا هذا هي أمجاد العلم والمعرفة والحضارة، أمجاد الانتقال بالشعوب من ظلمات التخلف إلى إشراقات التقدم، ومن عذابات الفقر والشقاء بأنواعه إلى زرع المسرّة في قلوب المعذّبين، ورسم الابتسامات على وجوه المقهورين.

أقول هذا لأني اكتشفت، من خلال قراءتي تاريخ غربي آسيا، حقيقة هي في الغاية من المرارة، ملخّصها أننا- نحن شعوب هذه المنطقة فرساً وعرباً وكرداً وكلداناً وسرياناً وآشوريين ومندائيين وأرمناً وتركاً وغيرهم- خرجنا من انحطاط إلى انحطاط، وما كدنا نفلت من قبضة السبات الطويل في العصر الوسيط حتى وقعنا في قبضة التناحر في العصر الحديث؛ هذا يلغي ذاك ويعمل لإفنائه، وذاك يشوّه تاريخ الآخر ويعمل لتغييبه، وثالث يلوّح بأمجاده الإمبراطورية على حساب تقزيم الآخرين، ورابع يعتقد أن أمته هي سيّدة العالم أجمع، وخامس يختزل شعوب المنطقة كلها في قضيته، أو في قبيلته، أو في قوميته، أو في دينه، أو في مذهبه، وعلى الآخرين جميعاً- شاؤوا أم أبوا- أن يكونوا طوع أمره، ورهن إشارته، وإلا فهم خونة وأعداء، وشراذم وعملاء، وليس لهم إلا التهميش، وإذا اعترضوا فليس لهم إلا السيف.

وكنت أتساءل: تُرى ما الذي جرّ علينا هذا البلاء؟ واتضح لي بعد طول بحث وتأمل أن المسألة تكمن في طريقة قراءتنا للتاريخ؛ ترى من أية زاوية نقرأ — نحن المثقفين خاصة- تاريخ غربي آسيا؟ هل نقرأه من زاوية عنصرية إمبراطورية، أم من زاوية معرفية أخلاقية؟ هل نحلّل مكوّناته بموضوعية، أم نُسقط عليها نوايانا القومية والدينية والمذهبية؟ هل ننقل أحداثه بأمانة، أم نحرّفها حسب رغباتنا؟

وأعتقد أنه قبل أن نعاتب ساسة الشعوب، ينبغي أن نعاتب مثقفيها، وأرى أن الساسة الذين ينفّذون الأجندات الإمبراطورية هم ضحايا المثقفين الذين ربّوا الأجيال على الثقافات الإقصائية، كما أرى أن الخطوات الصائبة في مسيرة الأمم تبدأ من أفواه المثقفين وأقلامهم أولاً، وآمل أن ينتبه مثقفو غربي آسيا إلى الأدوار الخطيرة التي يقومون بها الآن، والتي يمكن أن يقوموا بها مستقبلاً، لتخليص شعوبنا من التناحرات والتناقضات والاصطفافات العدائية، ومن الشكوك والاتهامات التي تكاد لا تنتهي.

ولا أدري لماذا قفزت هذه الخواطر إلى ذهني وأنا بصدد الكتابة عن أستياگ الميدي؟ ترى ألأني سأستعرض تاريخ أحد قادة الإمبراطوريات القديمة في غربي آسيا، وكان يقود إمبراطورية كبرى في القرن السادس قبل الميلاد؟ أم أنه الخوف اللاشعوري

من الوقوع في أسر الذهنية الإمبراطورية التي يقع فيها عدد قليل من مثقفي غربي آسيا؟ أم هو النفور العفوي الدفين في أعماقي من كل نزعة إمبراطورية، باعتبار أنه لا إمبراطورية من غير عنف وقسر وتسلّط واغتصاب؟

ومهما يكن فإن نصيب الكرد من العهود الإمبراطورية في غربي آسيا، منذ الألف الأول قبل الميلاد وإلى هذا اليوم، أي طوال ثلاثة آلاف سنة، لا يكاد يصل- على الأرجح- إلى قرن ونصف من الزمان، وصحيح أن المملكة الميدية دامت حوالي (١٢٨) سنة كما ذكر هيرودوت[1]، لكن خلال ذلك احتل الغزاة السكيث ميديا والبلاد المجاورة مدة (٢٨) سنة، ومن المئة سنة الباقية حكم الميد حكماً إمبراطورياً حوالي ستين سنة فقط، بين سنتي (٦١٢ – ٥٥٠ ق.م)، وفي العهد الأيوبي حكم الكرد حكماً إمبراطورياً بين سنتي (١١٧٥ – ١٢٥٠ م)، أي حوالي خمسة وسبعين سنة فقط.

ولنعد إلى أستياگ، إنه كان آخر ملوك ميديا الإمبراطورية.

فمن هو الرجل؟ وكيف كان سقوط مملكة ميديا؟

أستياگ ملكاً

مر في الصفحات السابقة أن الميديين كانوا مرغمين على التبعية للإمبراطورية الآشورية صاحبة البأس في غربي آسيا، وأن الزعيم الميدي دياكو (ديوكو) كان أول من لملم شتات القبائل الميدية، وانتقل بها من الذهنية (القبلية) إلى ذهنية (الأمة)، وبنى العاصمة أگباتانا، وبنى قصراً ملكياً، ووضع التشريعات والمراسيم التي تنظّم أمور المجتمع، وأعلن بعدئذ الثورة على السلطات الآشورية، فخسر الجولة، ونُفي إلى مدينة (حَماه) في سوريا مع عدد كبير من حاشيته، ثم أعيد إلى آشور بعد حين، ليكون تحت الإقامة الجبرية، وليكون رهينة في قبضة السلطات الآشورية.

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٣.

ومر أيضاً أن خشتريت (فراورتيس) تولّى الحكم بعد والده دياكو، وامتاز بالحنكة، فوحّد القبائل الميدية ثانية، وأعاد كيان الدولة إلى سابق عهـــده مـــن حيـــث القـــوة والاستقلال، وأخضع لسلطانه بعــض القبـــائل الآريانيـــة، وأهمهـــا الـــسيِّمَّريون Cimmerians والـــسكيث Scythians، والمانتـــايين Mannaean، والأورارتـــو Ourartens، والفرس، ورفض دفع الجزية لدولة آشور، وشرع بعدئذ في مقارعتـــها، وكاد أن ينتصر عليها، لولا أن الغزاة السكيث استغلوا غيابه عن دولته، وهاجموا ميديا من الخلف واحتلوها، فاضطر إلى الانسحاب.

وبعد خشتريت حكم ابنه كَيْخُسْرو، وعلى يده تحررت ميديا من حكم السكيث، وبجهوده سقطت الإمبراطورية الآشورية، وانتقلت ميديا في عهده من كونها دولة عادية إلى إمبراطورية كبرى في غربي آسيا.

وبعد وفـــاة كيخسرو سنة (٥٨٥ ق.م) خلفه على العرش ابنه أستياگ، ويعرف باسم أستياگز (أستياجيس) Astuages، فحكم بين (٥٨٤ – ٥٥٠ ق.م)، وسمّـــاه المؤرخ الأرمني موسى خُورِيني باسم (أَزْدَهاك)، واسمه بالآريانية القديمة (أَرِشْـــتِفاگا) Arishti vaiga أو أي (رامي الرمـــح)، وهو اسم كردي معنًى ومبنًى، ويعني (الذي يرمي الرمح) é recht Avaije. وذكر مهْرداد إيزادي أن أستياگز هو **آزهي دهـــاك** (آزي دهاك) Azhi Dahak، الذي عرف في المصادر الإســـلامية باســـم الطاغيـــة (الضحّاك)، ولعله استقى هذه المعلومة من المصادر الفارسية، وهي بشكل عـــام غـــير موضوعية وغير أمينة فيما يتعلق بملوك ميديا[1]

والحقيقة أن تعدد أسماء ملوك غربي آسيا في المصادر التاريخية يعـــود، في الدرجـــة الأولى، إلى الخلط بين الأسماء والألقاب، فالاسم واحد، لكن الألقاب متعددة، وهـــذه عادة شغف بها الملوك وكبار الشخصيات في الشرق بشكل عام، وحسبنا أن نتذكر في هذا المجال ألقاب الخلفاء والوزراء وبعض كبار العلماء في العهود الإسلامية، فقلّة مـــن

1- دياكونوف: ميديا، ص ٣٣٣. Mehrdad Izady: The Kurds, P 34.

الناس تعرف أن الخليفة العباسي المعتصم بالله اسمه (إسحاق)، وأن اسم الناصر صلاح الدين هو (يوسف)، وأقرب مثال على ذلك تلك الألقاب العديدة التي عُرف بها آخر ملوك إيران في العصر الحديث محمد رضا بهلوي، إنه اتخذ لنفسه لقب (شاهنشاه= ملك الملوك)، ثم لقب (أُوريا مِهر)؛ أي شمس الآريين.

أخطاء قاتلة

وقد ورث أستياگ مملكة قوية واسعة الأرجاء، راسخة الأركان، وافرة الخيرات، تتقاسم مع حليفتها الدولة البابلية البلاد الممتدة من الخليج القارسي (العربي) شرقاً إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً، بما فيها فارس وكردستان وأذربيجان وأرمينيا وشمالي سوريا، وقياساً بزعماء الإمبراطوريات القديمة كان من المفترض أن يزيد هذا الملك دولته قوة على قوة، ويحافظ على ممتلكاتها، ويعتني بازدهارها، لكن جرت الأمور على عكس ذلك، وإليكم ما ارتكبه أستياگ من أخطاء، وما طرأ على المجتمع الميدي من ظاهرات سلبية، كانت سبباً في سقوط مملكة ميديا.

أولاً: يبدو من سيرة أستياگ أنه لم يكن ملكاً حازماً، ولم يكن قدوة لشعبه في العدل ونكران الذات، وعلى العكس من اسمه (رامي الرمح) كان عازفاً عن قيادة الجيوش، وخَوض الحروب، ميّالاً إلى الترف ورخاء العيش بين جدران القصور الملكية، مستغلاً الثراء الهائل الذي كانت تنعم به المملكة الميدية، حتى إن ديورانت سمّاه "**طاغية أگباتانا المخنّث**"[1]

ثانياً: كسر أستياگ قاعدة دستورية كانت في منتهى الأهمية بالنسبة إلى المجتمع الميدي؛ هي الخروج على مبدأ (الجماعية) في قيادة دفّة الحكم، والانحياز إلى الاستبداد، وفرض الحكم المركزي المباشر، فقد كان الجد الأعلى للأسرة الميدية الحاكمة دياكو خبيراً بسيكولوجيا الجبال المتأصلة في شخصية الشعب الميدي، فنأى بنفسه عن

1- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٢٠٤.

الاستبداد التسلّطي، وأقام دولة لامركزية تعددية، يتمتع فيها زعماء الفروع الميدية وزعماء الشعوب التابعة للميديين بالمشاركة في رسم السياسات العليا وتنفيذها، وبذلك كانت الدولة تحتفظ بتماسكها وحيويتها وقوتها.

ثالثاً: أخلّ أستياگ بقاعدة إستراتيجية أخرى كان والده وأجداده حريصين عليها؛ هي إقامة التحالفات الإقليمية لتحقيق التوازن بين القوى الإقليمية الرئيسية، وكانت المملكة الكلدانية أقوى حلفاء مملكة ميديا، بل لولا التحالف بين الملك الميدي كيخسرو، والملك الكلداني نابو پولاصَّر، ربما كان من الصعب على كَيْخُسرو إسقاط إمبراطورية آشور، ولما تحررت شعوب غربي آسيا من القهر الآشوري الشرس. وأكبر أخطاء أستياگ أنه دخل في صراع ضد المملكة الكلدانية، وشنّ الهجوم عليها، وحوّلها من حليف حميم إلى عدو ناقم يتربّص به الدوائر، ويترقّب أقرب فرصة للانتقام منه، هذا إضافة إلى أنه كان قد أثار حفيظة حكّام أرمينيا التابعين لمملكة ميديا.

رابعاً: تقول الحكمة القديمة: "**الناس على دين ملوكهم**"، وهذا ما فعله كبار رجال الدولة في ميديا، إنهم أداروا ظهورهم لحياة التقشّف والجِد، ونهجوا نهج ملكهم في الترف والبذخ والانصراف إلى حياة الرفاهية والدَّعة، والبحث عن لذائذ العيش، مستغلين وفرة الثراء الذي كان ينعم به المجتمع الميدي، ويصف ول ديورانت جانباً من ذلك الترف قائلاً:

"على أن انحطاط الميديين كان أسرع من نهضتهم، فقد أثبت أستياجيس، الذي خلف أباه سياخسار، ما أثبته التاريخ من قبل، وهو أن الملكية مغامرة لا تؤمَن مغبّتها، وأن الذكاء المفرط والجنون يتقاربان كلّ القرب في وراثة المُلك. لقد ورث المُلكَ وهو مطمئن القلب هادئ البال، وأخذ يستمتع بما ورث، وحَذَت الأمة حَذْو مليكها، وفَنيت أخلاقها الجافة الشديدة، وأساليب حياتها الخشنة الصارمة؛ ذلك أن الثروة قد أسرعت إليها إسراعاً لم يستطع أهلها معه أن يُحسنوا استخدامها، وأصبحت الطبقات العليا أسيرة الأنماط الحديثة والحياة المترَفة، فلبس الرجال السراويل المطرَّزة الموشّاة، وتجمّلت النساء بالأصباغ والحُليّ، بل إن الخيل نفسها كثيراً ما كانت تُزيَّن بالذهب، وبعد أن كان هؤلاء الرعاة البسطاء يجدون السرور كلّ السرور في أن تحملهم مركبات

بدائية ذات دواليب خشنة غليظة قُطعت من سوق الأشجار، أصبحوا الآن يركبون عرَباتٍ فاخرة عظيمة الكُلفة، ينتقلون بها من وليمة إلى وليمة"[1]

خامساً: كان الانصراف إلى الترف والبذخ، من أهم أسباب ظهور التناقضات الداخلية في قمة هرم السلطة الميدية، ففي أجواء البذخ والترف تنمو النزعات الأنانية، وتزدهر الوصولية، ويظهر التكالب على الثروة، والاستئثار بالمناصب، وإسناد المناصب العليا إلى رجال غير أكْفاء.

سادساً: وفي مُناخات سلطوية تسلّطية مثل هذه تتفاقم المحسوبية، ويتراجع العدل، وتتعمق الفوارق بين طبقات المجتمع، وتكثر المظالم، وبدل أن يكون الشعب صفاً واحداً في مواجهة الأحداث الداخلية والخارجية، ينقسم إلى فريقين: فريق متسلّط يحتكر السلطة والثروة، ويستعمل القهر للحفاظ على مكاسبه، وفريق يعمل للخلاص من القهر بكل وسيلة.

سابعاً: من يجرؤ على ظلم الأقارب يكون أكثر جرأة على ظلم الأباعد، وأحسب أن أستياگ تحوّل يوماً إلى (طاغية)، همّه الأكبر أن تتمركز السلطة بين يديه، وتَعنو له الوجوه، وتخضع له الرقاب، وكان من الطبيعي أن يفيض ظلمه، فيَصل إلى الشعوب التي كانت تخضع لمملكة ميديا، وكان الفرس أقوى تلك الشعوب حينذاك.

تفسير أسطوري

لقد أورد هيرودوت أحداث سقوط المملكة الميدية بطريقة يهيمن عليها التفسير الأسطوري للتاريخ، وإليكم خلاصة ما رواه:

تولّى أستياگ عرش ميديا بعد والده كيخسرو، ورأى ذات ليلة حلماً غريباً متعلقاً بابنته ماندانا[2]، وفسّر له الكهنة المُوغ (المجوس) ذلك الحلم بأن ابنته ستتزوّج،

1- المرجع السابق، ٢/٤٠١ – ٤٠٢. سياخسار هو كيخسرو.

2- ماند دانا: يعني (هبة ماند)، باعتبار أن (ماند/مَنْد) اسم مقدس، ولعله اسم إلهي، وهذا الاسم عريق في التراث الكردي، وهو باق إلى الآن في التراث الأيزدي.

وستلد طفلاً يزيحه عن الملك ويحلّ محلّه، وبما أن أستياگ كان يتوجّس شراً من كبار الزعماء الميديين المنافسين له، والمماثلين له في العراقة والوجاهة، قرر ألا يزوّج ابنته من نبيل ميدي، وزوّجها من الحاكم الفارسي قَمْبيز (كمبيز/كمبوجيا)، ويبدو أن هذا الحاكم كان يتمتع بمزايا رفيعة، حتى إن أستياگ رآه أهلاً لأن يكون زوجاً لابنته، ولعل أستياگ فعل ذلك لكسب ولاء الحاكم الفارسي، ولتحقيق التوازن ضد كبار القادة الميديين الناقمين عليه، والذين كانوا ينافسونه في هرم السلطة.

وولدت ماندانا ابنها كورش الثاني Kursh[1] من زوجها الفارسي، ورأى أستياگ حلماً آخر، فسّره له الكهنة على النحو السابق، وأكّدوا له أن حفيده الفارسي سيقضي على سلطته ويحل محله، ونتيجة لذلك التفسير قرر أستياگ الخلاص من الطفل كورش، فاستدعى ابنته من مدينة (أَنْشان) عاصمة إقليم فارس، ومعها طفلها، ثم استدعى زعيماً ميدياً مقرّباً منه اسمه **هارپاگ** Harpage (هارپاجوس)[2]، وأفضى إليه بالسر، وطلب منه العمل لقتل الطفل، وإذا تراخى في الأمر ولم ينفّذه سيلقى عقوبة قاسية، وبما أن الطفل ينتسب إلى الدم الملكي عبر أمه ماندانا لم يجرؤ هارپاگ على قتله بيده، فطلب من راعيه مثرادات (هبة الإله مثْرا) أن يأخذ الطفل، ويضعه في مكان جبلي موحش، لتفترسه السباع، ثم يأتيه بما بقي من أشلائه.

لكن وسامة الطفل سحرت زوجة الراعي، وكان لها طفل عليل، ما لبث أن مات، فألحّت على زوجها بأن يأخذ طفلهما الميت، ويضعه في الجبل، لتنهشه السباع، ثم يأخذ بقاياه لهارپاگ على أنها أشلاء كورش، وأما كورش فسيحمل اسم طفلهما الميت، وأخذ ميثرادات باقتراح زوجته، وأوهم هارپاگ بأن الطفل كورش مات، ونقل هارپاگ بدوره الخبر إلى أستياگ، فطابت نفسه، وزال الهمّ الذي كان يؤرّقه.

1- يسمى كورش: قورش، وسيروس Cyrius، وكَيخسرو الكبير.

2- لعل اسمه الميدي الأصلي آر پاك Ar pak، ويعني (النار الطاهرة)، أو (الناري المبارك)، أما اللازمة (س) فهي من إضافات مؤرخي اليونان.

وما لبث كورش أن بلغ مرحلة الصبا، وصار يتصرّف في القرية تـصرّفات أبنـاء الملوك، ويقوم في الألعاب بدور الملك بين أقرانه الصبية، ويعاقب أبنـاء الوجهـاء إذا خرجوا عن طاعته، فضاق وجهاء القرية ذَرْعاً بابن الراعي، وشكوا أمره إلى أستياگ، فطلب أستياگ من الراعي ميثرادات الحضور إلى القصر مـصحوباً بابنـه، وحـضر الراعي، ولمح الملك في الصبي الشبه بكورش، فضغط على الراعي، وهدده بالتعـذيب، فباح الراعي بالحقيقة، فاحتجز الملك الطفل في القصر، واستشار كبار الكهنة في أمره، فرأوا أن الخطر مر بسلام، فالصبي قد قام بدور الملك في القرية خلال الألعاب، وهـذا ما كان الحلم يشير إليه، ولا داعي إلى قتله.

واقتنع أستياگ بتفسير الكهنة، فأبقى على كورش، لكنه قرر الانتقام من هارپاگ الذي لم ينفّذ أمره بدقة، فطلب منه إحضار ابن له صبي إلى القصر، ليكـون صـاحباً لكورش، ولما أحضر هارپاگ ابنه أمر الملك بقتل الصبي سراً، ثم أقام وليمة ودعا إليها هارپاگ، فتناول هارپاگ ما لذّ من اللحم مسلوقاً ومشويّاً، وبعد أن شبع أعلمه الملك أنه كان يأكل لحم ولده، عقاباً له على عدم تنفيذ ما أوكله إليه بشأن قتـل الطفـل كورش، فأظهر هارپاگ رضاه بما فعله الملك، وظل مقرَّباً منه، ويطّلع على أسـراره، لكنه قرر منذ ذلك اليوم أن يطيح بأستياگ، ويقضي عليها انتقاماً منه.

الغفلة والمؤامرة

وفي الوقت الذي كان الملك الميدي منشغلاً فيه بالترف من جانب، وبالاسـتبداد والسياسات الطائشة من جانب آخر، كانت بلاد فارس تشهد نهوضاً كـبيراً بقيـادة حاكمها قمبيز، وقد تولّى كورش الحكم بعد والده، ويبدو أنه كـان يخطـط سـراً للاستقلال بفارس عن ميديا، والأرجح أن هارپاگ لاحظ هذه الميول عنـده، فقـرر التحالف معه للانتقام من أستياگ، وإليكم ما قاله هيرودوت في هذا الصدد:

"وحين بلغ قورش مبلغ الشباب، وشاع اسمه بين أبطال فارس، وبات محبوبـاً من الناس، اتصل به هارپاجوس المتلهّف للانتقام، وأخذ يتقرب منـه بالرسـائل

والهدايا، ذلك أنه لم يكن يرى نفسه في وضع يسمح له بإنزال العقاب بالملــك، دون مساعدة طرف آخر، فلما رأى قورش يشبّ عن الطّوْق، ســعى لكـسب مناصرته، قائلاً: إنه نال من المصائب مثلما نال هو، وكان قد مهّد الطريق لخطّته بأن زيّن لكبار الميديين تأييده بالإطاحة بأستياگ عن عرشـه، لعـسفه وبأسـه، وتنصيب قورش مكانه، وقد أعدّ لذلك خطّته بأن سعى إلى إحاطة قورش علماً بما اعتزم عمله، ولكن كان دون ذلك مصاعب جمّة، لبعد المـسافة عـن فـارس، والحراسة التي أقامها أستياگ على الطريق، فتفتّق عقله عن حيلة لإبلاغ قـورش بخطته، بأن أتى بأرنب بري فشق بطنه، وأبقى على وبره، ودسّ فيه ورقة، عرض فيها ما أراد أن يبلغه مقالته، ثم عمد إلى خياطة بطن الأرنب، وحمّله لخادم موثوق مع شبكة ليبدو في هيئة صياد، ووجّهه إلى فارس، على أن يقدّم ذلـك الأرنـب لقورش، وعليه أن يقطع الخيط عن بطنه بيديه ولا أحد سواه، وفي حضور الخادم ولا أحد غيرهما في المكان.

وهذا ما كان، فلما تسلّم قورش الأرنب، وأخرج الرسالة، قرأ فيها التالي: يـا ابن قمبيز، قد حَبَتْك الآلهة برعايتها، ولولاها لما بلغت ما أنت فيه من النعمة، وبات عليك أن تسدّد لأستياگ دَينه، وإلا كان قاتلَك، ولو تحقق له ما أراد لكنتَ ميّتاً، وإذن فأنت مَدين بنجاحك للآلهة ولي، ولا ريب في أنك قد عرفت ما دبّره لـك أستياجيس، وكيف كان جزائي بعدما دفعتُ بك إلى الراعي بدلاً من قتلك، فافعل ما أنا مشيرٌ عليك به، وستكون لك مملكة أستياجيس كلها؛ هيّئ الفرس للثـورة، وامضِ لملاقاة الميديين، ولا يضيرنّك إن كنت أنا أو أحد المقدَّمين منهم علـى رأس الجيش الذي سيرسله الملك لملاقاتك، فالفوز لك في كل الأحـوال؛ لأن أشـراف الميديين سيكونون أوّل من يهجرونه للانضمام إليك في جهدك للإطاحة به، ونحـن جميعاً جاهزون للعمل، فافعل ما أنصحك به، وبادر العمل سريعاً"[1]

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٠ – ٩١.

وأضاف هيرودوت قائلاً:

"ولقد أثارت تلك الرسالة في عقل قورش شتّى ضروب الأفكار، فجعل يقلّب الأمور على وجوهها، باحثاً عن أنجع الوسائل لحمل الفرس على الانتفاضة على حكم الميديين، فأوحى له الفكر بالخطّة التي سأعرضها هنا لإنفاذ أمره، فكان أن كتب على لفافة من الورق صيغةَ أمرٍ من أستياگ بتعيينه قائداً على جيش الفرس، ثم دعا إليه جمعاً من رؤساء الفرس، وفضّ على مرأى منهم تلك اللفافة، وقرأ عليهم ما دوّن فيها، وأضاف: والآن هاكم هذا الأمر؛ إنّ على كل شخص الحضور غداً حاملاً معه منجلاً "[1]

وقال هيرودوت موضّحاً:

"وأمة الفرس جمعٌ من القبائل، فإن الذي اجتمع منها عند قورش، ورضي بالثورة قبائل الباسارجاداي والمارفيان والماسبيان، ويعتبر الباسارجاداي هم النبلاء، بل إن الأخمينيين الذين منهم كل ملوك الفرس، فرع من الباسارجاداي، وأما بقية القبائل الفارسية فهي البافثيالايان، والديروسيايان، والجيرمانيان، وجميعهم مقيم في أرضه، بينما القبائل الأخرى، وهي الدان، والمارديا، والدروبيكان، والساجراتيان[2]، من البدو الرحّل.

1- المرجع السابق، ص ٩١.

2- إن **دياكونوف** يعدّ الساگارتيان Sagartian ضمن القبائل التي كانت تقيم على أرض ميديا، وذكر أيضاً أن المصادر القديمة تعدّ سكان زيگيرتو والساگارت من جنس واحد، وأن اسم زيگيرتو كان يطلق في العصر القديم على القسم الشمالي الشرقي لمجرى نهر قزل أوزون (النهر الأبيض) في شمالي ميديا. (دياكونوف: ميديا، ص٩٣، ٢١٤). أما **أرشاك سافراستيان** فنقل عن المؤرخين الإغريق احتمال أن تكون قبيلة (شكاك) الكردية سليلة الساگارتيان، ونقل عن المؤرخين إياهم أن أفراد قبيلة ساگارتيان كانوا يتحدثون بالفارسية، لكن زيّهم كان بين الفارسي والبختي **Pactyican**. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٤٠.

امتثلت القبائل للأمر، فاجتمع الرجال بمناجلهم في المكان المعيّن، وسمعوا من قورش أمره التالي: وهو أن يقوموا بتنقية قطعة من الأرض مساحتها ثلاثة آلاف وستمائة أو أربعة آلاف ياردة مما فيها من الأشواك، ولما نُفّذ هذا الأمر أصدر قورش للتوّ أمره بأن يحضر الرجال في الغد كذلك، وشدّد عليهم بأن يأتوا بعد استحمام، وكان قورش قد عَمَد في غضون ذلك إلى ذبح كل ما عند أبيه من الماعز والأغنام والثيران؛ ليُولم لجيش الفرس مأدُبة عُمرت فوق هذا كله بأطايب الخمور وأشهى الخبز.

وفي اليوم التالي اجتمع الضيوف عنده، فأشار إليهم بالجلوس على العشب، والاستمتاع بما توفّر أمامهم من الملذات، ولما تناولوا ما شاؤوا من الطعام والشراب، التفت قورش فسأل الجمع: أيّ الأمرين أدعى لارتياحهم، عملُ البارحة ومشقته، أم متعة اليوم؟ فكان جوابهم أنْ أين بؤس البارحة من هذا الذي ينعمون فيه اليوم؟! وكان قورش ينتظر سماع مثل هذا القول، فاغتنم الفرصة، وشرع يعرض عليهم أمره، فألقى عليهم خطبته، وقال فيها: يا أبناء فارس، أعيروني

وكتب **باسيلي نيكيتين** بخصوص الساگارت: " وقد أخبرني زميلي هيرزفيلد في أوكسفورد عام (١٨٢٨) أنه يمكن اعتبار هؤلاء بمثابة أسلاف للشعب الكردي، وكان يعتقد أن اسم مدينة (سعَرْد) على نهر دجلة مشتق من اسمهم. إن (أسكارتيا) أو (الساكارتيين) عاشوا في البداية في (سيستان) [-سجِسْتان بشمال شرقي إيران كما في ورد في المصادر العربية]، ونجدهم في العهد الآشوري في بلاد ميديا تحت اسم (زيكير) أو (زاكروتي) (ستريك، المجلد الرابع عشر ص ١٤٦)، وفي عهد داريوس كانت عاصمتهم تقع في سهل أربيلا، حيث شنق داريوس ملكهم تشيترانتاكهام، علماً أن الصورة المنحوتة على صخر بيستون تمثل نموذجاً كردياً (كنك، في نقوش بيستون، باللغة الإنكليزية)" باسيلي نيكيتين: الكرد (دراسة سوسيولوجية وتاريخية)، هامش ١٣، ص ٥٤- ٥٥.

وثمة تماثل صوتي ودلالي واضح بين (ساگارت) و(زاغارت) والكلمة الكردية المعاصرة (زُغُرت/زُگُرْت)، وهي شائعة في العامية السورية، وتعني من جملة ما تعني: الباسل، المقدام، صاحب النخوة، الذي لا يمتلك أرضاً، ويرتزق بعمل يده.

سمعكم، واصغوا لنصيحتي، وستنالون حريتكم، فأنا الرجل الذي اختارته الأقـــدار لتحريركم، ويقيني أنكم أنداد للميديين في الحرب كما في كل أمر آخر، الحقُّ مـــا أقول، فهيّا ولا تترددوا، وانزعوا عن رقابكم نير أستياجيس حالاً "[1]

وأضاف هيرودوت يقول:

"وقد كان لحديث قورش أبلغ الوقع عند مستمعيه، فلطالما كره الفرس استعباد الميديين لهم، وها هم الآن يجدون قائداً يسير بهم إلى طريق الحرية، فما كان منهم إلا أن هلّلوا لهذا الأمل الذي لاح لهم"[2]

وقد أعلن كورش الثورة في فارس (پـارس) حــوالي ســـنة (٥٥٣ ق.م)، واستثمر الظروف الإقليمية حينذاك، فأقام تحالفاً وثيقاً مـــع الملـــك الكلـــداني نابونيد ضد الميديين، وكان أستياگ قد هاجم بابل قبل ذلك، وجعـــل الحليـــف الكلداني يتحوّل إلى عدو كما مر، والدليل على التحالف الفارسي الكلداني أنه في الوقت الذي توجه فيه أستياگ ومن معه من الميديين إلى (يساركاد) للاشتباك مع الفرس في معركة حامية سنة (٥٥٣ ق.م) توجّه نابونيد ملك بابـــل بقواتـــه إلى حرّان التي كان أستياگ قد ألحقها بإمبراطورية ميديا، وسيطر عليها[3] وفي الوقت نفسه كان كورش الثاني صديقاً لديگران الأول ابن يَرْوانْت حاكم أرمينيا الـــتي كانت تحت النفوذ الميدي، وعندما قرر كورش الثورة على الميديين أقـــام تحالفـــاً وثيقاً مع يَرْوانْت أيضاً.

وهكذا أحكم كورش الخناق ضد أستياگ على الصعيد الإقليمـــي، ولم يكتـــف بذلك، بل عقد تحالفاً سرياً مع أبرز كبـــار قادة الميد في أگباتانا، وخاصة مع هارپاگ القائد العام للجيش الميدي، قال دياكونوف:

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٢.

2- المرجع السابق، ص ٩٣.

3- دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٤.

"هارپاگ الذي كان قائداً عاماً للجيش الميدي، فإنه مع النبلاء، وقادة قوات الجيش، انضموا إلى كورش، ودخلوا في صفوف جيشه"[1]

وثار هارپاگ الزعماء الميد سراً ضد أستياگ، وشوّه صورته، ويُفهم مما رواه هيرودوت أن هارپاگ ضمّ إلى حلقة التآمر مجموعة من الكهّان الموغ أيضاً، واتصل سراً بكورش يطمئنه بأنه قد جعل المناخ في أگباتانا مناسباً للخلاص من أستياگ.

سقوط مملكة ميديا

علم أستياگ بثورة كورش، فأرسل إليه رسالة تهديد ووعيد، واستعدّ في الوقت نفسه للقضاء على الثورة، وقال هيرودوت في ذلك:

"وسرعان ما تواردت الأنباء، وبلغت أستياجيس، فبعث يستدعي قورش لَيَمْثل أمامه، وكان أنْ حمّل موفدَه بعبارات تحمل الوعيد بأنه قادم بأسرع ما يطيب لأستياجيس، فما كان منه إلا أن عبّأ الميديين، وحشد له الحشود، ولكن الفطنة خانته يومذاك، فجعل هارپاجوس على رأس قواته، ويبدو أنه نسي ما ارتكبه في حقه قبل حين، وكان من أثر ذلك العمل أن قلّة من جنوده لم تشترك في المؤامرة، هي التي صمدت في ساحة المعركة، حين اشتبك الجيشان ودار القتال، وأما البقية فكانوا بين فارّ إلى معسكر الفرس، ومتكلّف يصطنع القتال اصطناعاً؛ ليهرب بعدئذ من المعركة"[2]

ورغم الهزيمة التي حاقت بالجيش الميدي لم يفقد أستياگ رباطة جأشه، وقرر الصمود، وعدم تمكين قورش من نصر سهل، قال هيرودوت:

"ولما علم أستياجيس بنبأ انهيار جيش الميديين على هذا النحو المخجل لم يَثنه ذلك عن عزمه، فأقسم ألاّ يتيح لقورش فرصة النصر السهل، وقام بتسليح من بقي

1- المرجع السابق، ص ٣٩٢.

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٣.

في المدينة من الميديين، كبيرهم وصغيرهم، بعدما عَمَد إلى إعـدام الكهنـة الـذين أشاروا عليه بإطلاق قورش بالخازوق، ولقد انتهى بسقوط جنوده في ساحة القتال، بينما حوصر هو واستسلم"[1]

ويبدو من مواقف أستياگ، في صراعه ضد كورش، أنه استيقظ على الحقيقة المرّة، لكن بعد فوات الأوان، وأنه كافح بعناد دفاعاً عن عرشه ومملكته وشعبه، كما أنه كان معتدّاً بنفسه، ولم يكن يخلو من الفطنة في قراءة المستقبل، قال هيرودوت:

"ولما تم أسر أستياجيس جاءه هارپاجوس مقرِّعاً مندّداً، يُنزِل به أشدّ الإهانات، وهو يذكّره بالعشاء الذي قدّمه له، وكان من لحم ابنه، وسأله عن حاله بعدما غدا عبداً، وقد كان ملكاً قبل بُرهة، فحَدَجه أستياجيس بنظره، وردّ عليه سؤاله بسؤال إن كان هارپاجوس شريكاً لقورش فيما فعل؟ فأجابه بأنّ له قطعاً ضلعاً فيما وقـع، فهو الذي كتب لقورش يحضّه على الثورة. فقال له أستياجيس: إذَنْ فأنت لسـت الأشدَّ لؤماً بين البشر وحسب، بل أكثرَ الرجال غباء؛ فإذا كان هذا من تـدبيرك حقاً، كان الأجدر أن تكون أنت الملك، ولكنك أعطيت السلطانَ غيرَك، واللـؤمُ فيك جليّ، لأنك بسبب ذلك العشاء حملت الميديين إلى العبودية، وإذا كان لا بـد لك من أن تسلّم العرش لآخر غيرك، فكان الأجدر بك أن تقـدّم هـذه الجـائزة لميدي، بدلاً من فارسي، لكن الحال القائمة الآن هي أن الميديين الأبرياء مـن كـل جُنحة غدوا عبيداً بعدما كانوا أسياداً، وأصبح الفرس سادة عليهم، بعد ما كـانوا عبيداً عندهم"[2]

والخلاصة أن ثمة عوامل عديدة اجتمعت وأوصلت المملكة الميدية إلى تلك النهايـة الكارثية سنة (٥٥٠ ق.م)، منها غفلة أسـتياگ، واسـتبداده في معالجـة الأمـور، وسياساته الإقليمية غير الرصينة، وحدوث الانقسامات في قمة السلطة الميدية، ورغبـة

1- المرجع السابق نفسه.

2- المرجع السابق نفسه.

الشعوب الأخرى في التحرر من السيطرة الميدية، وتوافر قائد فارسي ذي دهاء وشجاعة، ويرى كتسياس أن "**الأسباب الرئيسية لانتصار كورش هو خيانة الرجال الكبار (النبلاء) من الجيش الميدي، والذي كان هارباگ قائدهم جميعاً**"[1]

وذكر دياكونوف أن كورش لم يأمر بقتل أستياگ، واكتفى بإبعاده إلى هيركانيا (جنوبي بحر قزوين، وشمالي إيران حالياً)[2]، وقوبل باحترام كبير من قبل حاكم الهيركانيين، ثم دُعي إلى رؤية ابنته، فأخذه قائد يدعى (بتسياك) إلى الصحراء، وتركه فمات جوعاً وعطشاً[3]؛ والأرجح أن بتسياك لم يكن صاحب قرار القضاء على أستياگ، وإنما نفّذ ما طلبه منه كورش، وكان من الطبيعي أن يتوجّس كورش من إمكانية قيام أستياگ أو أنصاره بمحاولةٍ ما لاستعادة عرشه ومملكته، وكان يعلم أن خير وسيلة لقطع الطريق على تلك المحاولة هي الخلاص من أستياگ نفسه.

وعلى أية حال لم يكتف الفرس باغتصاب المملكة من أستياگ، وإنما عمدوا، في العهد الأخميني وفي العهود التالية، إلى تشويه سيرته، فسمّوه بَيوَراسْب وسمّوه أژْدَهاك (التنّين)، واختلقوا رواية غريبة، مفادها أن حيّتين نمتا على كتفيه، وكانتا لا تهدأان إلا بإطعامهما دماغي شابين كل يوم، فتذمّر الناس ساخطين، واهتدى وزيره (أرمايل) أو طبّاخه (أزماميل) إلى طريقة ينقذ بها أحد الشابين، فكان يكتفي بقتل أحدهما، ومزج دماغه بدماغ خروف، ويطلق سراح الآخر، ويأمره بالذهاب بعيداً، فلجأ أولئك الشباب إلى شعاف الجبال وأعماق الصحارى، وكان الكرد من نسلهم، ثم ثارت الجماهير ضد أژدهاك بقيادة كاوا الحدّاد، وقضت عليه[4]

1- دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٣.

2- ذكر دياكونوف أن هيركانيا هي مناطق أوستراباد كراسوُدسكي الحالية. دياكونوف: ميديا، هوامش المقدمة (١١٥).

3- المرجع السابق، ص ٣٩٦، ٣٩٧.

4- للمزيد من المعلومات انظر: المسعودي: مروج الذهب، ٢/ ١٢٢- ١٢٣. المقدسي: البدء والتاريخ، ١٤٣/٣. الزبيدي: تاج العروس، مادة (كرد)

ولم يقف تحريف الحقائق عند هذا الحد، وإنما صار أستياگ (أزدهاك/أژ دهـــاك) يسمّى (الضحّاك) في المصادر العربية الإسلامية، وينبغي أن نأخـــذ في الحـــسبان دور المؤرخين الفرس والمترجمين السريان في اعتماد التجسيرات الصوتية؛ لاختلاق القصص الخيالية حول أصل الكرد، وتقديمها إلى القراء على أنها حقائق تاريخية.

وظهر الشاعر الفارسي **أبو القاسم الفِرْدَوسي** في القرن (٤ هـــ/١٠م)، فزاد الأمر تحريفاً في (الشاهنامه)؛ إذ ذكر أن الضحّاك هو ابن ملك العرب، استعان به الفـــرس لإنقاذهم من طغيان ملكهم جَمْشيد، فقتل الضحّاكُ جمشيد، وصار ملكاً بدلاً منـــه[1] وقال في مكان آخر من (الشاهنامه): "**أما الضحّاك فهذا لقبه، وهو بَيوَراسْـــب بـــن مرداس ملك العرب الذي عُرف بصلاح حكمه، وحبه لـــشعبه**"، ثم روى قـــصة صداقة إبليس مع الضحّاك، ونموّ الحيتين على كتفيه، إلى آخر الرواية المعروفـــة[2]، ولم يكن الغرض من هذا الخلط سوى الإساءة إلى سمعة الملك الميدي.

1- الفردوسي: الشاهنامه، ص ١٠.

2- المرجع السابق، ص ١٠ – ١٢.

٨

القائد العسكري مازاريس الميدي

(توفي حوالي سنة ٥٤٦ ق.م)

الزعيـــم

النُّخَب هي صانعة تواريخ الشعوب، وهي التي توجّه مـــسيرة الأمـــم صـــعوداً أو هبوطاً، وهي التي تقودها إلى قمم والحرية والكرامة، أو تنحدر بها إلى هـــوّة التبعيـــة والعبودية، بلى، هات قائداً عظيماً، أعطك شعباً عظيماً، والعكس أيضاً صحيح.

هذه هي الحقيقة إذا رغبنا في قراءة التاريخ قراءة واقعية، قراءة بعيدة عن التخلـــيط والطوباوية والغوغائية، أما ما يقال عن القيادة الجماهيرية، فما هو إلا تحريفٌ للحقائق، وتصويرٌ للتاريخ واقفاً على رأسه بدلاً من أن يكون واقفاً على قدميه؛ كمـــا كتـــب **كارل ماركس** ذات مرة فيما أذكر.

وقد يُظن أن ما أقوله شكلٌ من رجعية التفكير، وتأليه للقائد (الزعيم)، وتهمـــيش لقدرات الجماهير، والحقيقة أن الأمر ليس كذلك، فالقائد هـــو أولاً وأخـــيراً ابـــن الجماهير، منها ينشأ، وفيها يتربّى، وبها يصبح قائداً (زعيماً)، لكنه يتميّز عـــن ســـائر أفراد الشعب بأنه يمتلك خصائص قيادية رفيعة:

- **أولها** أنه قادر على استلهام روح الأمة بعمق، وعلى تمثّلها بصدق.
- **وثانيها** أنه يمتلك بصيرة قادرة على تحديد الخيار الصحيح كل مرة.
- **وثالثها** أنه يمتاز بأعلى مستويات قوة الإرادة، وصلابة العزيمة، وبُعـــد الهمّـــة، والحزم في المواقف، وبأرفع درجات الجسارة والإقدام، إضافة إلى اتصافه بروح الإيثار والتضحية، فيكون قدوة لشعبه في كل ذلك.

○ **ورابعها** أنه يعيش حياة بسيطة ومتقشّفة، لا تُبهره الألقـــاب، ولا يـــسعى وراء لذائذ العيش، ولا يرضى حياة الأبّهة والترف، ويكون جادّاً في ممارسة المهامّ، عنيداً في مواجهة الصعوبات.

○ **وخامسها** أنه يثق بالجماهير، فلا يتعامل معها باستخفاف وازدراء، ولا يقمعها ولا يستعبدها، وإنما ينمّي فيها الشعور بالعزة والكبرياء، ويعتبر كرامة الجماهير جزءاً من كرامته، ولا يتميّز عنها لا في المظهر، ولا في المأكل والمــشرب، ولا في ســـائر طرائق العيش.

○ **وسادسها** أنه يأخذ بأيدي الجماهير، فيخرج بها من متاهات الشعور بالضياع، وينقذها من كوابيس الإحباط، ويحيي فيها الأمل المشرق، ويرسم لها الهدف الأسمـــى، ويدلّها على الطريق القويم إلى الخلاص.

○ **وسابعها** أنه يرتقي بالجماهير روحياً وفكرياً وســـلوكياً، ويحررهـــا مـــن روح التنافس الرخيص على المكاسب، كما يحرّرها من الذهنية العبودية المستكينة، ويوحّـــد طاقاتها، ويوظّف قدراتها بشكل مدروسٍ وهادف في تحقيق الهدف المرسوم.

تلك هي أبرز خصائص القائد (الزعيم).

وبهذه الخصائص صنع القادة العظماء تواريخ أممهم ومستقبلها.

أهُورامَزْدا وأَهْرِمان

وقد تتمثّل النخبوية في شخص واحد، كما هو سرجون الأكّـــادي، وأُورْنـــامو السومري، وحَمُورابي البابلي، ورَعْمَسيس الثـــاني المـــصري، وبانيبـــال الآشـــوري، وكَيْخُسرو الميدي، وكُورش الأخميني، والإسكندر المكـــدوني، وهانيبـــال الفينيقـــي، وغيرهم كثيرون. وقد تتمثّل النخبوية في فئة من أبناء الأمة، تجمعهم رؤيـــة واحـــدة، وتقودهم مبادئ مشتركة، ويعملون لهدف واحد، فيفرزون من بينهم القائد (الـــزعيم) الذي يجسّد رؤيتهم، ويتوسّمون فيه القدرة على تحقيق آمالهم.

وسواء أكانت النخبة شخصاً أم فئة، فإنها هي التي تستقطب جماهير الأمة، وترسم لهم مسارات المستقبل، وتقودهم إليه، وبعبارة أخرى: إن النخبة تصنع قَـــدَر الأمـــة؛

تقدّماً أو انحطاطاً، وأتحدث عن (القدر) الآن من المنظور التاريخي الواقعي، وليس من المنظور الديني.

و لم يفتقر أجداد الكرد، طوال تاريخهم، إلى النُّخَب المخلصة والنقية والعبقرية والشجاعة، بل لولا تلك النُّخَب لما احتازوا بسلام موجات المحن الكبرى التي ابتُلوا بها؛ محن الغزوات، ومحن الصهر والتذويب، بل محن الإبادات الجماعية أيضاً، لكن المؤسف أنهم لم ينجوا، طوال تاريخهم أيضاً، من المصائب الكبرى التي جرّتها عليهم النُّخب الأنانية، والنُّخب المغفّلة، والنُّخب الحمقاء، والنُّخب الجبانة.

إن هاتين الظاهرتين في تاريخ الكرد خطان متوازيان أبديان، لكنهما متعاكسان لا بل متصارعان: الأول يرتقي نحو الأعالي حيث النبل والمجد، والآخر ينحدر نحو الهاوية حيث القماءة والنذالة، تُرى هل استشعر النبي الميدي **زردشت** شيئاً من هذا؛ حينما بنى عقيدته على ثنائية الصراع الأبدي بين أهورامَزْدا (إله النور) وأهرِمان (إله الظلام)؟ من يدري؟! ربما!

وما زلنا بصدد الحديث عن النخب الميدية التي أصبحت أسيرة أنانيتها، وانساقت خلف أحقادها، فخانت شعبها، وجعلت مصير الأجيال في أيدي من لا يرحمونها، وعلمنا أن **هارپاگ** (هارپاجوس) كان أول من دشّن هذا الخط الأهرماني في العهد الميدي، فتآمر على **أستياگ** آخر ملوك ميديا، ونسّق خطة الثورة عليه مع الزعيم الفارسي كورش، والحقيقة أن هارپاگ لم يكن الوحيد في هذا المجال، وإنما كان قد ضمّ إلى حلقة التآمر معه عدداً آخر من كبار قادة الميد، حسبما أكد في رسالته السرية إلى كورش، فقد جاء في تلك الرسالة قوله مخاطباً كورش:

"هيّئ الفرس للثورة، وامض لملاقاة الميديين، ولا يَضيرنّك إن كنت أنا أو أحد المقدَّمين منهم على رأس الجيش الذي سيرسله الملك لملاقاتك، فالفوز لك في كل الأحوال؛ لأن أشراف الميديين سيكونون أول من يهجرونه للانضمام إليك"[1]

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٠ – ٩١.

وقد يكون مازاريس من القادة الذين تآمروا على أستياگ أو تخلّوا عنه، فمن هو الرجل؟ وماذا عن جهوده في خدمة سيدته المملكة الأخمينية؟

قيثارات وأقلام

الحقيقة أننا لا نعرف شيئاً عن مازاريس في مرحلة التآمر التي قادها هارپاگ ضد أستياگ، فقد مرّ أن تاريخ ميديا تعرّض للتغييب على نحو غريب، ولا ريب في أن الأخمينيين والأشگان والساسانيين هم وراء ذلك التغييب؛ لأنهم كانوا أكثر المستفيدين منه، والأرجح أن مازاريس كان أكبر من هارپاگ سنّاً، ولعله كان أرفع منه مقاماً في الجيش الأخميني، والدليل على ذلك أنه توفي قبل هارپاگ بسنين طويلة، وأن هارپاگ تولّى قيادة الجيش الفارسي في آسيا الصغرى بعد وفاته.

بلى، لا شيء عن مازاريس قبل الهجوم الذي شنّه كورش على مملكة ليديا في أقصى غربي آسيا الصغرى، وقبل أن يقتحم (سارْديس) عاصمة ليديا سنة (٥٤٧ ق.م)، ويأسر الملك الليدي كْرُويْسوس (قارون)، ومصدرنا الرئيسي بل الوحيد في هذا المجال هو تاريخ هيرودوت، فبالنسبة إلى هارپاگ أطال هيرودوت الحديث عن دوره القيادي في إسقاط الحكم الميدي، أما مازاريس فلم يذكره إلا خلال الأحداث التي تلت سقوط المملكة الميدية وقيام المملكة الأخمينية، ولا سيما بعد نشوب ثورة ليدية كبرى ضد السلطات الفارسية المحتلة في ليديا.

وكان قائد تلك الثورة زعيم ليدي كبير اسمه (باكْتِياس)، فما إن رحل كورش بجيشه عن ليديا ومعه كُرويْسوس حتى شرع باكتياس يحرّض الليديين على الثورة، ووظّف ما لديه من الذهب في تجنيد المقاتلين، وسيطر على ساحل آسيا الصغرى المطلّ على بحر إيجَه، وأقنع السكان بتأييده، ثم زحف على العاصمة (سارْديس)، وحررها، وأحكم الحصار على الحاكم الفارسي تبالوس الذي تحصّن مع قواته في القلعة، ووصلت أنباء الثورة إلى كورش وهو في طريق العودة إلى ميديا وفارس، فاستبدّ به الغضب، والتفت إلى الملك الليدي شبه الأسير كرويسوس، قائلاً له:

"لست أرى إلا أن هؤلاء الليديين مصدر للمتاعب لي، ولسوف يجرّون الوبال على أنفسهم أيضاً، وفي اعتقادي أن أفضل ما يمكن عمله بشأنهم هو أن أجعلهم أرقّاء، وأبيعهم في سوق النخاسة"[1]

إن القائد الأصيل يظل مخلصاً لشعبه حتى في أحلك المواقف، وهكذا كان كُروِيْسوس، ويبدو من سيرة هذا الرجل- سواء في عهد كورش أم في عهد ابنه قمبيز- أنه كان ملكاً فَطناً حكيماً، يمتاز ببصيرة نفّاذة، ويقرأ الحاضر والمستقبل قراءة واقعية واعية، وكان يعلم أن شعوب آسيا الصغرى المتفرقة الانتماءات والمصالح غير قادرة على مواجهة قوة إمبراطورية كاسحة، فخشي على ساردیس رمز ليديا من الدمار، وخشي على الليديين من أن يصبحوا عبيداً يباعون في أسواق النخاسة، ويتبعثرون في أنحاء العالم، فينقرضون بعد عدة أجيال بشكل كامل، وتلك أكثر الكوارث هولاً في تاريخ الشعوب.

ومن ناحية أخرى كان كُروِيْسوس يفهم بدقة ذهنية كورش الإمبراطورية، ويدرك ماذا يرضي تلك الذهنية وماذا يغضبها، وماذا يناسبها وماذا لا يناسبها، فأشار على كورش بألاّ يعاقب شعب ليديا جميعه، وأن من الحكمة أن يعاقب باكتياس وحده، باعتبار أنه هو الذي دبّر أمر الثورة، وقاد الثوار ضد السلطات الفارسية، وقدّم كرويسوس لكورش حلاً بديلاً، كان يعلم أنه سيلقى القبول منه، إنه قال لكورش:

"فالرأي عندي أن تحظر عليهم حمل السلاح، ولْيرتدوا من الآن فصاعداً الإزارات تحت عباءاتهم، ولينتعلوا النعال العالية، ومروهم بأن يعلّموا أبناءهم العزف على القيثار، فإذا ما انتهجتم هذا النهج- يا مولاي- وجدتم أن هؤلاء الرجال سرعان ما غدوا نساء، وما عدتم تخشون من أمرهم شيئاً"[2]

وكان كورش معروفاً بفطنته ودهائه، وهو بحسب قول ول ديورانت: **"من الحكّام الذين خُلقوا ليكونوا حكّاماً"**[3]، وقد أدرك أن الرأي الذي قدّمه كُروِيْسوس هو

1- المرجع السابق، ص ١٠٣.

2- المرجع السابق، ص ١٠٣ – ١٠٤.

3- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠٣.

الأنسب والأقل ضرراً، فالحكم على شعب بأكمله بالعبودية قد يشجّعه على الثـــورة والدفاع عن النفس بضراوة، بل إن ذلك الحكم الجائر قد يشجّع سكان المدن الإغريقية المجاورة لليديا في آسيا الصغرى، وفي أرخبيل إيجَه، وفي بلاد اليونان، علـــى توحيـــد الصفوف، والتصدي معاً للسلطات الفارسية المحتلة.

وكان كورش صاحب ذهنية إمبراطورية ذكية حقاً، إنه كان يعرف، مثل جميـــع أصحاب هذه الذهنيات عبر التاريخ، أن أمةً يكون حملةُ القيثارات من أبنائها أكثر من حملة الأقلام والسيوف، وأمة ينصرف أبناؤها إلى حياة الترف وإلى اللهو والعبث، لهي أمة ضلّت طريقها إلى القوة والحرية، وحكمت علـــى نفـــسها بالـــضعف والتبعيـــة والعبودية، وهذا ما قرر كورش أن يفعله بشعب ليديا؛ إذ هذا هو المطلوب بالنسبة إلى أيّ حاكم ذي نزعة إمبراطورية.

وأبدى كورش سروره بنصيحة كُرويْسوس، واطمأن إلى أنها نصيحة من سياسي حكيم، فقرر العمل بها، وكان من الضروري أن يقوم شخصٌ ما مخلص مـــن أتباعـــه بتحويل خطته من النظرية إلى التطبيق، فاختار مازاريس الميدي، من بين سائر القـــواد، للقيام بهذه المهمة الدقيقة، قال هيرودوت:

"بعث في طلب مازاريس الميدي، وطلب إليه أن يعلن لليديين مرســـومه وَفـــق النقاط التي تضمّنتها مشورة كُرويْسوس، ويتولّى بعدئذ بيع كل من كان له ضِلع في هجوم الليديين على سارديس، وأوعز بالإبقاء على حياة باكْتِياس مهمـــا كانـــت الظروف، على أن يحضر للمثول أمامه"[1]

وتابع كورش مسيره نحو أرض فارس.

ويُفهم من هذا الخبر أحد أمرين:

o إما أن مازاريس كان مكلفاً ببعض المهام في ميديا أو في فارس، فأرسل كورش في طلبه، وكلّفه بالمهمة.

1- المرجع السابق، ص ١٠٤

○ وإما أنه كان مع كورش في الجيش العائد من ليديا، وهذا هو الأرجح.

وعلى الحالين هذا دليل على ثقة كورش بقدرات مازاريس القيادية والعسكرية، فقد كان الليديون شعباً مقاتلاً، لا تسهل السيطرة عليهم. وهو دليل أيضاً على ثقة كورش بإخلاص مازاريس له، فليديا كانت تقع في أقصى غربي آسيا، أي في أقصى غربي الإمبراطورية الفارسية حينذاك، وكانت الموانئ التجارية التي تربط الإمبراطورية بالبلقان وبلاد اليونان عبر بحر إيجه تقع في ليديا والبلاد المجاورة لها؛ تلك البلاد التي ما كان للفرس أن يسيطروا عليها إلا بالسيطرة على ليديا أولاً، هذا عدا أن ليديا كانت قريبة من بلاد اليونان العدو الأوربي الرئيسي للفرس حينذاك.

فكيف نفّذ مازاريس المهمات الموكولة إليه؟

المطاردة

تصدّى مازاريس للمهمة بكفاءة تامة، وكان من الطبيعي أن يزحف بجيشه نحو العاصمة الليدية سارديس، ليستردها من باكتياس، وليفكّ الحصار عن الحاكم الفارسي وجنده في القلعة، قال هيرودوت يصف الأمر:

"ولما علم باكتياس أن جيشاً غدا يطارده، وبات على مشارف موقعه، انتابه الهلع، فهرب إلى سايْمَه Cyme[1]، **بينما كان مازاريس يتابع الزحف على سارديس مع فوج من جنود قورش"**[2]

تلك كانت هي المرحلة الأولى في خطة مازاريس.

وماذا كانت المرحلة الثانية؟

كان على مازاريس، بعد السيطرة على سارديس، أن يبدأ بتنفيذ المخطط الإمبراطوري الذي طابت به نفس كورش؛ وهو قتل إرادة الحرية في نفس الليديين، وتجريدهم من روح الفروسية، وإلهائهم بالغناء واللهو، قال هيرودوت:

1- مدينة على ساحل بحر إيجه.

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ١٠٥.

"وحين وجد أن باكْتياس ومناصريه قد غادروا، كان أول ما فعله أن فرض على الليديين ما رسمه لهم قورش، وكان ذلك بداية تحوّل في حياة الليديين كلهم"[1]

ووصل مازاريس إلى المرحلة الثالثة في الخطة؛ هي القضاء على قائد الثـــورة، وكان باكْتياس هو القائد وهو العقل المدبّر، وكان على مازاريس أن يلقي القبض عليه حسب أوامر كورش، ويرسله إلى البلاط الملكي؛ وكان باكتياس قد لجأ إلى جزيرة (سايْمَه)، قال هيرودوت: **"وبعث بعد ذلك بكتاب إلى ســـايمه يطالـــب أهلها بتسليم باكتياس"**[2]، ولا ريب في أن رسالة مازاريس كانت رسالة تهديـــد شديدة اللهجة كما يقال في العُرف الدبلوماسي المعاصر، وليس من المستبعد أنـــه أنذر السايْميين في رسالته باجتياح مدينتهم ما لم يبادروا فوراً إلى القـــبض علـــى باكتياس وتسليمه.

وكان على قادة سايْمَه أن يتخذوا القرار المناسب، ويجدوا حلاً لهذه المشكلة؛ فهم بين أمرين أحلاهما مُرّ كما يقول المثل: إما أن يتعاطفوا مع باكتياس، ويأخذوا بنهجـــه الثوري، ويرفضوا تسليمه، ويعرّضوا أنفسهم لخطر الانتقام الفارسي. وإما أن يخرجوا على التقاليد المرعيّة، ويفضّلوا السلامة، ويسلّموا باكتياس لمازاريس.

احتكام إلى الآلهة

ويبدو أن قادة المدينة انقسموا إلى فريقين متكافئين: فريق مع تسليم باكتياس وإيثار السلامة، وفريق مع عدم تسليمه، وتحمّل النتائج مهما كانت؛ والدليل على التكافؤ بين الفريقين هو اتفاقهم على الاحتكام إلى كهنة الآلهة (رجال الدين) لحسم ذلك الخلاف، وكانت تلك هي العادة قديماً، وما زالت هذه العادة قائمة عند بعـــض الـــشعوب إلى يومنا هذا. قال هيرودوت:

1- المرجع السابق نفسه.

2- المرجع السابق نفسه.

"فقرّ رأي الناس هناك على استشارة الكهنة في معبد برانشيداي فيما تشير بـه الآلهة عليهم، إن كان أن يقاوموا أو يستسلموا، وكان معبد برانشيداي يقع في منطقة ملطية[1]، بالقرب من مرفأ بانورموس، وهو معبد قديم كثيراً ما كان يلجأ إليه الأيونيون والأيوليون"[2]

وحسم عرّاف المعبد الأمر لصالح الفريق الداعي إلى تسليم باكتياس للفرس، لكن الفريق الآخر من أهل سايْمَه رأى من العار أن يتخلّوا عن باكْتياس ويسلّموه للفرس، وبعد خلاف شديد بين الفريقين حول الموضوع اهتدوا إلى حل وسط؛ ألا وهو ترحيل باكتياس إلى مَيْتِلانَه Mytilene الواقعة على ساحل بحر إيجه شمالي مدينة سايْمَه[3]

ولم يترك مازاريس باكتياس ينجو بجلده، وإنما ظل يطارده، وإلى جانب سلاح الترهيب لجأ مازاريس إلى سلاح الترغيب، فأطمع أهل ميتلانه بمبلغ مغرٍ من المال لقاء قيامهم بتسليم باكْتِياس إليه. ويبدو أن قادة ميتلانه رضوا بذلك، فالحصول على مبلغ من المال، حسبما بدا لهم، أفضل من تعريض مدينتهم لخطر التدمير، وكانوا يعلمون أنهم غير قادرين على التصدي للجيش الفارسي، وأحس باكتياس بالخطر يتهدده، فانتقل إلى مدينة أخرى تسمى خِيُوس، ولجأ إلى معبد الإلهة أثينا، قال هيرودوت:

"وفي خيوس جرّ أهلها باكْتِياس من معبد الإلهة أثينا الحارسة جرّاً، وسلّموه إلى الفرس، وكان ثمن تسليمه منحهم مقاطعة اتارنيوس؛ وهي قطعة أرض تقع على اليابسة مقابل ليسبوس، وهكذا كان أمر وقوع باكْتِياس في قبضة الفرس، واحتجازه ليصار إلى ترحيله للمثول بين يدي قورش"[4]

1- هكذا ترجمها المعرّب، والأرجح أنها مدينة مليتوس Miletus الواقعة على ساحل بحر إيجه، وليس مدينة (مَلَطْية) المعروفة في الأناضول.

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ١٠٥.

3- المرجع السابق نفسه.

4- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ١٠٦.

وبعد أن ألقى مازاريس القبض على باكْتياس قرر الانتقام مـــن جميـــع الإغريـــق والليديين الذين ساروا تحت لواء الثورة، فشنّ حملة عسكرية لملاحقة ومعاقبة كل مـــن كانت له مشاركة في حصار الحاكم الفارسي تبالوس في قلعة سارْديس، وكان قاســياً في التعامل معهم، كما كانت هي العادة في السياسة الفارسية القمعية الاحتلالية، قال هيرودوت في ذلك:

"وكان أن باع سكان بيرنه في أسواق النخاسة، واجتاح بعدئذ منطقة ماجنيسيا (مَغْنيسيا)، وسهل مَياندِر، وعمل فيها نهباً وسلباً"[1]

وبينما كان مازاريس يقوم بحملته تلك لإرضاء السلطات الفارسية أُصيب بالمرض، ثم توفي، والأرجح أن وفاته كانت سنة (٥٤٦ ق.م)، وتولى قيادة الجيش بعده القائد هارپاگ الميدي.

1- المرجع السابق نفسه.

٩

سمبرديس (گوماتا) الميدي

(قُتل سنة ٥٢٢ ق.م)

قراءة التاريخ

في قراءة التاريخ القديم ينبغي مراعاة أمور أربعة:

الأمر الأول: معرفة النية المبيَّتة وراء تثبيت المعلومة وتوجيهها؛ إذ لا كتابة للتاريخ من غير نوايا، والمؤرخ في كل عصر ينتمي إلى ثقافة ما، وإلى رؤية ما، وهو مرتبط في النهاية بشبكة مصالح اجتماعية، أو دينية، أو مذهبية، أو قومية، أو قَبَلية، ولا بد أن يكون لطبيعة انتمائه تأثير في ذكر المعلومات أو إخفائها، وكذلك في الطريقة التي يفسر بها الأحداث؛ والحقيقة أن في التاريخ القديم والحديث شواهد لا تحصى على العلاقة بين النيات المبيّتة وسرد الحدث التاريخي.

والأمر الثاني: تحرير سرد الحدث التاريخي من سطوة الخرافة، ومن التلفيقات والخزعبلات وضبابيات الميتافيزيقا، ووضعه في سياقه الواقعي بيئياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً، ثم التعامل معه بواقعية وموضوعية، ثم البناء عليه. وإلا فسنظل هائمين على وجوهنا (خارج التاريخ)، متوهّمين في الوقت نفسه أننا نتحرك (داخل التاريخ)، ومعروف علمياً أن المقدمات الخاطئة لا يمكن أن توصلنا إلى نتائج صائبة.

والأمر الثالث: إضافة إلى النيّات المبيَّتة، وتضليلات السرد الأسطوري، لم يكن المؤرخون القدماء يمتلكون الوسائل الكفيلة بالحصول على المعلومات على نحو دقيق ومتكامل، فكانوا يضطرون إلى تدوينها كما هي، ونجم عن ذلك وجود فراغات

وفجوات في السرد التاريخي؛ الأمر الذي يحول دون ربط الأحداث بعضها ببعض ربطاً محكَماً، ويقود القارئ إلى مناطق مظلمة لا يدري كيف يسير فيها، ويوصله في النهاية إلى نتائج مشوَّشة غير دقيقة وغير منطقية.

والأمر الرابع: لم يصلنا جميع ما دوّنه المؤرخون القدماء، فالوسائل البدائية (أوراق بردي، فخّار، جلود، نُصُب تذكارية) التي كانت تُستخدَم في تدوين التاريخ لم تساعد على بقاء المعلومات زمناً طويلاً، هذا عدا أن الحروب كانت تُدمّر مدناً بأكملها، وتقضي على معظم ما كان يحتفظ به الفريق الخاسر من معلومات، وحسبنا دليلاً على ذلك أن الإسكندر المكدوني حينما انتصر على الملك الأخميني دارا الثالث سنة (٣٣١ ق.م)، هدّم المعابد الزردشتية (بيوت النيران)، وقتل الهَرابِذة[1]، وأحرق كتاب أڤستا للنبي الميدي زَرْدَشت، وكان مكتوباً في اثني عشر ألف من جلود البقر[2]، هذا مع العلم أن الإسكندر كان تلميذ الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو، وكان من المتوقّع أن يتعامل مع تراث الشعوب بقدر أكبر من الاحترام، وإذا كان الإسكندر نهج هذا النهج الإقصائي فماذا يمكن أن تتوقع من الملوك الجهلة وأشباه الجهلة؟!

ما معنى كل هذا؟!

من الضروري مراعاة هذه الأمور الأربعة في الحديث عن سميرديس الميدي، والصراع المرير بين الفرس الأخمين والميديين، والمصدر الرئيسي للمعلومات الخاصة بهذا المجال هو ما دوّنه المؤرخ اليوناني هيرودوت، وقد ذكر أنه جمع تلك المعلومات من (الفرس الثقات) كما مرّ، والغريب أنه لم يستق معلوماته من شخصية ميدية؛ مع أن الميديين كانوا موجودين، إذ صحيح أن كورش الأخميني قضى على مملكة

1- الهرابذة هم كهنة معابد النيران، ومفرد هرابذة هو (هَرْبِذ)، والصيغة الآريانية هي (آرْ بِـدْ)، أي مُوقد النار، أو سادن النار.

2- المقدسي: البدء والتاريخ، ١٥٣/٣.

ميديا، لكنه لم يقض على جميع الميديين، لا بل كان في الجيش الفارسي كثير من المقاتلين الميديين قادةً وجنوداً، وكان في المؤسسة الأخمينية عدد غير قليل من الإداريين الميد.

ولا فائدة من أن نعزو غياب الجانب الميدي في رواية الأحداث إلى تحيّز هيرودوت للأخمين، فالرجل كاريّ الأصل، وكان الأخمين يحتلون حينذاك بلاد الكارين والإغريق الآخرين في آسيا الصغرى (غربي تركيا حالياً)، وعاصر في طفولته وصباه أحداث الصراع بين الفرس واليونان، في عهد الملك الأخميني أَخْشَويَرش.

وأحسب أن **"الفرس الثّقات"** الذين نقلوا المعلومات إلى هيرودوت- حسبما ذكر- كانوا جزءاً من ظاهرة تاريخية طويلة الأمد؛ وهي حرص جهات إقليمية، في غربي آسيا، على تغييب تاريخ أسلاف الكرد منذ ألفين وخمسمئة سنة، لطمس وجود هذا الشعب، والرمي به خارج التاريخ البشري، وهنا مكمن الخطر الأكبر، ليس على الكرد فقط، بل على شعوب غربي آسيا، وعلى البشرية جمعاء؛ لأن من يتعامل مع شعب بذهنية إلغائية إقصائية في هذا المستوى من التطرف يكون على استعداد، إذا سنحت له الفرصة، لأن يتعامل بالذهنية الإقصائية نفسها مع سائر الشعوب.

والحديث عن ظاهرة تغييب التاريخ الكردي والوجود الكردي ليس حديثاً عن كائنات خرافية كالغُول والعَنْقاء؛ وإنما هو حديث عن حقيقة واقعة؛ إذ ما معنى أن يتوافر في المكتبة الغرب آسيوية، حتى النصف الأول من القرن العشرين، مئات الكتب عن جيران الكرد فرساً وعرباً وأرمناً وتركاً، أما عن الكرد فلا شيء سوى ما كتبه بعض الرحّالة الروس والغربيين، وبعض المبشرين، ونشروها في بلدانهم، وسوى ما كتبه بعض الكرد ونشروه خفية، وأحياناً بأسماء مستعارة؟

ثم ما معنى أن كثيرين من المثقفين العرب، دعك من الناس العاديين، لا يعرفون عن الكرد إلا القليل؟ والأخطر أن ذلك القليل لم ينج من التشويه العارض أو المتعمَّد، وهو في مجمله معلومات مستقاة من وسائل الإعلام، وليس من دراسات موضوعية جادة، ومعروف أن آخر ما تهتم به أجهزة الإعلام في غربي آسيا- منذ

نصف قرن على الأقل- هو تعريف شعوب هذه المنطقة بعضها ببعض الآخر، وأن أول ما يهمّها هو تأليب هذا الشعب ضد ذاك، وزرع كراهية هذا الشعب في نفس ذاك.

ومن الأمثلة على زرع ثقافة الكراهية بين شعوب غربي آسيا أن بعض العرب- سواء أكانوا قوميين أم إسلاميين- يطلقون على الفرس اسم (المجوس) بمعنى الكفار، وبعض الترك يسمّون العرب (بِسْ مِلّتْ) بمعنى (شعب رديء)، لأن النُّخَب العربية بقيادة الشريف حسين (والي مكة) تحالفوا مع الإنكليز والفرنسيين، في الحرب العالمية الأولى، للخلاص من سيطرة ضد الدولة العثمانية، كما أن الترك بدورهم يسمّون الكرد (أتراك الجبال) بمعنى (بدائيون متخلّفون)، وهكذا دواليك.

وما معنى أنه كلما ذكرتُ لطلبتي- وهم جامعيون- أني كردي، تعجّبوا بل دهشوا، وراحوا يُبدئون فيّ النظر ويعيدونه، وكأنهم يكتشفون كائناً عجيباً غريباً قادماً من كوكب بعيد؟ وما معنى أنهم لا يعرفون، بل لا يستطيعون استيعاب وجود شعب اسمه (الكرد) في الشرق الأوسط كله إلا إذا ذكرتُ أن صلاح الدين الأيوبي كردي، وأن أحمد شوقي أمير شعراء العرب في العصر الحديث كردي؟ هل يعني هذا أنه لولا وجود صلاح الدين وأحمد شوقي وأمثالهما ما كان للكرد حق الوجود؟

ثم بالله عليكم دققوا النظر في أحداث العالم طوال القرن العشرين، وإلى يومنا هذا، ألا تجدون أن نصف المشكلات الكبرى والتناحرات القومية والدينية والمذهبية ظهرت وتظهر في الشرق الأوسط، وتحديداً في غربي آسيا، علماً بأن مساحة هذه المنطقة قد لا تساوي إلا عُشر مساحة العالم المسكون أو أقل؟ وهل وصلنا إلى هذه النتائج المخيفة إلا بسبب ذهنيات التعتيم والتغييب والإقصاء والإلغاء؟

ونعود مرة أخرى إلى السؤال: من كان وراء تغييب تاريخ أسلاف الكرد في غربي آسيا؟ والجواب كما مر: إنهم الفرس؛ لكن لماذا قاموا بذلك الدور؟ لأنهم كانوا يسترشدون بـ (وصية قمبيز)، فماذا عنها؟

وصية قَمْبَيز

إن سيكولوجيا الجبال ترفض القبول بالدكتاتورية والاستبداد وفرض الرأي الواحد بالقوة، وعلى ضوء ذلك يمكن تفسير نشوء دول المدن السومرية، وعدم ظهور دولة سومرية مركزية واحدة، فالسومريون شعب زاغروسي الأصل، انحدر من جبال كردستان، واستقر في جنوبي بلاد الرافدين. وعلى ضوء ذلك أيضاً يمكن تفسير نفور اليونان القدماء من الساسة الطغاة، وثورتهم عليهم، ونشوء جمهوريات المدن اليونانية.

والميديون هم أبناء الجبال في الدرجة الأولى، وتهيمن عليهم سيكولوجيا الجبال، لذلك لم تكن مملكة ميديا استبدادية التكوين عندما نشأت، ولا حتى عندما تحوّلت إلى إمبراطورية بعد إسقاط إمبراطورية آشور سنة (٦١٢ ق.م)، إنها كانت تتألف من اتحاد فيدرالي يضم سبعاً وعشرين قبيلة حسبما ذكر ول ديورانت؛ أي سبعةً وعشرين تكويناً سياسياً يتمتع بالإدارة الذاتية، لقد كانت الأمور كذلك في عهد كل من دَياكو وخَشتريت وكَيْخُسرو، لكنها تغيّرت مع وصول أستياگ إلى السلطة، إذ يبدو أنه جرّد الدولة من طابعها اللامركزي، وحوّلها إلى مَلكية استبدادية.

وكان النهج الاستبدادي الذي أخذ به أستياگ في إدارة شؤون الدولة، وانهماكه في الترف، وحدوث الانقسامات بين القيادات الميدية، وظهور بوادر الصراع على السلطة، وانغماس المجتمع الميدي في حياة الرخاء، إضافة إلى خيانة قادة كبار مثل هارپاگ، من أهم العوامل التي أتاحت للحاكم الفارسي الأخميني المجاور كورش الثاني، أن يطيح بالمملكة الميدية، ويؤسس الدولة الأخمينية على أنقاضها.

ولا ريب في أن كورش كان يتمتع بالدهاء، ويتجلّى ذلك في طريقة تعامله المرنة في البداية مع الميديين، كي لا ينفرهم ولا يثير الشكوك في نفوسهم، قال دياكونوف:

"إن كورش لم يغيّر المملكة الميدية، ولم يقضِ عليها، بل إنه نصب نفسه ملكاً على ميديا، بينما بقي اسمه كالسابق ملك الفرس، حتى في عهد داريوش إن معظم الكتابات كانت تذكر ميديا وفارس مقابل الدول الأخرى كمملكتين متساويتين"[1]

1- دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٦.

والدليل على ذكاء كورش ودهائه أيضاً أنه حرص على التقرّب من الميديين، والإفادة من قدراتهم وكفاءاتهم، وإسناد مناصب عسكرية عليا إلى بعض كبار شخصياتهم، أمثال هارپاگ ومازاريس، يقول ول ديورانت:

"وابتهج الميديون أنفسهم بانتصاره على ذلك الطاغية، وارتضوه ملكاً عليهم، ولم يكد يرتفع من بينهم صوت واحد بالاحتجاج عليه"[1]

وقال دياكونوف موضّحاً سياسة كورش مع النخب الميدية:

"إن السياسة الدائمة لكورش الثاني، والتي لم تتغيّر أبداً، هي الاتفاق مع الرجال الكبار (النبلاء) الميديين، كي يجذب انتباههم، ويكسب ودّهم؛ لهذا السبب إن الملوك الذي كانوا يقعون في الأسر من الملوك الميديين لم يقتلهم"[2]

و لم تقتصر خطة كورش على طمأنة النخب الميدية فقط، بل رأى من الضروري قطع الطريق على كل محاولة مستقبلية ممكنة؛ قد تعرقل أو تهدّد خطّته للهيمنة على ميديا دولةً وأرضاً وشعباً، ومن أخطر تلك التهديدات بقاء **أستياگ** حياً، فإن بقاءه حياً- وإن كان في الأسر- يعدّ رمزاً لبقاء مملكة ميديا، ورمزاً للمجد الميدي؛ لذلك حرص كورش على التخلص منه، كما ذكرنا سابقاً، وتحميل بتسياك وزر ذلك.

لكن لم يكن القضاء على أستياگ وحده كافياً، إذ كان ثمة تهديد آخر لا يقلّ خطورة عن التهديد المتمثّل في أستياگ؛ ألا وهو بقاء ولي العهد حياً، والحقيقة أنه لم يكن للملك أستياگ أبناء ذكور، لكن القانون الميدي كان يسمح للصهر (زوج ابنة الملك) بوراثة العرش في هذه الحال؛ وكانت ابنة أستياگ المسمّاة **آميتيدا** متزوّجة من نبيل ميدي يدعى **أسْپيتام**، وهذا يعني أنه كان من حق أسپيتام وراثة العرش الميدي بعد أستياگ، و لم يكن هذا الأمر خافياً على كورش؛ لذلك بادر إلى قتل أسپيتام، والزواج من آميتيدا، فضمن بذلك الحصول على الشرعية الدستورية[3]

1- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠٢/٢.

2- دياكونوف: ميديا، ٣٩٧.

3- هارڤي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٧. دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٦

واستطاع كورش بهذه السياسة تحقيق هدفين:

الهدف الأول: إسكات النخب الميدية، وإشعارهم بأن الدولة دولتهم، وخاصة أن الميديين أخواله، باعتبار أن أمه ماندانا ابنة أستياگ، وأنه تربّى في قصر جده الملك الميدي، وتأثر بالثقافة الميدية، ويعلم كل من له معرفة بالمجتمع الكردي مدى تعاطف الكرد مع أولاد بناتهم وأولاد أخواتهم، وحسبنا مثالاً على ذلك تعاطفهم مع الأمير العربي **أبي الهَيْجاء عبد الله بن حَمْدان** (كانت أمه كردية) حين أعلن الثورة على العباسيين في الموصل سنة (٣٠١ هـ)، وتعاطفهم بعدئذ مع ابنه **سيف الدولة الحَمْداني** نفسه، باعتبار أن أمه كانت كردية أيضاً[1]

والهدف الثاني: استثمار طاقات الشعب الميدي العسكرية والاقتصادية في احتلال مملكة بابل في الجنوب الغربي، ومملكة ليديا في الشمال الغربي، وإعلان الحرب على شعب ماسّاجيتاي Massagetae، حينما غزا بلادهم (شرقي بحر قزوين).

لكن الأمور اختلفت بعد مقتل كورش في حربه ضد شعب ماسّاجيتاي سنة (٥٣٠ ق.م)، فخلال حكمه هيمن الفرس على مقاليد الأمور، ودفعوا بالميديين رويداً رويداً إلى الظل، وهم قد فعلوا ذلك بعد أن استيقظ بعض قادة الميد من غفلتهم، وأدركوا أنهم، بسكوتهم على النفوذ الفارسي، إنما كانوا يحكمون على أنفسهم بالتبعية والعبودية، قال ول ديورانت:

"وما هي إلا وقعة واحدة حتى انقلبت الآية، فلم تعد ميديا سيّدة فارس، بل أصبحت فارس سيدة ميديا، وأخذت تعدّ العُدّة لتكون سيّدة عالم الشرق الأدنى كله"[2]

وتكرّس استئثار الفرس بالسلطة على نحو واضح في عهد قَمْبيز بن كورش (حكم بين ٥٣٠ – ٥٢٢ ق.م)، فقد قاد قمبيز حملة لغزو مصر، واحتلها سنة (٥٢٥ ق.م)، وكانت تنتابه نوبات من الصرع، كما كانت تنتابه نوبات غضب جنوني، فارتكب

1- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٥٢٠/٧. أحمد عدوان: الدولة الحمدانية، ص ١١١.

2- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠٢/٢.

كثيراً من الفظائع، سواء في تعامله مع المصريين، أم في تعامله مع الفرس، ومنها أنه أمر بنبش قبور ملوك المصريين وجلد الموتى، وأمر بجلد كهنة الإله (أبيس) في مصر، وأمر بإعدام كل مصري يحتفل بعيد ذلك الإله.

كما أمر قَمبيز صديقه الفارسي **بركساسبيس** بالسفر من مصر إلى العاصمة الفارسية (سوسا)، وقتْل أخيه (أخي قمبيز) **سَميردِيس**؛ لأنه رأى في الحلم شخصاً حلّ محله في الحكم يدعى سميرديس، ومنها أنه تزوّج أخته **رُوكْسانا**، مع أن القانون الفارسي كان يحرّم ذلك، ثم تزوّج أخته الثانية، وقتلها لأنها انتقدت سلوكه الدموي، ورمى ابن بَرْكساسبيس بسهم أمام أبيه فقتله دونما ذنب، وأمر بدفن اثني عشر رجلاً من قادة الفرس أحياء ورؤوسهم إلى الأسفل بتهمة تافهة، حسبما ذكر هيرودوت[1]

وحينما توجّه قمبيز إلى غزو مصر كان قد أوكل إدارة شؤون قصره إلى كاهن مجوسي يدعى **بِيرْتزيثيس** (يسميه هيرودوت باتيزيثيس أيضاً)، وكان بِيرتزيثيس يعلم موضوع قتل سَميرديس أخي قمبيز، وأن قلة من الفرس فقط لهم علم بالأمر، وأن جمهور الفرس يعتقدون أن سميرديس ما يزال حياً، وكان لِبِيرْتزيثيس أخ اسمه **سميرديس**[2]، ويسمّى **گوماتا** (گَوْماتا) أيضاً، وذكر دياكونوف أن اسمه يعني (الراعي العاقل)، ويبدو أنه اسم آرياني عريق، فقد ورد في نصوص كتاب الأفستا بصيغة (**هوگو**) **Hugu**، ويعني (صاحب الثور الجيد)[3]

وكان الميديون يعتقدون أن گوماتا هو ابن **آميتيدا** ابنة أستياگ من زوجها الأول أَسْپيتام، وليس من كورش، وكان گوماتا شبيهاً بسميرديس (برديا) بن كورش (أخي

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٣٣، ٢٣٤.

2- من المحتمل أن تكون الصيغة اليونانية (سميرديس) محرّفة من الصيغة الآريانية (شاه مَرْد) التي تعني (ملك الرجال/الزعيم).

3- دياكونوف: ميديا، ص ٣٦٦.

قمبيز)، فسمّاه الفرس (برديا المزيّف) ، وقد استغل بيرتزيثيس حادثة مقتل سميرديس الأخميني، وأقنع أخاه گوماتا بالجلوس على عرش فارس، يقول هيرودوت:

"وأرسل بياناً لجميع القوات في أنحاء فارس ومصر كافة، مفاده أن عليهم في المستقبل تنفيذ الأوامر الصادرة عن سميرديس، وليس عن قمبيز"[1]

ووصلت نسخة من البيان إلى قمبيز في سوريا، وهو في طريق عودته إلى فارس، فنظر إلى القائد الفارسي بركساسبيس قائلاً له:

- **"إذاً، فهكذا تنفّذ أوامري"!.**

فأجابه بركساسبيس:

- **"يا مولاي، إن ما سمعتَ لَكذب وافتراء، وأخوك سميرديس لم يتمرد عليك، ولن يكون لديك سبب للخلاف معه، فلقد نفّذتُ ما أمرتني به، ودفنت جثّته بيديّ هاتين، إذا كان الموتى ينهضون من قبورهم فبإمكانك أن تعتقد أن أستياجيس الميدي قد يعود ليشنّ حرباً عليك، ونصيحتي لك أن تقبض على هذا الرسول وتستجوبه، لتعرف من الذي أرسله بأمر إطاعة الملك سميرديس"**[2]

وأمر قمبيز بإحضار الرسول، وهدّده بأن يصدقه القول، وسأله:

- **"هل أعطاك سميرديس هذه الأوامر بنفسه أم أحد أتباعه؟ فأجاب الرجل: منذ أن رحل الملك قمبيز بجيشه إلى مصر لم تقع عيني على سميرديس بن قورش، والمجوسي الذي سلّمه قمبيز إدارة شؤون قصره هو من أعطاني هذه التعليمات، لكنه قال لي: إنها صادرة من سميرديس"**[3]

واتضح لقمبيز أن الكاهن المجوسي وأخاه قد قادا انقلاباً ضده، وحكما البلاد باسم أخيه المقتول سميرديس، وأن حياة أخيه راحت هباءً، فغضب أشد الغضب، وامتطى

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٤٦. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩٣/١.

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٤٦. وانظر دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٠

3- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٤٧.

جواده، عازماً على الوصول إلى بلاد فارس للقضاء على مدبّري الانقلاب، وحينما وثب على الجواد سقط غمد سيفه، وانكشف النصل، فأصيب بطعنة في فخذه، فمرض على أثر ذلك، وبعد عشرين يوماً شعر باقتراب موته، فأرسل في طلب قادة الجيش الفارسي، وخاطبهم قائلاً:

"يا رجال فارس، إن الظروف لَتفرض عليّ أن أبوح لكم بما كنت قد بذلت قُصارى جهدي لإخفائه. ثم روى لهم خبر الحُلم، وإصداره الأمر بقتل أخيه سميرديس نتيجة لذلك، وأنهم أصبحوا الآن محكومين من قبل المجوسيين"[1]

وأضاف قمبيز قائلاً:

"فلزام عليّ أن أبيّن لكم– وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة– ما أرغب إليكم القيام به، فباسم الآلهة التي تحرس أسرتنا الملكية آمركم، وخاصة الأخمينيين منكم الحاضرين هنا، ألاّ تَدَعوا الميديين يستردّون السلطة، فإذا حصلوا عليها عن طريق الغدر والخيانة فاستردّوها بالسلاح نفسه، أما إذا استردّوها بالقوة فكونوا رجالاً، واستردّوها بالقوة. إذا قمتم بما آمركم به، فإني أدعو لكم بأن تغمركم الأرض بخيراتها، وأن تُرزَقوا بالأطفال، وتتكاثر قطعانكم، وأن تكونوا أحراراً مدى الدهر. أما إذا فشلتم في استرداد السيادة، أو لم تقوموا بأية محاولة لاستردادها، فلتحلْ عليكم لعنتي، وليكنْ مصيركم عكس ما أدعو لكم به الآن، وعِلاوة على ذلك فلتكنْ نهاية كل فارسي بائسةً مثل نهايتي"[2]

فتأثّر قادة الفرس وهم يجدون ملكهم يبكي والدموع تنهمر من عينيه، وأخذوا في تمزيق ثيابهم، وبالبكاء والعويل، ثم استفحل المرض بقمبيز، وتوفّي دون أن يكون له عَقب من الصبيان أو البنات.

1- المرجع السابق، ص ٢٤٩.

2- المرجع السابق نفسه.

حقائق.. لا خرافات!

تلك كانت وصية قمبيز لكبار قادة فارس.

وعلى ضوء هذه الوصية تتضح الأمور الآتية:

أولاً: إن الميديين استيقظوا على الحقائق المُرة بعد سنوات قليلة من الحكم الفارسي، واكتشفوا أن الشراكة الفارسية الميدية في قيادة الدولة الجديدة كانت طُعماً قدمه لهم كورش، فابتلعوه ودفعوا الثمن من حريتهم، فشرعوا يحاولون الخلاص، واستعادة المملكة الميدية.

ثانياً: إن الأخمين خاصة والفرس عامة كانوا يتخوّفون من قيام الميديين باسترداد السلطة، والعودة إلى حكم الفرس وغيرهم في غربي آسيا، وكان هذا الهاجس يثير قلق كبار قادة فارس، وخصوصاً بعد أن قام الميديون بأكثر من محاولة لنيل حريتهم، واستعادة دولتهم ومجدهم.

ثالثاً: إن ثمة قراراً صدر من أعلى الجهات القيادية في الدولة الفارسية، قبل ألفين وخمسمئة سنة، يقضي بأن يمنع الفرس بكل ما أوتوا من قوة- سواء أكانت قوة الحرب أم قوة الخديعة- قيام الدولة الميدية مرة ثانية، وبعبارة أخرى: أن يمنع الفرس قيام دولة كردية، كي يبقى الكرد إلى الأبد تحت قبضة الفرس، ومن يتتبّع العلاقات الكردية- الفارسية طوال القرون الخمسة والعشرين الماضية يخرج بنتيجة واضحة وضوح الشمس؛ مفادها أن روحية (وصية قمبيز) كانت تحتل مكان الصدارة في كل السياسات الفارسية إزاء الكرد.

رابعاً: إن هذه الوصية كانت حجر الأساس في تغييب تاريخ أجداد الكرد، وتغييب الثقافة الكردية عامة، وكل ما يتعلق بالهوية الكردية، عن شعوب غربي آسيا وعن العالم، وإبقاء ذلك كله في طيّ الكتمان.

خامساً: إن هذه الوصية كانت وراء تشويه صورة الكرد، فإنك تجد في كتب تاريخ غربي آسيا أن أصل الفرس والعرب والأرمن والترك من البشر الأسوياء، إلا الكرد، فإن تلك الكتب تجعلهم أبناء الجن تارة، وأبناء الشيطان جاساد (جسد) تارة أخرى، ونتاج علاقة زنا بين الجواري الأوربيات وعفاريت النبي العبري سليمان تارة

ثالثة؛ والخلاصة أنهم ليسوا من أبناء آدم الأسوياء، وأنهم دخلاء على الجنس البشري جملة وتفصيلاً، هذا إضافة إلى النيل من شأنهم، وتصويرهم على أنهم رعاة وبدائيون.

ولست أبني هذا الرأي على الوهم، فالمعروف أن المعلومات الخرافية المتعلقة بأصل الكرد وصلت إلينا من كتابات المؤرخين المسلمين القدماء، والسؤال هو: من أين استقى أولئك المؤرخون تلك المعلومات؟ إذ لا شيء عن أصل الكرد في القرآن، ولا في الأحاديث النبوية الصحيحة، ثم إن العرب قبل الإسلام لم يكن بينهم مؤرخون، و لم نجد في تراثهم الشفهي شيئاً حول أصل الكرد. أما في صدر الإسلام فذكر علماء النسب العرب، ومنهم **محمد بن السائب الكَلْبي** (ت ١٤٦ هـ)، **وأبو اليقظان سُحَيْم بن حَفْص** (ت ١٩٠ هـ)، **وهشام بن محمد بن السائب الكلبي** (ت ٢٠٤ هـ)، أن الكرد من أصل عربي، و لم يذكروا مطلقاً هذه المعلومات الخرافية.

إذاً فالمصادر التي استُقيت منها المعلومات الخاصة بالأصل الخرافي للكرد ليست عربية مطلقاً، والمثير للانتباه أن تلك المعلومات لم تُذكَر في مدوَّنات العصر الأُمَوِيّ (قبل سنة ١٣٢ هـ)، وإنما تعود إلى مدوّنات العصر العباسي، وكل من يقرأ تاريخ العصر العباسي الذهبي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ/ ٧٤٩ – ٨٤٧ م) يعرف مدى هيمنة الفرس والسريان (حلفاء الفرس ضد البيزنطيين) على الحركة الثقافية حينذاك، ودورهم الهام في حركة الترجمة، هذا عدا هيمنة الفرس، وأتباع الثقافة الفارسية، على منصب الوزارة معظم الأحيان، وهذا يعني أن المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، حينما أورد المعلومات الخرافية حول أصل الكرد في كتابه (مروج الذهب)، إنما استقاها من المصادر الفارسية أو السريانية بعد ترجمتها، وهي مصادر متحاملة على الميديين وأحفادهم الكرد كما مر.

مسار الانقلاب

ودعونا نتساءل: كيف سار الانقلاب الميدي؟

بعد وفاة قمبيز لم يصدق كبار قادة الفرس أن يكون سميرديس الميدي قد استولى مع أخيه بيرتزيثيس على الحكم، وزاد في اقتناعهم أن بركساسبيس نفى بشدة أن يكون

قد قتل سميرديس بن قمبيز، خوفاً من العقوبة بعد وفاة حاميه قمبيز. واستمر سميرديس الميدي في الحكم سبعة أشهر، وأول ما اهتم به هو تحرير الشعوب المقهورة من جور ومظالم الحكم الفارسي، وعدم فرض الضرائب الباهظة عليهم، وعدم إرسال أبنائهم إلى ميادين الحروب الإمبراطورية، قال هيرودوت:

"وخلال عهد المجوسي حصل رعاياه على منافع عظيمة، ولذلك أسف لموته جميع الآسيويين التابعين باستثناء الفرس؛ إذ إنه بُعيد اعتلائه العرش أعفى جميع الأمم الخاضعة له من الضرائب والخدمة العسكرية مدة ثلاث سنوات. لكن بعد سبعة أشهر من تولّيه الحكم أدّت الظروف التالية إلى افتضاح أمره"[1]

وبطبيعة الحال لم يقف قادة فارس مكتوفي الأيدي إزاء الحركة الانقلابية، وصاروا يتابعون ملابسات الأمر بحرص وعناية، وكان أكثر من ارتاب في أمر سميرديس الميدي هو أُوتانيس بن فَرْناسبيس، أكثر نبلاء الفرس ثراء، وأول ما لاحظه أوتانيس أن سميرديس لم يغادر التحصينات في العاصمة، ولم يقم باستقبال أيّ نبيل فارسي في جلسة خاصة بمعزل عن الآخرين، وكان سميرديس الميدي قد استولى على جميع زوجات قمبيز، وفرقهن، فجعل لكل واحدة منهن قصراً بعيداً عن قصر الأخرى، وكان من بينهن فيديم بنت أوتانيس، وطلب أوتانيس من ابنته سراً أن تتأكد هل هذا هو سميرديس بن كورش أم هو سميرديس الميدي، فأفادت فيديم أنها لا تستطيع التمييز، فهي لم تجد سميرديس بن كورش سابقاً.

وكان أُوتانيس يعلم أن قورش غضب ذات مرة على گوماتا (سميرديس) الميدي، فأمر بقطع أذنيه عقاباً له، فكتب إلى ابنته قائلاً:

"عليك القيام بما يلي: حينما يأتي لقضاء الليل معك، انظري حتى تتأكدي من أنه استغرق في النوم، ثم تحسسي أذنيه، فإذا وجدتهما فأنت زوج سميرديس بن كورش، أما إذا لم تكن له أذنان فستعلمين أنكِ زوج سميرديس المجوسي"[2]

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٤٩.

2- المرجع السابق، ص ٢٥٠.

وحينما حلّت ليلة فيديم مع الملك سميرديس قامت بما طلب منها والدها، وتبيّن لها أن زوجها مقطوع الأذنين، فعلمت أنه ليس سميرديس بن كورش، وأسرعت في اليوم التالي إلى إخبار والدها بالحقيقة.

وبناء على ذلك تأكد أوتانيس من أن الملك هو سميرديس الميدي، وليس سميرديس الفارسي، فاتّفق مع ستة آخرين من كبار زعماء فارس على التصدي للأخوين الميديين، والقضاء عليهما، واسترجاع العرش الأخميني، وكان دارا (داريوس) بن هايستاسبيس (هَشْت أَسْپ) أبرز أولئك السبعة، وكان والده حاكم مقاطعة فارس. وتبادل الحلفاء السبعة عهود الولاء، وناقشوا الخطوات التي يجب اتخاذها، وقرروا الإسراع في القيام بانقلاب معاكس، لكن شريطة الحذر واتخاذ جميع الاحتياطات الكفيلة بنجاح الخطة، وأصرّ دارا على البدء بالتنفيذ في اليوم نفسه دونما تأخير، وإلا انكشف السر، وباؤوا جميعاً بالفشل الذريع.

ودارت نقاشات حادة بين المتحالفين، واعترض أوتانيس على قرار دارا؛ إذ كيف يمكنهم دخول القصر الملكي، والوصول إلى الملك، والحرس منتشرون في كل مكان؟ لكن دارا أكد لهم أن الحرس لن يترددوا في السماح لهم بالدخول، باعتبارهم كبار زعماء فارس، وأضاف قائلاً:

"فضلاً عن ذلك لديّ عَذر مناسب لإدخالنا؛ سأقول: إنني جئت من فارس، حاملاً رسالة من والدي إلى الملك، إذا كان الكذب ضرورياً فلم لا أكذب؟! كلنا يسعى إلى هدف واحد، سواء أكنا نكذب أم نقول الحقيقة"[1]

وكان زعيم فارسي آخر يدعى جُوبرياس[2] متحمساً لخطّة دارا، فقال:

1- المرجع السابق، ص ٢٥٢.

2- ذكر أرشاك سافراستيان- معتمداً على مصادر موثّقة- أن جوبرياس (غوبرياس) Gobryas هو الزعيم الميدي أُوغوبارو Ugbaru الذي كان على رأس المقاتلين الگوتيين (من أسلاف الكرد) الذين ساعدوا كورش الثاني على احتلال مدينة بابل سنة (٥٣٨ ق.م)، وكانوا أول من دخل المدينة،

"يا أصحابي، هل تتاح لنا فرصة أفضل مما لدينا الآن لإنقاذ العـرش؟ أمـا إذا فشلنا فلنمتْ في المحاولة، أفحتمٌ على فارس أن يحكمها ميدي؛ ذلك المجوسي الذي قُطعت أذناه؟ ولن ينسى من كان منكم واقفاً بجانب قمبيز، وهو على فراش الموت، اللعنةَ التي أنزلها بالفرس إذا لم يقوموا بأيّ جهد لإنقاذ العرش، وأعتقد أن علينا الأخذ بنصيحة داريوس، وأن ننهي الاجتماع، لنذهبَ فوراً إلى القـصر، ونهـاجم المجوسيِّين. فوافقوا جميعاً على الاقتراح"[1]

مجزرة.. ونتائج

وفي الوقت نفسه يبدو أن الشكوك في هوية الملك سميرديس الميدي كانت تتزايـد، وكان الأخوان الميديان يفكران في مخرج من الوضع الذي كانا فيه، وقررا أن يعمـلا لجذب بَرْكساسبيس إلى صفهما؛ **أولاً** لأن قمبيز كان قد عامله بقسوة، وقتل ابنـه. **وثانياً** لأنه الشخص الوحيد الذي يعلم سر مقتل سميرديس بن قورش. **وثالثاً** لمكانتـه السامية في المجتمع الفارسي. فاستدعياه وساوماه على الولاء لهما، وعرضا عليه مبلغـاً كبيراً من المال لقاء صمته، فوافق بركساسبيس على ذلك، فدعا الأخوان الفـرس إلى الاجتماع في أسفل أسوار القصر، ليعلن بركساسبيس من أعلى البرج أن الملـك هـو سميرديس بن قورش وليس شخصاً آخر.

وفي الموعد المحدد لاجتماع الفرس، صعد بركساسبيس إلى قمة الـبرج لـلإدلاء بشهادة، ولكن عوضاً عن الوعد الذي قطعه للأخوين الميديين، ألقى خطبة حماسـية،

ويسميه (غوبارو) Gubaru أيضاً، وبسبب خدماته العسكرية كافأه كورش بتعيينه حاكمـاً علـى المدينة، ثم نائباً للملك عبر نهر الفرات، وملكاً على سوريا وفلسطين. أما د. محمد بيُّومي مَهْران فذكر أن (جوبارو/جوبرياس) Gubryas كان حاكماً بابلي الأصل، انحاز إلى كورش. انظـر: أرشـاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٣٨. محمد بيّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٤٦٥.

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٥٣.

ذكر فيها سلسلة نسب كورش وصولاً إلى الجد الأكبر أخمين، واستعرض الخدمات التي قدمها كورش للفرس، وكشف عن حقيقة أن قمبيز أجبره على قتل سميرديس بن كورش، **"وأن البلاد الآن أصبحت في قبضة المجوسيين، وفي النهاية ختم كلامه بالدعاء على الفرس أن يترل بهم الشقاء إذا لم يستعيدوا العرش، ثم ألقى بنفسه دون تردّد من أعلى البرج إلى الأرض"**[1]، فكانت نهايته الموت.

لم يكن الحلفاء الفرس السبعة يعرفون شيئاً عما يدور في القصر الملكي، وكانوا متوجّهين إليه لتنفيذ الخطة، وفي منتصف الطريق علموا بما قاله بركساسبيس، وبعد مداولات عاجلة، واختلاف في الآراء، وقفت الأكثرية مع دارا في تنفيذ الهجوم على القصر، ولم يعترضهم الحرس، لكن خصيان القصر استوقفوهم، وعنّفوا الحرس على السماح لهم بالدخول، فاستلّ المهاجمون خناجرهم، وفتكوا بالخصيان. وحينذاك كان الأخوان الميديان يتناقشان في الوضع الناجم عن خيانة بركساسبيس لهما، وسمعا الخصيان يصرخون بشدة، فأسرعا لمعرفة الخبر، وأدركا الخطر المحدق بهما، فاستعدا للمجابهة، وخاضا القتال ضد المهاجمين السبعة، فجرحا اثنين منهم، لكنهما خسرا الجولة، وكانت نهايتهما القتل، وكان ذلك سنة (٥٢٢ ق.م). قال هيرودوت:

"بعد أن تمّ قتل المجوسيَّيْن، قطع المتآمرون رأسيهما، وخرجوا إلى الشارع وهم يصرخون، مُحْدثين ضجّة عظيمة، حاملين الرأسين المقطوعين، بينما تركوا الجريحين في القصر،... والتقى الخمسة السالمون بالمواطنين، وأخبروهم بما جرى، وأظهروا لهم الرأسين، ثم بدأوا بقتل كل مجوسي صادفوه في طريقهم، وسرعان ما أصبح الفرس الآخرون على أُهْبة الاستعداد لأن يحذوا حَذْوَهم، بعد أن علموا بالعمل البطولي الذي اضطلع به الحلفاء السبعة، والخدعة التي قام بها المجوسيان، فاستلّوا خناجرهم، وقتلوا كلَّ مجوسي وقعت أنظارهم عليه، وكادوا يبيدون المجوس لولا حلول الظلام، فتوقفت المجزرة، وقد أصبح هذا اليوم يوماً مشهوداً في التقويم الفارسي؛ حيث يقام

1- المرجع السابق، ص ٢٥٤.

احتفال سنوي باسم قتل المجوس، ولا يُسمح في أثنائه لأيّ مجوسي بالظهور، فيَقبعون جميعاً في بيوقم طوال اليوم، لا يَبرحونها"[1]

إن أحداث الانقلاب الميدي توصلنا إلى النتائج الآتية:

○ أولاً: كان من الطبيعي أن تنتهي محاولة الأخوين الميديين في استرداد السلطة من الفرس إلى الفشل؛ فهما لم يعتمدا على قاعدة جماهيرية ميدية، بل لا نجد فيما رواه هيرودوت وديورانت أن ثمة شخصيات ميدية أخرى شاركت پيرتـزيثيس وأخاه گوماتا في تدبير الانقلاب، هذا رغم أنه كان للمحوس (الميديين) حضور في العاصمة الملكية، والدليل على ذلك تعرّضهم لمجزرة عامة من قبل الفرس في اليوم نفسه الذي قُتل فيه الأخوان الميديان.

○ ثانياً: كان قادة الفرس مصرّين على تنفيذ وصية قمبيز، وعدم السماح للميديين بالعودة إلى السلطة ثانية، وأبدوا بسالة شديدة، وتضامناً وثيقاً، وروحاً فدائية، في تنفيذ خطة استرداد السلطة من الأخوين الميديين.

○ ثالثاً: ذكر ديورانت أن گوماتا (سميرديس)**"كان أحد رجال الدين المتعصبين من أتباع المذهب المجوسي القديم، وكان يعمل جاهداً للقضاء على الزردشتية دين الدولة الفارسية الرسمي، فشبّت في البلاد ثورة أخرى أطاحت بعرشه"**[2]. وهذا يعني أن الصراع الفارسي الميدي لم يكن سياسياً فقط، وإنما كان صراعاً أيديولوجياً أيضاً.

هل المجوس ميديون؟

سؤال يخطر للمرء إزاء رواية هيرودوت للانقلاب الميدي.

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد من استعراض سريع لعقيدة الشعوب الآريانية قبل الزردشتية، فقد كان الميد والفرس وسائر الشعوب الآرية الشرقية يدينون بالمَزْدية

1- المرجع السابق، ص ٢٥٥- ٢٥٦.

2- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠٦.

ورديفتها الميثرائية Mithraism ، نسبة إلى الإله الآري ميثرا (مثرا/ ميثرو/ متـرا) إلـه العقود والحق والنظام، وكان الآريون الشرقيون يرمزون إليه بالشمس، وكان الملـوك والعامة يركّبون أسماءهم منه، مثل مثراداتيس (ميثرا دات = هبة الإله ميثرا)[1]

ويمكن القول بشكل عام: إن المَزْدئية والميثرائية من أقدم العقائد الدينية الآريـة في العالم القديم، وكانت طبقة من الكهنة الرسميين الميد يتوارثون المناصب الدينية في تلك الديانة، ويشرفون على أداء الطقوس وممارسة الشعائر الدينية، وكان أبناء تلك الطبقـة ينتمون في الأصل إلى القبيلة الميدية ماجُوبي (ماغُوبي Magoi)، وهذه القبيلة واحـدة من القبائل الست الكبرى التي كان يتألف منها الشعب الميدي، وقد مرّ ذكرها سابقاً، ولا ننس أن اللاحقة (س) هي من خصائص الأسماء في اليونانية، ويُلحقها هـيرودوت بمعظم الأسماء غير اليونانية.

وهكذا تحوّل اسم (ماغوبي) Magoi الميدي إلى كلمة (ماغوس) Magos اليونانية، وقد أطلقها اليونان على الكهنة الزردشتيين في عهد الإسكندر، وكانوا يعنـون بهـا (العظيم، الهائل) نظراً لبراعة المجوس (ماغوبي) في الحكمة والإتيان بالأفعـال الخارقـة والسحر، ومن اسم (ماجوس) جاءت كلمة (مَجُوس) العربية، وكلمة Magic (سحْر) الإنكليزية[2] وكانت طبقة المجوس هذه تشبه طبقة الكهنوت العبراني التي كانت تنتمي إلى سبط اللاويين حصراً، وتشبه طبقة الكهنوت الوثني العربي المكي التي كانت تنتمي إلى بني عبد مَناف حصراً.

ومعروف أن زَرْدَشت (زَرْتُشْت= زَرْتَشت= زرادهشت= زاراتوشترا= زراوُستر) ولد قرب بحيرة أورميا في أترُوپاتين Atropautene[3]، وعاش بـين سـنتي (٦٦٠ —

1- جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٢٥ – ١٢٦.

2- المرجع السابق، هامش الصفحة ١٣١.

3- نسبة إلى أتروپات الميدي الذي حكم ميديا الصغرى (أذربيجان الغربية حالياً) في أواخر العهـد الأخميني وأوائل العهد المقدوني.

٥٨٣ ق.م)، أو بين (٦٣٠ – ٥٥٣)، أو (٦٢٨ – ٥٥١) قبل الميلاد، ولما بلغ الأربعين من العمر أعلن النبوّة، ودعا قومه الميد إلى اعتناق دينه (الزردشتية)، لكن الميد رفضوا دعوته وقاوموه، فهاجر إلى مقاطعة باكتريا (باختريا) في شرقي آريانا (تتوزع الآن بين جنوبي طاجيكستان، وشمالي أفغانستان) ، واعتنق هيستاسپ (هشت أسپ = فشتاسپ) Hyestaspes حاكم باكتريا الدين الجديد، وقد جاء في أكثر من مصدر أن هيستاسپ هو والد دارا[1]

وانتشرت الزردشتية بين شعوب آريانا، ولا سيما في مقاطعة فارس، وصارت تزاحم المزدية، لكن ظلت المزدية هي العقيدة الرسمية في مملكة ميديا، أما في العهد الأخميني فالصورة غير واضحة تماماً، فقد مر قبل قليل قول ول ديورانت أن سميرديس الميدي كان "**من أتباع المذهب المجوسي القديم[2]، وكان يعمل جاهداً للقضاء على الزردشتية دين الدولة الفارسية الرسمي**"، ويقول ديورانت في الموضوع ذاته:

"**ولعل دارا الأول حينما اعتنق الدين الجديد رأى فيه ديناً مُلهماً لشعبه، فشرع منذ تولّى المُلك يثير حرباً شعْواء على العبادات القديمة وعلى الكهنة المجوس، وجعل الزردشتية دين الدولة**"[3]

ويُفهَم من سياق الأحداث أن الزردشتية ما كانت قد أصبحت ديناً رسمياً للدولة الأخمينية في عهد قمبيز، والدليل أن قمبيز جعل الكاهن المجوسي **پيرْتزيثيس** أمين القصر الملكي؛ وكان على الدين المجوسي القديم (المزدية/الأزدائية)، وتفيد رواية لديورانت أن الزردشتية صارت ديناً رسمياً للدولة في عهد دارا الأول.

1- صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٢٩٤. حامد عبد القادر: زرادشت نبي قدامى الإيرانيين، ص ٢٩. دياكونوف: ميديا، ص ٣٤٠. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/٩١. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٢/٣٥٨. أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ٢٣٠.

2- الأرجح أنه يقصد العقيدة المزدية.

3- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/ ٤٢٦.

ومن الممكن أن الدين المجوسي القديم (المزدية/الأزدائية)- الدين السائد في عهد المملكة الميدية- كان ما زال محتفظاً بمواقعه على الصعيد الرسمي والشعبي في عهد كورش وقمبيز، لكنه كان يتعرض لمنافسة شديدة من الزردشتية، وحسم دارا الأول النتيجة لصالح الزردشية حينما قضى على الأخوين الميديين، وبما أن هوى الكهنة الموغ كانت مع المملكة الميدية، كان أقرب سبيل للقضاء على نفوذهم هو القضاء على العقيدة التي كانوا يمثّلونها، واتخاذ العقيدة المنافسة (الزردشتية) ديناً رسمياً.

وهكذا يبدو أن الصراع الميدي الفارسي لم يكن سياسياً فقط، وإنما كان أيديولوجياً أيضاً، وكان كل فريق يستظل بالأيديولوجيا التي تمنحه الشرعية السياسية، ودليل ذلك قول دارا الأول مفتخراً:

"إن المعابد التي هدّمها گوماتا أنا أصلحتها كما كانت، والتي أخذها گوماتا الموغ أرجعتها"[1]

ويوم خسرت الأيديولوجيا المزدية، وانتصرت الأيديولوجيا الزردشتية، خسر الميديون (أجداد الكرد) دورهم الثقافي والسياسي في غربي آسيا، وصار تاريخهم، بل ووجودهم، عرضة للتغييب والتشويه، وأحسب أن الكاهنَين الميديين پِرْتزيثيس وسَميرديس كانا يعدّان العدّة لاسترداد نفوذ المزدية، وكبح جماح الزردشتية، تمهيداً لاسترداد الحكم الميدي، باعتبار أن المزدية كانت أيديولوجيا الميديين.

ومن المهم التدقيق في طبيعة العلاقة بين المزدية والزردشتية، وقراءة الأحداث السياسية المواكبة لظهور الزردشتية وانتشارها في غربي آسيا؛ لأن ما هو ثقافي ليس منفصلاً عمّا هو سياسي، وإن كل قراءة لنشأة الأديان بعيداً عن الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العصور التي نشأت فيها تبقى قراءة غير متكاملة.

1- دياكونوف: ميديا، ص ٤٠١.

١٠

الثائر فراوُرْت الميدي

(قتل سنة ٥٢١ ق.م)

آباء وأبنـــاء

ثلاثة لا يصلحون لقيادة الأمم: المستبدّ، والأحمق، والغافل.

أما المستبد فلأن نظرته إلى الأمور ضيقة، وتعامله مع الوقائع والأحداث يكون من زاوية المصلحة الشخصية، وتكون منطلقاته في رسم السياسات أنانية، إضافة إلى أنه لا يثق بمن حوله من أصحاب العقول الراجحة والخبرة الغنية، ويستخفّ بالآراء الوجيهة، كما أنه يكبّل طاقات الآخرين وكفاءاتهم، ويعطّل قدراتهم الإبداعية، وهذا كله يؤدي بالمجتمع إلى الانقسام على نفسه: فريقٌ مخلص منتج يمثّل الأكثرية، لكن يكون ناقماً غاضباً، غير متاح له أن يشارك في البناء والتطوير. وفريقٌ انتهازي وصولي يمثّل الأقلية، دأبه الإفساد والتخريب. وهل يؤدي انقسام كهذا سوى إلى الفساد والتناحر والتصارع والضعف والخراب؟

وأما الأحمق فلأنه يكون معتدّاً بنفسه جداً، فلا يميّز بين ما يقدر عليه وما يعجز عنه، ويتصرف بطيش، فلا يزن الأمور بميزان الواقع، ولا بمنطق الربح والخسارة من المنظور التاريخي الشامل، وإنما ينطلق في أحكامه من تصوّرات شبه مثالية، ويتوهّم أنه يمتلك كفاءات خارقة، ويغلّب الهوى على الحكمة، فينفرد باتخاذ القرارات، ويتعجّل في الحكم على الأمور، وصحيح أنه يكون طيب القلب إلى درجة البراءة، وشجاعاً إلى درجة التهور، وكريماً إلى درجة التبذير، وفخوراً إلى درجة الغرور،

وأبيّاً إلى درجة الصَّلافة، وصاحب نخوة إلى درجة الإقدام على الهلاك، لكن ذلك لا يحول بينه وبين الوقوع في أخطاء مدمّرة، تجرّ عليه وعلى شعبه الويلات جيلاً بعد جيل.

وأما **الغافل** فلأنه ضيق الأفق، محدود الثقافة، غير فطِن بما فيه الكفاية، وغير قادر على استكشاف بواطن الأمور، وعاجز عن قراءة الأشخاص والأحداث- داخلياً وإقليمياً وعالمياً- قراءة واقعية دقيقة وعميقة، كما أنه سطحي في تفكيره، متهافتٌ في محاكماته العقلية، فقير في خبراته وتجاربه السياسية والإدارية، فلا يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ولا يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب، ويحسن الظن بكل صاحب ذي رأي، ويتّبع قول هذا الآن وقول ذاك بعد حين، بل قد يصنع الشيءَ وضدَّه، ويهدم غداً ما بناه اليوم، وتكون النتيجة أنه ينتهي بنفسه إلى الفشل، وينتهي بشعبه إلى الإحباط فالتفكك فالضعف فالهزائم.

وإذا كان الأمر هكذا فكيف تكون الحال إذا اجتمع الاستبداد والحمق والغفلة في شخص واحد، مثل الملك الميدي أستياگ، يقود إمبراطورية، في ظروف إقليمية معقدة، ووسط أعداء يتربّصون به وبدولته الدوائر؟!

بلى، هذا هو الانطباع الأولي الذي قد يتكوّن لدينا ونحن نستعرض سيرة أستياگ من خلال ما وصلنا من أخباره، بل لنقل: من خلال ما حُبِك وأُذيع من أخباره عمداً، وما أُريد منها أن يصل إلى الأجيال؛ أقول هذا وأنا أتذكر المثل القائل: "**إذا وقع البعير كثرت السكاكين**"؛ ويصحّ هذا المثل في أستياگ إلى حدّ كبير، فبعد أن خسر الرجل الحرب ضد كورش الأخميني، وخسر نتيجة لذلك المملكة والعرش والصولجان، صار هدفاً يُرمى على الأقل من جهات ثلاث:

○ **الجهة الأولى** تتمثّل في الحكّام الأخمين خاصة والحكّام الفرس عامة، إذ صوّروه للأجيال الغرب آسيوية على أنه كان طاغية، وأنه (أزْدَهاك) الذي كان يأمر كل يوم بقتل شابين، ليُسكت بمخيهما الآلام الناجمة عن الحيّتين النابتتين على كتفيه، وكان الهدف من ذلك تبرير إسقاطه، والاستئثار بالإمبراطورية.

○ **واجهة الثانية** تتمثّل في الزعماء الميد الذين نافسوه وحقدوا عليه، وجرّهم حقدهم ذاك إلى التعاون الوثيق مع كورش، والتآمر على الملك والمملكة ومصير الأجيال الميدية، وإن القائد العام للجيش الميدي هارپاگ أبرز مثال على ذلك، وأحسب أن هؤلاء ما كانوا يقلّون عن الفرس نشاطاً في تشويه سيرة الملك الميدي، وما كانوا أقلّ سروراً من الفرس بسقوطه.

○ **والجهة الثالثة** تتمثل في المؤرخين الذين قارنوه بأبيه كَيْخُسرو، وبجدّه خَشْتريت، وبجدّه الأكبر دياكو، فوجدوا الفرق شاسعاً؛ أولئك كانوا رجال العزم والحزم وميادين المعارك، رجالَ القيادة والسياسة بجدارة، رجالَ التأسيس والبناء، أما هو فكان رجل الدَّعة والترف، رجلَ القصور، رجلَ الغفلة والسياسات الحمقاء، فعدّوه تصريحاً وتلميحاً المسؤول الأول عن انتقال الإمبراطورية الميدية إلى القبضة الفارسية على طبق من ذهب.

وصحيح أن أستياگ لم يكن في مستوى أبيه وجدّيه فطنة وهمّة، لكن مع ذلك ليس من الموضوعية أن نحمّل الرجلَ وحده جميع ما نزل بالمملكة الميدية من سقوط وتفكك، وما حاق بالمجتمع الميدي من ضعف وتشرذم، وما حلّ بالمستقبل الميدي من نكد وظلمة وضياع؛ إذ لا ريب في أن زعماء ميد آخرين، مثل القائد العام للجيش هارپاگ، كانوا يماثلون أستياگ في رؤيته ونهجه وسلوكه، لكن أستياگ كان العنصر الأكثر تأثيراً في إيصال التفاعلات الداخلية والخارجية إلى ذلك المستوى المأساوي.

والخلاصة أن الآباء أكلوا الحصْرِم، وكان على الأبناء أن يَضْرَسوا، وكان سميرديس (گوماتا) وأخوه پيرتزيثيس من أوائل الأبناء الميديين الذي ضرسوا، وها نحن نتناول سيرة ميدي آخر أكل آباؤه الحصْرِم، وكان عليه أن يَضْرَس؛ إنه الثائر فراورت Phraortes الميدي. فماذا عنه وعن ثورته؟

مشروع إمبراطوري

سبق أن تناولنا مسألة ضرورة قراءة التاريخ بحذر، وعلى نحو واقعي شفّاف، ووفق آليات بحثية علمية، وبذهنية موضوعية متّزنة، وبضوابط حازمة، كما ذكرنا أهمية عدم

الوقوع في شَرك النوايا المبيَّتة، وعدم الانسياق مع تيّار التفسيرات الخرافية، أو الانجرار إلى التأويلات المغرضة، وخاصة إذا كان الطرف الآخر هو الذي دوّن ذلك التاريخ، أو روّج له، أو حرّفه وزوّره، وأجد في نفسي الشجاعة الكافية لأن أذكر ذلك مرة أخرى، من غير أن أتهم نفسي بالميل إلى الثرثرة، وفي هذا الإطار تحديداً أمنح الحق لنفسي بأن أعيد النظر في الروايات التي حيكت حول سقوط إمبراطورية ميديا على أيدي الفرس الأخمين، وبخاصة تلك الروايات الأسطورية التي نُسجت حول ظروف سقوط الملك الميدي أستياگ، وانتصار الزعيم الأخميني كورش.

والمسألة في اعتقادي، وحسبما يقبله منطق التاريخ، لا تعدو كونها مسألة صراع قومي بين شعبين جارين، ينتميان إلى أرومة عرقية واحدة هما (الفرس والميد):

- أما الشعب الفارسي فوجد نفسه يعاني من شظف العيش في جغرافيا فقيرة بالموارد الطبيعية، جغرافيا لا تمر فيها طرق التجارة العالمية، كما أنه وجد نفسه تحت سلطة حكومة جيرانه (الميد)، فتطلّع إلى الخلاص من (جغرافيا الشّبع) والسيطرة على (جغرافيا الوفرة)، وانتظر الفرصة المناسبة ليتحرر ويستقلّ بحكم نفسه، وكان بحاجة إلى زعيم فذّ يقوده نحو الاستقلال والثروة، زعيم يجمع بين الشجاعة والذكاء والدهاء والمرونة والحزم، ويمتلك القدرة على أن يلملم شتات أبناء شعبه، ويوحّد صفوفهم، ويوجّه جهودهم نحو الهدف المنشود، وكان ذلك الزعيم هو كورش الثاني بن قمبيز الأول.

- وأما الشعب الميدي فوجد نفسه ينعم بخيرات (جغرافيا الوفرة)، جغرافيا يمر فيها (طريق الحرير) للتجارة العالمية، واستطاع بفضل زعماء أفذاذ (دياكو، خَشْتريت، كَيْخسرو)، أن يتحوّل من قبائل متفرقة متنازعة، إلى صاحب دولة تقارع إمبراطورية آشور وتُسقطها، ويصبح نتيجة لذلك أبرز سادات غربي آسيا، ويتمتع بما يجبيه حكامه من أموال الضرائب والجزية، لكن هذا الشعب ابتلي بحاكم غير كفء، هو أستياگ، وبزعماء سيطرت عليهم الذهنية الأنانية، فتفرّق ما كان موحَّداً، وتهيّأ المناخ الاجتماعي والسياسي لنشوب المنازعات وتفاقم الانقسامات، داخل المجتمع الواحد.

وكان من الطبيعي أن يحقق الفرس أهدافهم في الاستقلال والثروة، لكن المشكلة أن كورش لم يكتف بتحرير شعبه، وإنما تحوّل من ثائر وطني إلى حاكم إمبراطوري، واستبدّت به شهوة الغزو، فاحتلّ مملكة بابل وتوابعها في سوريا الكبرى، وهذا ما لم يفعله الميديون، واحتلّ مملكة ليديا وبقية الدويلات في آسيا الصغرى، وهذا ما لم يفعله الميديون أيضاً، وفي الشرق غزا مملكة ماسّاجيتاي **Massagetae** (شرقي بحر قزوين)، فخسر الحرب هناك، ودفع حياته ثمناً لجشعه الغَزْوي، وذكر **هيرودوت** أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها أمرت **تومايريس** (ملكة شعب ماسّاجيتاي) بالبحث بين القتلى عن جثة كورش، فلما أتوا بها دفعت برأسه في قربة ملأتها بالدم، وصاحت بملء صوتها: **هيّا اجرع من الدم ما يروي ظمأك**[1]

ولم يكن قمبيز أقل جشعاً إلى الغزو من والده كورش، فقد احتل مصر، وطمح إلى احتلال إثيوبيا وشمالي إفريقيا، ثم جاء دور دارا الأول، فكان أكثر طموحاً، حتى إنه عبر مضيق البوسفور، وغزا بلاد السكيث في شمالي البحر الأسود، وتطلّع إلى غزو اليونان في عقر دارهم، واستكمل ابنه أحشويرش مشروع الغزو الإمبراطوري، فاحتل جيشه أثينا، وأحرق الأكروپول حيث المجمع الديني الإغريقي المقدس.

يقظة نُخَب ميديا

إن هذه النهم الأخميني الإمبراطوري يؤكد الورطة التي وجد فيها الميديون- وخاصة الزعماء- أنفسهم بعد أن تخلّوا عن ملكهم أستياگ، ووقفوا إلى جانب كورش، طمعاً في الخلاص من استبداد أستياگ وطيشه، وبما أن كورش قد تربّى في بلاط جده الميدي أستياگ، وتشرّب الثقافة الميدية، وعمل في المؤسسة العسكرية الميدية، وكان قائداً كبيراً فيها، فالأرجح أن الزعماء الميديين الكبار، من أمثال هارپاگ، كانوا على يقين من أنه سيُبقي على المملكة الميدية كما هي، ولن يزيح القادة الميد عن قمة هرم السلطة، ولن يجعل المملكة أخمينية فارسية شكلاً ومضموناً.

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ١٣٠.

وإن عدم ورود الحديث عن ثورات ميدية في عهد كورش دليل على أنه كان يحكم باعتباره ملكاً ميدياً وليس فارسياً، وهذا هو السبب في أن ملكة ماسّاجيتاي وغيرها كانوا يخاطبونه في مراسلاتهم بلقب "**ملك الميديين**"، وهذا هو السبب أيضاً في أن الجيش الميدي، والقواد الميدين مثل مازاريس وهارپاگ، كانوا يقاتلون تحت إمرته بإخلاص، ويساهمون بفاعلية في غزواته التوسعية.

لكن مع حكم قمبيز تغيّرت الأمور، وانقلبت الدولة فصارت فارسية قلباً وقالَباً، واستأثر الفرس بالمناصب العليا وبالثروة؛ الأمر الذي أيقظ القادة الميد من غفلتهم، وجعلهم يفتحون أعينهم على الحقيقة المُرّة، فحاول بعضهم، بقيادة الكاهنين سميرديس (گوماتا) وأخيه پيرتزيثيس، القيام بانقلاب مضاد، واستعادة النفوذ الميدي، لكن دارا ورفاقه نفّذوا (وصية قمبيز) بالتصدي للميديين، وعدم السماح لهم بالعودة إلى السلطة، فأحبطوا المحاولة الانقلابية، وفتكوا بمدبّري الانقلاب، لا بل ارتكبوا مجزرة عامة بحق الميديين، لقطع الطريق على كل محاولة لعودة مملكة ميديا إلى الظهور.

ويقتضي منطق الأحداث أن يكون دارا ورفاقه قد قاموا بعمليات تطهير واسعة في أرجاء ميديا، وقضوا خلالها على كل زعيم ميدي تحدّثه نفسه بالخروج عن طاعة السلطة الأخمينية، ويقتضي منطق الأحداث أيضاً أن يكون دارا قد أرسى سياسات إدارية وعسكرية واقتصادية وثقافية، أتاحت للفرس أن يُحكموا قبضتهم على جميع المراكز والمؤسسات والمواقع الهامة في الدولة والمجتمع، وأدّت تلك السياسات، بطبيعة الحال، إلى تهميش العنصر الميدي رويداً رويداً، وزحزحته إلى الدرك الأسفل على جميع الأصعدة، وأدّت في النهاية، وخلال قرنين تقريباً، إلى تغييبه وطمس وجوده ليس عن الساحة الإقليمية فقط، بل عن الساحة العالمية أيضاً.

والدليل على ذلك أن ذكر الميديين تضاءل في العهد البارثي حوالي (٢٤٩ ق.م- ٢٢٦ م)، وغاب في العهد الساساني (٢٢٦ – ٦٥١ م)، وأُخرج الشعب الميدي من دائرة التحضر، فاضطر إلى أن يعزل نفسه في الجبال، ويعيش كالسابق مجرد شعب رعوي بدائي، واجبه تزويد خزانات الإمبراطوريات المتعاقبة على حكمه بالضرائب،

ورفد جيوشها بالمقاتلين البواسل وبالجياد الأصيل، وأُلغي اسمه العالمي (ميد) الذي كان شائعاً، واختير له اسم جديد هو (كُرد)، لكن بدلالة رعوية توحي بالبدائية والتخلف، حتّى إن ملوك فارس كان أحدهم إذا أراد أن يحطّ من قدر الآخر أطلق عليه لقب (كردي) وخاطبه بقوله: "**أيها الكردي المربّى في خيام الأكراد**"؛ كما فعل الملك البَرْثي (الأشگاني) أَرْدوان في رسالته إلى أَرْدَشير بن بابك الساساني[1]

الانتفـاضة

ويبدو أن الجيل الثاني من القيادات الميدية، بعد جيل الكاهنين سميرديس (گوماتا) وأخيه، كان أكثر تضرراً من السياسات الفارسية، وأشد إحساساً بالقهر الفارسي، ومن هذا الجيل برز القائد الميدي **فراوُرت Phraortes** (فرؤرت/فراورتيس/فراورتيش)، ولا توجد معلومات كافية حول شخصية هذا الزعيم، سوى أنه ميدي من طبقة النبلاء، وأنه ينتمي إلى الأسرة الميدية المالكة (أسرة دَياكو)، وأنه كان يسمّي نفسه خَشْتريت (گشتريتي)، وهو الاسم الذي كان يسمّى به فراورت المؤسس الثاني للمملكة الميدية، ودعونا نلق نظرة على أوضاع بلاد ميديا وفارس وسائر أجزاء الإمبراطورية الفارسية؛ إبّان الانتفاضة التي قادها فراورت.

فصحيح أن دارا الأول أسّس قوة فارسية مناهضة للانقلاب الذي قاده المُوغ الميدي سميرديس (گُوماتا) وأخوه پِيرْتزيثيس، وصحيح أنه ورفاقه اقتحموا القصر الملكي، وقتلوا الأخوين الميديين، وقضوا على الانقلاب، لكن لم يكن الميديون وحدهم الذين يتململون من وطأة الحكم الفارسي، وإنما كانت الشعوب المحتلة الأخرى تتطلّع إلى التحرر والخلاص من ذلك الحكم، ولذلك اندلعت انتفاضات عامة مع نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر وبداية شهر كانون الأول/ديسمبر سنة (٥٢٢ ق.م).

1- الطبري: تاريخ الطبري، ٢/٣٩.

ففي الجنوب ثار شعب عِيلام بقيادة زعيم يدعى (أشِين). وفي الشمال بدأت الثورة في أرمينيا. وفي الغرب ثار الشعب البابلي بقيادة زعيم يدعى (تي دين توبل)، وهو ابن نابونيد آخر ملوك بابل قبل الاحتلال الفارسي سنة (٥٣٨ ق.م). وفي الشرق ثارت انتفاضة ضد السلطات الفارسية في (مرغيانا)، وهي جزء من بلاد باكتريا (باختريا) في شرقي بحر قزوين، بقيادة زعيم يدعى (فرادا)، كما أن مصر وأجزاء أخرى من الإمبراطورية رفعت راية الثورة في نهاية سنة (٥٢٢ ق.م)[1]

وقد تكون ذاكرة بعض الأفراد منقوبة، لكن ذاكرة الشعوب لا تكون منقوبة أبداً، وكان من الطبيعي ألا يمرّ بطش القادة الفرس بالكاهنين سميرديس وأخيه دون إحداث النقمة عند الشعب الميدي عامة، وعند القادة الميد، أو على الأقل عند بعضهم، فالرجلان كانا من طِبقة النبلاء، بل كانا كاهنين مرموقي المكانة في المؤسسة الدينية المزدية أو في سليلتها المؤسسة الزردشتية (الأمر غير واضح بدقة)، ولا ريب في أنه كان لهما أنصار، وإلا فكيف حكم سميرديس الإمبراطورية سبعة أشهر؟ والأرجح أن سميرديس استعان بالمتعاطفين معه من الميد، بل يقتضي منطق السياسة أن يكون قد عمل لتعيين الميديين في المناصب القيادية رويداً رويداً، تمهيداً لإزاحة العنصر الفارسي، وإحياء المملكة الميدية من جديد.

ولا شك في أن قادة الفرس كانوا يراقبون الموقف عن كثب، وأنهم أدركوا أن المملكة الميدية قادمة ثانية، وأنهم سيخسرون المكاسب التي حصلوا عليها في عهد كورش وقمبيز، وهذا الذي دفعهم إلى القيام بانقلاب مضاد، يقوده سبعة نبلاء فرس بقيادة دارا الأول، وعدم الاكتفاء بقتل الأخوين الكاهنين، وإنما الانتقام من الميديين على شكل إبادة جماعية، وما من شك في أن عمليات الانتقام الجماعي أثارت المزيد من الغضب في نفوس الميديين، وهيّأت المناخ النفسي المساعد على الانتفاضة، ويبدو أن بعض النبلاء الميد كانوا يشاركون الجماهير غضبتهم، باعتبار أنهم الأكثر وعياً، والأدرى بخفايا الأمور، والأكثر تعرضاً لحملات الانتقام الفارسية.

1- دياكونوف: ميديا، ص ٤٠٧- ٤٠٨.

وكان **فَراوُرْت** أحد النبلاء المنتسبين إلى السلالة الملكية، وكان من الطبيعي أن يلتفّ سائر النبلاء الميد حوله، فالذاكرة الميدية كانت ما تزال عامرة ببطولات وأمجاد الآباء العظام (دَياكو وخَشْتَريت وكَيْخُسْرو)، وكان الميد يتوسّمون الخير في تلك السلالة التي صنعت من القبائل الميدية إمبراطورية عظمى، وانتهز فراورت انشغال دارا بقمع ثورة شعب بابل في الغرب، فقاد انتفاضة كبرى ضده.

وقد ذكر دياكونوف أن **فراورت** لم يكن قد حشد جماهير ميديا وحدها وراءه، وإنما سانده المواطنون في بارثيا (شرقي بلاد فارس)، وفي هيركانيا (جنوبي بحر قزوين، وشمالي إيران حالياً) ، وفي أرمينيا[1]؛ وهذا دليل على أنه سلك نهج مؤسسي ميديا الأوائل في نسج علاقات الصداقة والتحالف مع الشعوب المجاورة المضطهَدة، والتحالف مع زعمائها للخلاص من السيطرة الفارسية.

وفي الوقت الذي قامت فيه ميديا بالانتفاضة اندلعت انتفاضة أخرى في الولايات الشرقية، وكان يقودها زعيم يسمّى **(وَهَيَزْدائه)**، ولا نجد في المصادر معلومات دقيقة عن هذا الزعيم؛ ترى أهو فارسي أم ميدي أم من إثنية أخرى؟ لكن دياكونوف أورد خبراً عن انتفاضتي (فراورت، وهيزدانه) يثير الانتباه، إنه قال:

"كان الهدف من الانتفاضتين هو إحياء قانون بَرْدِيا المزيّف (گُوماتا)؛ القانون الذي قضى عليه نظام داريوش الأول"[2]

والمقصود بـ (قانون گوماتا) هو القرار الذي أصدره سميرديس الميدي (گوماتا) حينما تولّى السلطة، وكان ذلك القرار يتضمّن أمرين هامّين على الصعيد الشعبي: **الأول** إعفاء جميع ولايات الإمبراطورية من الخدمة الإجبارية في الجيش مدة ثلاث سنوات. **والثاني** إعفاء جميع ولايات الإمبراطورية من ضريبة رؤوس المواشي المفروضة سابقاً[3]. والأرجح أن

1- دياكونوف: ميديا، ص ٤٠٨.

2- المرجع السابق، ص ٤٠٧.

3- المرجع السابق، ص ٤٠٠.

وهيزدانه كان من القبائل الميدية في الولايات الشرقية، أو أنه كان من القبائل الآريانية غير الفارسية، وإلا لو كان فارسياً لما وقف مع فراورت ضد السلطة الفارسية بقيادة دارا.

الســـقوط

وتفاقمت الانتفاضتان: انتفاضة فراورت في ميـــديا، وانتفاضـــة (وهيزدانـــه) في الولايات الشرقية، وتحوّلتا إلى ثورتين جماهيريتين عارمتين، وقد جاء في نقش بَهَستُون أن المواطنين الثوار في المجتمع التحقوا بفراورتيش (فراورت)[1] لكن الملك دارا لم يكن بالرجل السهل، إنه كان زعيماً يتصف بمزايا قيادية عالية، أبرزها البـــسالة والـــذكاء والدهاء والحزم، ولا ننس أنه هو الذي شكّل الفريق الفارسي المناهض للانقلاب الذي باشره سميرديس الميدي وأخوه، وهو الذي قاد النبلاء الفرس الستة الآخرين لاقتحـــام القصر الملكي، والفتك بالأخوين الميديين.

وقد تصرّف دارا بحنكة، فوجّه جيشاً إلى أرمينيا تحـــت لـــواء القائـــد الأرمـــني (دادرشيش)، ووجّه جيشاً ثانياً، بقيادة "**أقرب أصدقائه (ويدارنا)**"- حسبما يقـــول دياكونوف- إلى ميديا لمقاتلة فراورت، ولا ندري شيئاً عن هوية ويدرانا؛ هـــل هـــو فارسي أم ميدي؟ إذ كان في جيش دارا نفسه قوّاد ومقاتلون ميديون، ومهما يكن فإن اختيار دارا أقرب أصدقائه لقيادة الحرب ضد ثورة فراورت دليل على أن جبهة ميـــديا كانت الأكثر خطراً على السلطة الفارسية[2]

وتوجّه ويدرانا بجيشه إلى ميديا، واشتبك، بتاريخ ١٢ كانون الثاني/ينـــاير (٥٢١ ق.م)، مع جيش ميدي كان يقوده أحد قادة فراورت، ودارت المعركة في غربي ميديا، لكن ويدرانا لم يحقق النصر، وأدرك أنه عاجز عن القضاء على الثورة، فانتظر وصـــول تعزيزات عسكرية من دارا.

1- المرجع السابق، ص٤٠٧ – ٤٠٨.

2- المرجع السابق، ص ٤٠٩.

ومعروف في العلوم العسكرية أنه كلما تشتّت جيش العدو أصبح أكثر عرضة للهزيمة، ولم تكن هذه الحقيقة غائبة عن دارا، إذ تفصح سيرته العسكرية أنه كان قائداً حربياً إستراتيجياً، وقد لجأ إلى تكتيك (التشتيت) في حربه ضد فراورت، وكان قد عيّن والده هَشْتاسْپ (ويستاسپ) Hyestaspes حاكماً على بارثيا المتاخمة لميديا شرقاً، وكان من الطبيعي أن يفتح والده جبهة حربية هناك، وأن يشتبك مع القوات الميدية الثائرة، وكان ذلك في آذار/مارس (٥٢١ ق.م)، وعلّق دياكونوف على ذلك بقوله: "**كان على فراورتيش- مضطرّاً- أن يحارب في جبهتين حربيتين**"[1]

وفي شهر نيسان/أبريل (٥٢١ ق.م) انتهى دارا من حسم المعارك في بابل، والسيطرة على الموقف، فاتجه بجيشه إلى ميديا، وفي الوقت نفسه أرسل قسماً من جيشه الخاص المكوّن من الفرس والميديين لمحاربة وهيزدانه وقواته في باكتريا، وحوالي شهر شباط/فبراير (٥٢١ ق.م) أُلقي القبض على قائد جيش وهيزدانه، واستسلم وهيزدانه نفسه في شهر حزيران/يونيه، وصار بإمكان دارا توجيه القوة الضاربة في جيشه لمواجهة قوات فراورت في (كوندورو) Kunduru على الأراضي الميدية[2]

وهكذا أصبح فراورت بين فكّي كمّاشة؛ جيش دارا من الغرب، وجيش هيشتاسپ من الشرق، يقول دياكونوف:

"**أخفق فرورتيش في هذه المعارك، وتسلّل مع عدد قليل من فرسانه إلى منطقة رَغَه (رَيْ)، في الطرف الآخر من حدود بلاده ميديا، وكان يأمل في مساعدة هيركانيا وبارْت له كثيراً**"[3]

1- المرجع السابق نفسه.

2- المرجع السابق نفسه.

3- المرجع السابق، ص ٤١٠. تقع آثار مدينة (رَيْ) قرب طهران عاصمة إيران، ونُسب إليها كثير من المشاهير، منهم الطبيب الرازي، والفخر الرازي صاحب تفسير القرآن. وثمة تماثل بين (رَغَه) وكلمة (Raike) الكردية بمعنى (الطريق)؛ مع الأخذ في الحسبان أن مدينة (رَي) كانت ملتقى طرق القوافل في شمالي بلاد آريانا (ميديا القديمة).

وأطلّ شهر حزيران/يونيه من سنة (٥٢١ ق.م) ودارا ما يزال عاجزاً عن إخماد نار الثورة في ميديا؛ إذ في ذلك الوقت كان القائدان (وافوميسارا) و(دادرشيش) ما يزالان يحاربان في جبهة أرمينيا، للقضاء على الثورة هناك، ولقطع الإمدادات التي يمكن أن تصل إلى الميديين من أرمينيا، واضطرّ دارا إلى تجهيز جيش قوي آخر، وتوجيهه للزحف على ميديا، لمساندة قواته السابقة، وكان يعلم أن لجوء قادة الثورة الميدية بزعامة فَراوُرْت إلى بارثيا وهيركانيا، وبقائهم بسلام هناك، يعني أن الثورة ستظل مشتعلة، لذلك قرر القضاء على قادة الثورة، فكلّف مجموعة من القوات الخاصة لتعقّب فراورت ورفاقه. وذكر دياكونوف أن:

"مجموعة من المحاربين الذين أرسلهم داريوش إلى رَغَه استطاعوا إلقاء القبض على فرورتيش في نهاية شهر زوئين[1]، ثم بثّ داريوش الأول مجموعة إلى رَغه (رَيْ) لنجدة والده هستاسپ، وفي معركة (باتي كيان) في أرض البارت من يوم ١٢ زوئيه[2]، سنة ٥٢١ ق.م، قضت هذه المجموعة على الحلفاء والمساعدين لفرورتيش هناك"[3]

وكتب دياكونوف معلّقاً:

"إن فرورتيش صمد مدة طويلة، سبعة أشهر أكثر من غوماتا، وقاوم في محيط مملكته جيش درايوش، لكنه أخفق في الأخير"[4]

وبعد أن خسر فراورت الحرب كيف كانت نهايته؟ لندع دارا الأول نفسه يحدّثنا عند ذلك، من خلال سرد أمجاده التي أمر بنقشها على حجر بهستون، فقد جاء في ذلك النقش ما يلي:

"فرورتيش أَلقَوا القبض عليه، وجلبوه عندي، أنا قطعت أنفه وأذنيه ولسانه، وفقأت عينيه، وربطوه بالقيود في بلاطي؛ كي يراه جميع المواطنين الأحرار، عند

1- لعله حزيران أو شهر بعده.

2- لا ندري أي شهر هو تحديداً، لكنه يقع بلا شك بعد شهر حزيران.

3- دياكونوف: ميديا، ص ٤١٠.

4- المرجع السابق نفسه.

ذلك أمرت أن يرموه بالسهام في أگباتانا، والذين كانوا يؤيدونـــه مـــن البدايـــة أعدمتهم في أگباتانا داخل القلعة"[1]

إنه النهج الانتقامي الباطش ذاته الذي كان حكّام آشور ينهجونه، والغرض من هذا النهج الوحشي في معاقبة قادة الانتفاضات معروف؛ إنه إلغاء إرادة التحرر، وإرهاب كل من تحدّثه نفسه بالوقوف في وجه الاحتلال والقمع والعسف، وترويض الشعوب علـــى الخضوع التام، من خلال تجريدها من زعمائها الذي يتمثّلون روحهـــا، ويقودونهـــا في مسيرة التحرر، وبالرغم من ذلك لم يخضع بعض قادة ميـــديا، ولم يرهبـــهم الانتقـــام الوحشي الذي تعرض له فراورت، قال دياكونوف:

"مع هذا لم تنته ثورة ميديا عند هذا الحد، إن قبيلة الساگارتيين لم تسلّم نفسها بعدُ، ورجلٌ آخر من ضمن هذه القبيلة أعلن نفسه ملكاً، وقال إنه من نبلاء عائلة كياكسار، وكان اسمه چَيتْران تَخْمَه"[2]

وكي يخمد دارا هذه الثورة لجأ إلى أسلوب ضربها من الداخل، وهـــو أســـلوب أشارت إليه الحكمة الشعبية الكردية في المثل القائـــل: " **Kormî daré ne ji daré be dar nakeve**" (ما لم يكن دود الشجرة من الشجرة نفسها فالشجرة لا تنـــهار)، إن دارا لجأ إلى شراء ذمم عدد من النبلاء الميد، (هؤلاء كانوا موجودين مع كل ثـــورة في تاريخ الكرد)، ووعدهم ببعض الامتيازات والمكافآت إذا ساعدوه في القضاء على ثورة جيتران تخمه.

ومعروف أن اللعاب الأناني الانتهازي سرعان ما يسيل بغـــزارة أمـــام المناصـــب والأموال، وهكذا كان لعاب أولئك النبلاء الميد، فوعدوا دارا بالوقوف إلى جانبه ضد أبناء شعبهم، وليتهم اكتفوا بذلك، بل إن أحدهم، ويدعى (تخما سباداي) هو الـــذي قاد الجيش الفارسي إلى ميديا، وقضى على الثورة، أما چَيتْران تَخْمَه نفـــسه فـــأُلقي القبض عليه في إربيل، ووُضع تحت وابل من السهام، وقُتل عقاباً له على قيادته للثورة.

1- المرجع السابق نفسه.

2- المرجع السابق نفسه.

١١

هارپاگ الميدي والعبقرية العسكرية

(توفي بعد سنة ٥١٥ ق.م)

نصيحة كيميائي

أن تنفتح على العالم من غير أن تفقد مقوّمات شخصيتك وهويتك، وأن تتمسك بمقوّمات شخصيتك وهويتك من غير نرجسية فردية أو قومية؛ تلك هي المعادلة الدقيقة والصعبة والمهمة في مسيرة الأفراد والشعوب.

وتحقيق هذه المعادلة بحاجة إلى قدر كبير من الوعي بـ (الذات) والوعي بـ (الآخر)، وإلى القدرة على تحديد وتشخيص طبيعة العلاقة بين (الذات) و(الآخر)، كما أن الأمر، في هذا المجال، بحاجة إلى تطبيق الحكمة التي نصح بها كيميائي قديم أحد طلبته، قائلاً له:"**خذ كما ينبغي، وامزج كما ينبغي، تحصلْ على ما تريد**"

بلى، إن المسألة هي أن تكون قادراً على التصرف (كما ينبغي) في كل الأحوال، ويبدو لي، في حدود قراءاتي إلى الآن، أن كثيراً من رجالات الكرد طوال تاريخهم القديم والحديث، كانوا عاجزين عن التصرف وفق حكمة (كما ينبغي) هذه، بل يصحّ في كثيرين منهم قول الشاعر العربي القديم، واصفاً أحد أقاربه، قائلاً:

وفي الناس مَن يَغْشى الأباعدَ نَفعُهُ ويَشقى به حتى المماتِ أقاربُهْ

ولم أجد في تواريخ شعوب غربي آسيا شعباً خدم أبناؤه مصالح الشعوب الأخرى بإخلاص منقطع النظير كما فعل أبناء الشعب الكردي، ولم أجد أناساً ضرّوا شعوبهم، وهم يقدّمون تلك الخدمات، كما فعل بعض أبناء الكرد، وهذه ظاهرة جديرة بالدرس

والتحليل. ونتناول الآن أحد أولئك المشاهير الكرد الذين سيطرت عليهم الأنانية الشخصية، وقدّموا مصالحهم على مصلحة الجماعة، فعقّوا شعبهم، وقدّموا الخدمات الجليلة لمن تسلّطوا على رقاب أمتهم، إنه الزعيم الميدي هارپاگ.

فماذا عن تلك الخدمات؟ وفي أيّ مجال كانت؟ ولمن تبرّع بها؟

خريطة غربي آسيا سياسياً

هارپاگ Harpage الميدي ليس جديداً على قارئ هذا الكتاب، فقد مر في الحديث عن أستياگ الميدي أن هيرودوت أورد اسمه بصيغة (هارپاجوس) Harpagos، ورجّحنا حينذاك أن يكون اسمه في الأصل آر پاك Ar pak، وعلمنا أيضاً أن هارپاگ لم يكن مباركاً على شعبه الميدي، بل إنه انساق وراء أحقاده وأطماعه، فتآمر مع كورش الأخميني على الملك الميدي الأخير أستياگ، وجرّ إلى صف التآمر والخيانة بعض كبار قادة ميديا، وكانت النتيجة الطبيعية أن أستياگ خسر الحرب ضد حفيده وخصمه كورش، ووقع أسيراً في قبضته، ودخل كورش العاصمة الميدية أگباتانا دخول الفاتحين، وقضى على مملكة ميديا، وأسس على أنقاضها المملكة الأخمينية الفارسية، ولست مبالغاً إذا قلت: إن أجداد الكرد دفعوا طوال تاريخهم ثمناً مُرّاً نتيجة ذلك التآمر.

ولم يكن هارپاگ شخصية عادية، إنه كان قائداً ميدياً كبيراً، وكان يتصف بالذكاء والدهاء، وإلا فكيف دّبر مؤامرة معقدة، وأسقط إمبراطورية بكاملها؟ وكان من الطبيعي أن يكافئ كورش حليفَه الميدي هارپاگ على خدماته التي لا تُقدَّر بثمن، وأن يستمر في استثمار مواهبه القيادية وقدراته العسكرية إلى أقصى درجة ممكنة، وينعم عليه لقاء ذلك بالمناصب والأموال، ويوظّف جهوده وجهود سائر رجالات ميديا في ترسيخ سلطته، وتوسيع حدود إمبراطوريته، واحتلال أراضي الشعوب الأخرى، ونهب الثروات واستعباد السكان.

وقبل البحث في خدمات هارپاگ العسكرية لكورش دعونا نلق نظرة على الوضع الإقليمي العام في غربي آسيا إبّان سقوط مملكة ميديا ونشأة الدولة الفارسية؛ فقبيل

سقوط مملكة ميديا كانت ثمة أربع قوى إقليمية بارزة في غـــربي آســـيا وفي الزاويـــة الشمالية الشرقية من إفريقيا، هي:

١ــ **مملكة ميديا**: كانت تحكم من أفغانستان شرقاً إلى نهر هاليس (قزل إرمـــاق) في وسط الأناضول غرباً، مروراً بإيران الحالية وكردستان، وجزء من شمالي ســـوريا، ومن تخوم القوقاز شمالاً إلى سواحل الخليج الفارسي (العربي) جنوباً.

٢ ــ **مملكة بابل**: كانت تحكم المنطقة الممتدة من الخليج العربي شرقاً إلى الـــساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط غرباً، وتضم العراق (ما عدا المناطق الواقعة شـــرقي نهـــر دجلة)، وسوريا الكبرى (سوريا، الأردن، لبنان، فلسطين)، وراحت تهدد مصر نفسها.

٣ ــ **مملكة ليديا**: كانت تبسط نفوذها على غربي آســـيا الـــصغرى، وكانـــت حدودها تمتد من نهر هاليس (قزل إرماق) شرقاً إلى شواطئ بحر إيجه ومضيقَي الدَّرْدَنيل والبوسفور غرباً. والليديون شعب قديم في غربي آسيا الصغرى، وقد تعرّضت ليـــديا لغزو السِّمِّريين Cimmerians (الكِمِّريون) الآريين الرحّل في عصر الملـــك الليـــدي جيجيس، فردّهم جيجيس وابنه وحفيده بالجهد والمشقة.

وإلى إلياتِّس (إلياتيس) حفيد جيجيس يرجع الفضل في جعل ليديا قوة يعتدّ بهـــا إقليمياً، وقد ظل في الملك سبع سنين، واشتهر بأنه كان أغنى ملوك آسيا، وخلفه على السلطة ابنه كرُويسوس Croesus (قارون)، فازدادت ليديا ثـــراءً وقـــوة في عهـــده، وكانت ليديا تمتاز بموقع تجاري هام، وكانت صلة الوصل بين الغرب الأوربي والشرق بشكل عام، وقد اشتهرت بأنها أولى أقطار العالم في إنتاج النقود المسكوكة، وفي إعداد الخانات (الفنادق) للمسافرين والتجار[1]

٤ ــ **مملكة مصر**: موقعها في الزاوية الشمالية الشرقية من إفريقيا، وصحيح أن مصر إفريقية جغرافياً، لكن بحكم موقعها المتاخم لآسيا، كان حكامهـــا مهـــتمين بالعلاقات السياسية والعسكرية مع دول غربي آسيا في جميع العهود، وكانت مصر

1- هـــ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٢/٣٤٥- ٣٤٧.

تغزو مناطق غربي آسيا، وخاصة سوريا الكبرى، وأحياناً آسيا الصغرى، حينما كانت تقوى، كما كانت تتعرض للغزو من ملوك غربي آسيا عندما كانت تضعف، ومثال ذلك (احتلال مصر لسوريا الكبرى وآسيا الصغرى في عهد رَعْمَسيس الثاني، والغزو الآشوري لمصر، والغزو الفارسي لمصر)، وكانت مصر تعقد تحالفات سياسية مع هذه وتلك من الدول في معظم الأحيان، ومنها (التحالف المصري الميتّاني ضد الحثّيين).

تحالفات إقليمية

مر بنا في صفحات سابقة أن الملك الميدي كَيْخُسرو تحالف مع الملك الكلداني (البابلي) نابوپولاصَّر، وتوطّد الحلف بزواج نبوخذ نصّر (بختنصّر) بن نابوپولاصّر من أوميد ابنة الملك الميدي، وقضى الحليفان على عدوهما مملكة آشور سنة (٦١٢ ق.م)، وتقاسما أملاكها، فكان النصف الشمالي والشرقي للميديين، والنصف الجنوبي والغربي للبابليين. وكانت مملكة آشور نفسها قد تحالفت حينذاك مع العدو المشترك لكل من الميديين والبابليين؛ نقصد الغزاة السكيث Scythians.

والسكيث Scythians (إسكيذيون/أشقوذيون) شعب بدوي محارب شرس، شديد المراس، كثير العدد، كان يمتهن الغزو، وكانت مواطنه تقع في شمالي البحر الأسود (في أوكرانيا وأطرافها حالياً)، وتمتد بين نهر الدانوب غرباً ونهر الدُّون شرقاً، وقد خاض السكيث حرباً ضروساً ضد السِّيمِّريون Cimmerians، ولما خسر السيمّريون الحرب فرّوا إلى آسيا الصغرى، واستقروا حول ضفاف نهر هاليس (قِزِل إرماق) الواقع في وسط وشمالي تركيا حالياً، فطاردهم السكيث للقضاء عليهم.

ويبدو أن مكاسب الغزو طابت للسكيث، فبلادهم سهوب شديدة البرودة، قليلة الخيرات، بعيدة عن طرق المواصلات التجارية، وها قد وجدوا أنفسهم في بلاد أكثر دفئاً وأوفر ثراء، وتقع على حافات أهم طريقين تجاريين عالميين كانا يربطان أوربا بآسيا: طريق الحرير، وطريق البخور، فتوغّلوا بغزواتهم، وهاجموا أورارتو (سُمّيت

أرمينيا بعدئذ)، ثم انحدروا جنوباً، ووصلوا إلى شرقي ميديا (كردستان الشرقية بعدئذ) كردستان، ودخلوا في صراع مرير ضد الميديين.

وكان من الطبيعي، والحال هذه، أن يتحالف السكيث مع الآشوريين، حتى إن أميرات آشوريات، من بينهن ابنة الملك الآشوري **آشور بانيپال**، تزوّجن من بعض رؤساء السكيث، ومر سابقاً أن الميديين بقيادة كَيْخسرو هاجموا مملكة آشور، وحاصروا العاصمة نينوى، لكن السكيث استغلوا انشغال القائد الميدي بالحرب ضد آشور، فهاجموا ميديا من الخلف، ونشروا الدمار حيثما حلّوا، فاضطر الميديون إلى فكّ الحصار عن نينوى، والعودة سريعاً إلى ميديا، لرد الغزو السكيثي، وكان من مصلحة الآشوريين أن يثيروا الخلافات بين الشعوب الآرية المجاورة لهم، يقول هـ.ج. ولز:

"**فإن ملوك دولة آشور يُوقعون الشّحْناء، طرفاً من الزمان، بين مختلف هذه الشعوب ذوات القربى، ويُغْرون الكيمِّريين والميديين والفرس والإسكيذيين بعضهم ببعض**"[1]

وجملة القول أنه كان في غربي آسيا حينذاك قوتان متخاصمتان:

١- **إمبراطورية آشور المهيمنة**، ومعها مصر باعتبار أن الآشوريين كانوا قد غزوها سنة (٦٧٤ ق.م)، وأخضعوها لسلطانهم. ومعها أيضاً الغزاة السكيث، ومملكة ليديا، باعتبار أن الملك الليدي جيجيس مؤسس أسرة مرمناداي، كان قد تحالف مع الملك الآشوري آشور بانيپال[2]

٢ – **مملكة ميديا الناهضة**: ومعها عيلام وفارس باعتبارهما كانتا تابعتين لها، ومعها بابل باعتبارها حليفة لها، ومتضررة من التسلّط الآشوري مثل ميديا.

ولما انتصر الحلف الميدي الكلداني (البابلي) على إمبراطورية آشور سنة (٦١٢ ق.م)، وسقطت إمبراطورية آشور سقوطاً نهائياً، اختلّ التوازن الإقليمي في غربي آسيا،

1- المرجع السابق، ٣٥١/٢.

2- ول ديورانت: قصة الحضارة، ١٨٤/٢. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم،٨٥/١.

وضاق الخناق على الغزاة السكيث تحت وطأة المملكة الميدية الناشئة، وكانوا ينتهزون الفرص للانقلاب على الميديين ثانية، فهاجمهم كَيْخسرو، وأنزل بهم الهزيمة، ففروا غرباً، ولجأوا إلى مملكة ليديا المجاورة لمملكة ميديا.

وطلب كَيْخسرو من الملك الليدي إلياتِّس تسليمه السكيث الفارين، لكن الملك الليدي رفض ذلك، وكان موقفه ذلك طبيعياً؛ إذ كيف يسلّم حلفاءه لدولة قوية مسيطرة على (طريق الحرير) الذاهب إلى وسط آسيا، ويمكنها أن تهدد ليديا ليس في حدودها الشرقية فقط، وإنما في مشاريعها التجارية عبر آسيا وأوربا أيضاً؟

وعلمنا سابقاً أن الحرب اندلعت بين ميديا وليديا، واستمرت ست سنوات، ثم تدخّل الملك البابلي نابوبولاصّر، وأصلح ذات البين، وتعزّزت اتفاقية السلام بين ميديا وليديا بزواج **أستياگ** بن كَيْخسرو من **أريينس** ابنة الملك الليدي إلياتِّس، وبعد أن تحالفت الدول الكبرى الثلاث في غربي آسيا (بابل، ميديا، ليديا) ساد السلام في المنطقة، ونشطت الحركة التجارية بين الممالك الثلاث، ولا سيما أنها كانت تقع متجاورة في أكثر مناطق غربي آسيا أهمية من حيث حركة التجارة العالمية آنذاك، ونعمت شعوب تلك الممالك بالأمن والاستقرار، وشاع بينها الثراء[1]

عبقرية هارپاگ الحربية

لكن مع وقوع أستياگ، زوج أخت كرُويْسوس، أسيراً في يدي كورش الأخميني، وسقوط مملكة ميديا، وحلول المملكة الفارسية محلها، اختلّ التوازن الإقليمي في غربي آسيا، فدبّ الخوف في نفس كُرويسوس من القوة الفارسية الناهضة، وكانت ليديا قد وصلت إلى قمة مجدها في عهده، "**وأخذ يعمل بكل ما أوتيَ من وسيلة على تقويض قوة الفرس وهي ما تزال في طور النمو، وقبل أن تبلغ غاية العظمة**"[2]

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٦٣ – ٦٤.

2- هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٥٢/٢.

وتحالف كُرويسوس مع اللاكيدمونيين Lacedemonians الإغريق ومع المصريين، واجتاز نهر هاليس (قزل إرماق) الفاصل بين ميديا وليديا، وهاجم أراضي ميديا التابعة للإمبراطورية الفارسية، والتقى جيشا كورش وكرويسوس في منطقة تدعى (بتريا) أو (بتيريا)، قال هيرودوت:

"وكان القتال ضارياً، سالت الدماء غزيرة، وسقط من القتلى العدد الكبير، وما زالت رحى الحرب دائرة حتى حلّ الليل، وليس هناك منتصر"[1]

وأرجع كرويسوس فشله إلى قلّة عدد جنوده، وفي اليوم الثاني لم يعاود كورش الهجوم، فعاد كرويسوس ببقية جنوده إلى العاصمة سارديس في غربي البلاد، بغرض حشد الحلفاء، ولا سيما حلفاءه المصريين؛ بحسب اتفاقية كان قد عقدها مع الملك المصري **أمازيس**، كما اتصل بالبابليين وملكهم **نابونيد** (نبونئيد)، واتصل بالإسبارطيين في بلاد اليونان، وفي الوقت نفسه سرّح جيشه، وكان معظمه من المرتزقة، وكان قد قرر أن يحشد جيشه وقوات حلفائه في فصل الربيع، ويستأنف القتال ضد الفرس، **"دون أن يراود خياله أنه يمكن لكورش أن يغامر بالمسير إلى سارديس، بعد معركة استحال عليه النصر فيها"**[2]

أما كورش فإنه كان يتابع تحركات كرويسوس بدقة، وكان قد قرر القضاء على مملكة ليديا حليفة ميديا، والسيطرة على آسيا الصغرى، والوصول إلى سواحل بحر إيجه، وبذلك يكون قد سيطر على جميع الطرق التجارية في غربي آسيا، وصار بإمكانه التواصل المباشر مع القارة الأوربية، فلم ينتظر طويلاً، وأسرع إلى مهاجمة العاصمة سارْديس قبل أن يحشد كُرويسوس حلفاءه، ويستجمع قواه، قال هيرودوت:

1- تاريخ هيرودوت، ص ٦٥. وانظر: هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٥٢/٢، ٣٥٣، ٣٥٣. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٦/١.

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٦٦.

"ومضى مستعجلاً في سبيله، حتى كان أول المعلنين لملك ليديا عن حضوره"[1]

وفوجئ كرويسوس بالهجوم الفارسي، ومع ذلك استنفر قواته، وخاض القتال ضد كورش، وكان الليديون معروفين بالبسالة والبأس والاندفاع إلى القتال، والتقى الجيشان في سهل قرب سارديس، ولما رأى كورش الليديين ينظمون صفوفهم، لخوض المعركة في ذلك السهل، راعه مشهد فرسان ليديا، ولا ريب في أن المعركة السابقة بين الفريقين أكدت له أن الانتصار على هؤلاء الفرسان ليس بالأمر السهل.

والحقيقة أن أهمية سلاح الفرسان في الجيوش القديمة كانت تماثل أهمية سلاح الدبابات في العصر الحديث، وكان سلاح الفرسان هو الذي يرجّح كفّة هذا الطرف أو ذاك على أرض المعركة، وهو الذي يحقق النصر معظم الأحيان، وهل كان من الممكن للآشوريين، بعددهم القليل، أن يؤسسوا إمبراطورية ضخمة لولا ما كان يمتاز به سلاح الفرسان في جيشهم من قوة وسرعة في الحركة؟ وهل كان الملك الميدي كَيْخسرو يستطيع أن يلحق الهزيمة بالجيش الآشوري لولا أنه طوّر سلاح الفرسان الميدي، مستفيداً من خبرة الغزاة السكيث في هذا المجال؟

وأمعن كورش التفكير فيما ينبغي عليه عمله ليتغلّب على الخصم الليدي، ويُبطل فعّالية الفرسان الليديين في أرض المعركة، وكان من عادته أن يعقد اجتماعاً خاصاً لكبار قادة جيشه، ويستمع إلى آرائهم في الأمور الحربية الشائكة، وقد وجد الحل في الخطة الحربية التي اقترحها هارپاگ الميدي، إذ اقترح أن يعمد كورش إلى حشد ما في جيشه من الجمال التي كانت تحمل المؤن والعتاد، فيأمر بإراحتها، ثم يجعل على ظهورها جماعة من جنوده كالفرسان، ويدفع بهم إلى المقدمة في مواجهة الفرسان الليديين، ويضع المشاة من وراء راكبي الجمال، ويكون الفرسان على ظهور الخيل من وراء المشاة، قال هيرودوت:

1- المرجع السابق، ص ٦٧.

"**أما السبب في أن كورش جعل الجمال مقابل جياد الليديين فهو نفور الحصان من منظر الجمل ورائحته، فيتمكّن باستغلال هذا الروع أن يبعد الخيّالة عن المعركة، وتكون له الغلبة**"[1]

وحققت خطة هارپاگ أهدافها، فحينما بدأت المعركة أحجمت خيول الليديين عن التقدم وهي ترى منظر الجمال الغريب عليها، ونفرت من رائحتها غير المألوفة، فتعطّل سلاح الفرسان الليدي، وكان يشكّل القوة الضاربة في الجيش الليدي، وصار عاجزاً عن مواجهة الجيش الفارسي، فترجل الفرسان الليديون، وخاضوا القتال مع الفرس على الأرض.

وكان سلاح الفرسان الميدي ما يزال محتفظاً بكافة قدراته، فزجّ به كورش في الميدان، وكان من الطبيعي أن يخسر الليديون المعركة، إذ كيف يمكن لجيش من المشاة فقط أن يردّ هجوم الفرسان الكاسح؟ واستدار الجنود الليديون على أعقابهم هاربين من أرض المعركة، ومتحصّنين بأسوار العاصمة سارديس، وبعد حصار دام أربعة عشر يوماً سقطت سارديس في أيدي الفرس، ووقع كُرويسوس أسيراً بين يدي كورش، وكان ذلك سنة (٥٤٧ ق.م). وأصبح كورش سيد غربي آسيا بلا منازع[2]

معارك هارپاگ الأخرى

ويبدو من سير الأحداث أن كورش كان معجباً بعبقرية هارپاگ العسكرية، وكان شديد الثقة بإخلاصه له وللدولة الفارسية، والدليل على ذلك أنه أسند إليه، بعد فتح سارديس، مهمات حربية تماثل المهمات التي كان يقوم بها هو نفسه، فبعد أن فتح كورش العاصمة الليدية سارديس، قرر استئناف فتوحاته في الشرق الأدنى (غربي تركيا حالياً) والوصول إلى سواحل بحر إيجه جنوباً، وإلى سواحل البحر الأسود ومضيق

1- المرجع السابق نفسه.

2- المرجع السابق، ص ٦٨

البوسفور شمالاً، فأسند مهمة اجتياح الأجزاء الجنوبية من الشرق الأدنى إلى هارپاگ، وقام هو بإخضاع الأقاليم العليا (الشمالية)[1]

وقد قام هارپاگ بالمهام الموكولة أفضل قيام، وكانت أولى تلك المهام أنه حلّ محلّ قائد ميدي آخر توفّي هو (مازاريس الميدي)، في استكمال فتح جنوبي آسيا الصغرى، قال هيرودوت:

"وكان أول ما قام به بعد تولّي قيادة الجيش أن زحف إلى أيونيا، وشرع في الاستيلاء على مدنها، وسيلته في ذلك محاصرة المدافعين داخل الأسوار، ثم بناء تلال من التراب ليعتليها الجنود، وبذلك يتمكّنون من المدينة"[2]

ثم زحف هارپاگ بجيشه إلى مدينة فوكاي الإغريقية، وكانت أسوارها في الغاية من القوة والمنعة، قال هيرودوت:

"وبدأ هذا القائد في حصار المدينة، معلناً أنه يرضى من أهلها تهديمَ برج واحد وجزء من تحصيناتهم ليفكّ عنهم حصاره، فما كان منهم عندئذ- وهم على كراهيتهم أن يصبحوا أرقّاء- إلا أن طلبوا منه إمهالهم يوماً ليتدارسوا هذا العرض، شرط أن يسحب قواته مسافة مناسبة من مواقعها. فقبل هارپاجوس هذا الطلب، ولو أنه زاد بأنه يدرك حقيقة نواياهم كل الإدراك، ولما انسحبت القوات عمد الفوكيون إلى إنزال سفنهم إلى البحر، ودفعوا إليها بنسائهم وأطفالهم وكل ما يمكن حمله، ومن ثَمّ أقلعوا إلى خيوس، وهكذا كان دخول الفرس إلى المدينة واستيلاؤهم عليها وهي خاوية على عروشها"[3]

وبعد فتح مدينة فوكاي استمر هارپاگ في استكمال غزو بقية المدن الأيونية، وإخضاعها للسلطة الفارسية، فهاجم مدينة تِيُوس Teos (مدينة ساحلية على بحر إيجه)، وعمد إلى وسيلته الحربية المعروفة، هي بناء تلة من التراب إلى جوار أسوار

1- المرجع السابق، ص ١١٣ – ١١٤

2- المرجع السابق، ص ١٠٦

3- المرجع السابق، ص ١٠٧

المدينة، ثم احتلالها، وفر سكان تيوس مستخدمين السفن، وقد قاتل الأيونيون ببسالة وإقدام دفاعاً عن أوطانهم، لكنهم لم يستطيعوا الصمود طويلاً أمام قوات هارپاگ وتكتيكاته الحربية ومفاجآت خططه، وتم إخضاع أيونيا للفرس، وسيطر الذعر على سكان الجزر حين وجدوا المدن على البر تسقط تحت ضربات هارپاگ وجنوده، فاستسلموا جميعاً للسلطات الفارسية[1]

وبعد أن أخضع هارپاگ أيونيا قام بمهاجمة الكاريين (قوم هيرودوت) والكاونيين والليسيين في الجنوب، وكان جيشه يضم خليطاً من أهالي البلاد المفتوحة في غربي آسيا الصغرى، وأخضع الكاريين، ولم يستطع أحد من الإغريق الصمود في وجهه، ثم أخضع شعب (كندنيان) في المنطقة نفسها، وتوجّه بعدئذ بقواته إلى سهل (زانثوس)، وخاض معارك عديدة ضد الليسيين سكان ذلك السهل، قال هيرودوت:

"وكان جيشه يفوقهم عدداً، ومع ذلك فقد أبدوا من الشجاعة الشيء الكثير، ولكنهم بعد قتال طويل انتهوا بالهزيمة، فاضطرهم هارپاجوس للانسحاب والتحصن خلف أسوار مدينتهم، وهناك جمعوا النساء والأطفال والرقيق وما ملكوا، وحشروهم في القلعة، ثم أشعلوا فيها النيران، حتى أصبحت أثراً بعد عَين، ومضوا بعدئذ فأقسموا أغلظ الأيمان بأن يقاتلوا إلى أن يكون لهم النصر أو يقضوا، وخرجوا للقاء العدوّ، فكانت مقتلة عظيمة نزلت بهم، فأُفنوا عن بَكْرة أبيهم، ولم يبق منهم أحد"[2]

خدمات حتى النهاية

ويبدو أن فترة خدمات هارپاگ لإمبراطورية فارس كانت طويلة، ويبدو أيضاً أنه كان قد حاز على ثقة الحكام الأخمينين، إلى درجة أن موقعه القيادي لم يتزعزع في عهد قمبيز، ولم يتأثر بالحركة الانقلابية التي قام بها الكاهنان الميديان الأخوان پيرْتزيثيس (باتيزيثيس) وسَميرْديس (گُوماتا)، في أواخر عهد قَمْبِيز سنة (٥٢٢ ق.م)،

1- المرجع السابق، ص ١٠٩.

2- المرجع السابق، ص ١١٣

ولا شك في أن عدم تأثر موقع هارپاگ بالحركة الانتقامية ضد الميديين كان نتيجة إخلاصه الشديد لسادته الأخمين، ووقوفه ضد كل معارضة أو تمرد أو ثورة قام بها الميديون لتحرير أنفسهم واسترداد ملكهم، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى رجل كان أول من عمل بكل دهاء وإصرار لتهديم أركان مملكة ميديا.

وقد ظل هارپاگ يعمل ضمن الفريق القيادي العسكري الفارسي إلى أوائل عهد الملك الثالث دارا الأول (داريوس)، فبعد أن قضى دارا على الثورات التي اندلعت ضد الحكم الفارسي في أنحاء الإمبراطورية، ولا سيما في بابل، قرر غزو بلاد السكيث في شمالي البحر الأسود، **"فبعث رسله إلى جميع البلدان التابعة له، حاملين معهم الأوامر من الملك، يطلب من بعضهم تجهيز الجيوش بالجنود، ومن بعضهم تزويده بالسفن، ومن بعضهم الآخر تأمين العمال لبناء جسر فوق البوسفور"**[1]

ولا نجد ذكراً لهارپاگ في تلك الحملة، والأرجح أن دارا كان قد أوكل إليه مهمة الحفاظ على استقرار ليديا والمناطق المجاورة لها في آسيا الصغرى، باعتبارها كانت مناطق حيوية، وخروجها من قبضة الفرس يعني وقوع دارا وجيشه في الحصار بين جيش السكيث في الشمال والإغريق الثائرين في الجنوب، وقطع طريق العودة إلى بلاد فارس.

والأمر الذي حملنا على الأخذ بهذا الترجيح أننا نجد لهارپاگ ذكراً في أخبار حملة القمع التي قامت بها السلطات الفارسية لإخماد ثورات الإغريق في آسيا الصغرى، وكان يقودها زعيم إغريقي يدعى **هستيايوس** الملطي (الميليسي)، وكان سبق له أن قدّم للملك دارا خدمات جليلة خلال غزو بلاد السكيث، وخاصة أثناء تقهقر الجيش الفارسي، والتراجع إلى آسيا الصغرى بعد فشل الحملة، وقد اصطحبه دارا معه إلى العاصمة (سوسا) بما يشبه الإقامة الجبرية.

لكن هستيايوس لم يكن مرتاحاً للاستمرار في خدمة الإمبراطورية الفارسية، وكان يبحث عن طريقة للخلاص من قبضة دارا، فأرسل رسالة سرية إلى بعض قادة الإغريق

1- المرجع السابق، ص ٣٢٥.

يحثهم على الثورة، ثم أقنع دارا بأنه الوحيد القادر على إخماد تلك الثورة، فأرسله دارا للقيام بتلك المهمة، وما إن وصل هستيايوس إلى بلاد الإغريق حتى قاد الثـورة ضـد الفرس بنفسه.

ونجد أن هارپاگ يحتل موقعاً قيادياً عالياً حينذاك، إلى درجة أنـه كـان يماثـل أرتفرنيس حاكم ساردیس والأخ غير الشقيق لدارا، وكان هستيايوس قد حشد قواته في منطقة تسمى كيكوس الميسية (على بحر إيجَه)، يقول هيرودوت:

"لكن شاء القدر أن يتواجد القائد الفارسي هارپاجوس على رأس جيش كـبير في نفس المنطقة، فاشتبكت قواته بقوات الإغريق بقيادة هستيايوس، ونشب القتال بين الجيشين في مالينا من أعمال أتارنيوس، واستمر القتال بينهما متكافئـاً لفتـرة طويلة من الزمن، لغياب الفرسان الفرس عن ساحة المعركة، لكـن لمـا وصـلوا رجحت كفة الفرس، وتمّ لهم الانتصار على الإغريق، وقتلوا معظمهم وفرّ البقيـة. أما هستيايوس الذي لم يكن يتوقع أن يأمر داريوس بإعدامه فقـد حـاول للمـرة الأخيرة إنقاذ حياته، إذ بينما كان يحاول الهرب انقضّ عليه أحد الفرس، وهمّ برميه برمح، فصرخ بالفارسية: إنني هستيايوس الملطي"[1]

ووقع هستيايوس في الأسر، ورجّح هيرودوت أن دارا كان سيعفو عن هستيايوس، وأضاف قائلاً:

"لكن الواقع أن أرتفرنيس مرزبان[2] ساردیس وهارپاجوس القائد الذي اعتقله، كانا قد عقدا العزم على قتله، لمنعه من استعادة حظوته ونفوذه في قصر داريـوس، وما إن وصل إلى ساردیس حتى أُعدم بالخازوق، وقُطع رأسه، وحُنّط وأرسـل إلى داريوس في سوسا"[3]

1- المرجع السابق، ص ٤٣٩.

2- المرزبان مصطلح إداري آرياني قديم، يعني (حاكم الإقليم).

3- المرجع السابق، ص ٤٣٩.

إن الانتصارات التي حققها هارپاگ في جنوب غربي آسيا لا تدع مجالاً للشك في عبقريته العسكرية، وفي مهاراته القتالية، ولعل أبرز جانب في تلك العبقرية هو قدرته على اختراع الآلية التي يتمكن بها من إبطال مفعول القوة القتالية الأهم في جبهة الخصم، وتحويلها إلى ما يعادل الصفر في ميدان القتال، وهذا واضح في إبطال مفعول سلاح الفرسان الليدي، وفي بناء أكوام من التراب تماثل القلاع التي كان يحاصرها ارتفاعاً، فيُفقدها قدراً كبيراً من ميزة التحصن خلفها.

وبعد هذه الإنجازات الحربية الكبرى في أقصى جنوب غربي آسيا، انقطعت أخبار هارپاگ، ولم نجد له ذكراً في الأحداث التالية، وذكر دياكونوف أن هارپاگ بعد أن احتل أيونيا (غربي آسيا) لكورش لم يرغب في الرجوع إلى أرض ميديا، واستقر في آسيا الصغرى، بعد أن سيطر على أراض وأملاك كثيرة، ووُجدت في بعض الكتابات باللغة الليكية واليونانية اسم أحد أحفاده[1]

وإذا أخذنا بالحسبان أن دارا تولّى المُلك سنة (٥٢٢ ق.م)، وأمضى ثلاث أو أربع سنوات في القضاء على ثورة بابل، وفي غزو بلاد السكيث والعودة إلى سوسا، فالأرجح أن هارپاگ توفي بعد سنة (٥١٥ ق.م).

1- دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٧.

١٢

داتيس الميدي: قائد معركة ماراثون

(توفي بعد سنة ٤٩٠ ق.م)

سباق الماراثون! هل هناك من يهتم بالرياضة ولا يعرف هذا السباق؟ لكن لعل ما لا يعرفه بعض هواة الرياضة أن سباق الماراثون يعود إلى حوالي (٢٥٠٠) سنة قبل الآن، وتحديداً إلى سنة (٤٩٠ ق.م)، وأنه يرتبط بذكرى واحدة من أهم المعارك الحربية بين آسيا ممثَّلةً في الفرس، وأوربا ممثَّلةً في الإغريق، وأن المعركة جرت في سهل (ماراثون) على مسافة (٤٠) كم من أثينا، وأن قائد الجيش الفارسي في تلك المعركة كان واحداً من كبار العسكريين الميديين، واسمه (داتيس الميدي).

فماذا عن داتيس الميدي ومعركة ماراثون؟

بل قبل ذلك لماذا كانت معركة ماراثون؟

صناعة الإمبراطورية

لمعرفة أسباب معركة ماراثون، وأسباب أمثالها من المعارك الفاصلة في تاريخ البشرية عامة، وفي تاريخ آسيا وأوربا خاصة، لا بد من وقفة تمهيدية عند (الإمبراطورية)؛ تُرى كيف تنشأ؟

يبدو أن الإمبراطوريات تقوم على أربعة أركان:

١- **زعيم ذو طموح كوني**، وذو شخصية كاريزمية ميكياڤلية (براغماتية)، يتصف بالذكاء والدهاء والإقدام والعزم والحزم، ويقرأ الوضع الداخلي لشعبه، والمناخ الإقليمي والدولي، قراءة صائبة ودقيقة، ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ويتخذ القرار

المناسب في الوقت المناسب وبالكيفية المناسبة، وفي جميع الأحوال لا يعبأ بأعداد الجرحى والقتلى من فريقه أو من الفريق المعادي ما دام الهدف يتحقق.

٢- **شعب شديد المراس** يتشرّب رؤية الزعيم وعقيدته الغَزواتية، ويؤمن بأهدافه الفتوحاتية، ويتبنّى بحماس مشروعه التوسعي، ويسير وراءه سامعاً مطيعاً، باذلاً المال والنفس والولد دون تردد.

٣- **جيش مقاتل منضبط محترف متمرّس شرس،** مسلّح بكافة أنواع الأسلحة الفتاكة المتوافرة، وتقوم عقيدته الحربية على طاعة القائد طاعة عمياء، وعلى البطش وإراقة الدماء دون أدنى شعور بوخز الضمير.

٤- **موارد وثروات كافية،** تمد الزعيم بما يكفي من المال لتنفيذ مشروعه الإمبراطوري، وتجعله قادراً على أن يدفع للجنود رواتبهم، ويقتني الأسلحة الفتاكة.

على أن حضور الزعيم العبقري الكاريزمي وحده غير كاف لصناعة الإمبراطورية، ولا بد من توافر عامل آخر هو في الغاية من الأهمية؛ إنه عنصر (التحدي والاستجابة) كما قال المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي؛ وبمراجعة تاريخ الإمبراطوريات الكبرى في العالم قديمه وحديثه نجد عامل (التحدي والاستجابة) يحتل موقعاً متقدماً في ظروف نشأتها، وقد يتمثّل التحدي في فقر الجغرافيا بموارد العيش، وقد يكون قهراً ناجماً عن تسلّط قوة أخرى، وقد يكون الأمرين معاً.

وحبّذا أن يدقق القارئ النظر في الظروف المواكبة لنشأة الإمبراطوريات الكبيرة قديماً وحديثاً: الأكّادية، والبابلية، والآشورية، والميدية، والفارسية، والمكدونية، والرومانية، والعربية، والمغولية، والعثمانية، والروسية، والبريطانية، وأعتقد أنه سيجد عامل (التحدي والاستجابة) كان الأبرز والأكثر فاعلية في نشأة تلك الإمبراطوريات.

جغرافيا فارس

ولنعد إلى موضوعنا الأساسي، وهو متصل بظهور الإمبراطورية الأخمينية الفارسية، فإن كل من كتب عن الموطن الأول للشعب الفارسي في جنوبي بلاد فارس (جنوب

غربي إيران حالياً) ذكر أن قسماً كبيراً من موطن الفرس كان براري فقيرة بموارد العيش، وكان الشعب الفارسي يعيش حياة بدوية فيها قدر كبير من الشظف والتقشف، وهاكم ما قاله هيرودوت في هذا المجال، وهو يتناول خطة كُرويْسُوس ملك ليديا للهجوم على ممتلكات الإمبراطورية الأخمينية:

"لما قرر كُرُويسوس مهاجمة الفرس نصحه أحد رجالات ليديا الحكماء يدعى ساندانيس قائلاً: أراك أيها الملك تتهيّأ لشنّ الحرب على قوم سراويلهم من الجلد، بل كلّ ما يرتدون من الجلد، وهم لا يأكلون ما يطيب لهم، وإنما ما ينتزعونه من الأرض اليَباب، ولا يشربون النبيذ، وإنما شرابهم الماء، وليس لديهم تين أو أيّ شيء من أطايب الفاكهة، فماذا تُراك تنال منهم لو غزوتهم وانتصرت عليهم، وقد رأيتَ هذا من أمرهم، وعلمتَ من حالهم ما علمت؟ أمّا إذا كانت الغلبة لهم فكم من ثمين ستخسر! ولو ذاقوا ما لديك من أطايب الحياة فستجدهم يُحكمون قبضتهم علينا، ولن نملك فَكاكاً منها بعد ذلك، ولو سألتني الرأي لقلت لك: إني لَمُمتنٌّ للآلهة؛ لأنها لم تحرّض الفرس على غزو ليديا"[1]

ويؤكد هيرودوت شظف العيش الذي كان الفرس يعيشونه، في حين كان الميد ينعمون في بلادهم بوفرة الموارد ورخاء العيش، قائلاً:

"فالحق أن الفرس لم يعرفوا شيئاً من أسباب الرَّفاه، ولا تذوّقوا أطايب الحياة قبل انتصارهم على ميديا"[2]

ويقول هارفي بورتر في الأمر نفسه:

"وبلاد فارس حيث خرج المتسلّطون عليها ضيّقةٌ، لا تبلغ مساحتها سوى ١٠٠٠٠٠ ميل مربّع، وكان يحدّها شمالاً مادي، وشرقاً الصحراء السبخة، وجنوباً خليج العجم[3]، وغرباً ذلك الخليج وسوسيانا، وكان نحو نصف البلاد صحارى لا تصلح لشيء، والباقي تُرَب بين الجبال، عدا ريف البحر، فإنه كان ضيّقاً شديد

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٦٢.

2- المرجع السابق نفسه. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٥٣/٢.

3- الخليج الفارسي (العربي).

الحر، غير أن بعضه يصلح للحراثة. أما الأراضي الجبلية فمثل ما يقابلها من أراضي مادي كما ذكرنا، ففيها أودية تجري منها أنهر صغيرة، والأراضي المجاورة لها مخصبة، وفيها عدّة بحيرات صغيرة مالحة"[1]

إذاً إن فقر بلاد فارس بموارد العيش، ووقوع الفرس تحت سلطة أقربائهم الميديين، واعتياد الفرس على حياة الشظف والتقشف؛ كل ذلك كان من العوامل التي هيّأهم لأن يتحوّلوا من شعب مقهور خامل الذكر إلى شعب قاهر حكم غربي آسيا قديماً حوالي ألف سنة، وكان المطلوب هو ظهور الزعيم العبقري الكاريزمي، وكان كورش الثاني بن قمبيز الأول هو ذلك الزعيم.

تجّار.. وغزاة

صنّاع التاريخ البشري قديماً هم البدوي والمزارع والتاجر، وهنا أمران:

الأول: أن (البدوي)، من حيث الذهنية والسايكولوجيا، أقرب إلى (التاجر) منه إلى (المزارع)، وإنه لأمر شاقّ بالنسبة إلى البدوي أن يصبح مزارعاً قديراً أو صانعاً ماهراً، لكنه لا يجد الصعوبة ذاتها كي يكون تاجراً قديراً، أو ناشطاً في مؤسسة تجارية إقليمية الطابع أو عالمية الامتدادات.

والثاني: أن التوجّه الغزواتي ليس نتاج ثقافة الزراعة، إنه نتاج ثقافة البداوة ثقافة التجارة، بلى، فالمزارع لا يحتاج إلى الغزو، لأنه يملك ما يكفيه للعيش ولو في الحدود الدنيا، أما البدوي فهو بحاجة إلى الغزو لحاجته إلى ما يعينه على البقاء، والتاجر بحاجة إلى الغزو للسيطرة على الموارد والأسواق وطرق التجارة الإقليمية والعالمية. ولا أزعم أن هذه هي القاعدة الدائمة في نشأة الإمبراطوريات، لكني أجد في تاريخ الإمبراطوريات القديمة والحديثة ما يشجّعني على الاعتقاد بأنها القاعدة الغالبة.

وألمح في تاريخ الدولة الأخمينية شيئاً من صحة هذه القاعدة؛ فالفرس كانوا بداة، يقيمون في بلاد فقيرة بالموارد إذا قورنت ببلاد ميديا، وغير واقعة على خطوط الطرق

1- هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ١٥٢- ١٥٣.

التجارية، وبعد أن سيطروا على المملكة الميدية وممتلكاتها الشاسعة (من أفغانستان إلى البحر الأبيض المتوسط) أصبحوا في موقع إمبريالي (بالتعبير المعاصر)، وصاروا، بتأثير ذلك الموقع، من كبار القابضين على زمام التجارة الإقليمية والعالمية، وصار مطلوباً منهم أن يسيطروا على مداخل طريق التجارة العالمي (طريق الحرير) إلى آسيا الوسطى، فإلى شبه القارة الهندية، وإلى الشرق الأقصى.

لكن هل كان ذلك كافياً وَفق الحسابات الإمبراطورية؟

لا، فالإمبراطورية تبقى مهدّدة بالاختناق اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً، ما لم تسيطر على طرق التجارة سيطرة كاملة، وصحيح أن الفرس سيطروا على طرق التجارة المتجهة عبر غربي آسيا إلى الشرق الأقصى، لكنهم ما كانوا يسيطرون على شبكة المواصلات التجارية في سوريا وآسيا الصغرى، وما كانوا يسيطرون على الموانئ الهامة الواقعة على سواحل شرقي المتوسط؛ ولذلك شنّ كورش هجماته على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وبسط سلطته على الموانئ السورية، وأخضع الفينيقيين (روّاد البحر في غربي آسيا) لسلطانه، وكان من أبرز مكاسبه في هذا المجال أن الأسطول الفينيقي المتميّز صار رهن إشارته في نقل التجارة من ناحية، وفي شن الغزوات البحرية من ناحية أخرى.

ومرة أخرى لم يكن ذلك كافياً، فما زالت مملكة ليديا- وكانت أقرب إلى الإغريق إثنياً وثقافياً- تَحول بين دولة الفرس الناهضة وبين الموانئ المطلّة على بحر إيجه وعلى الهيلسپونت (الدَّرْدَنيل)، وما زال الإغريق يسيطرون على الجزر المنتشرة في بحر إيجه وفي شرقي البحر المتوسط، ومن غير السيطرة على تلك الموانئ والجزر لا يمكن أن يصبح (طريق الحرير) العابر إلى داخل القارة الأوربية في قبضة الإمبراطورية الفارسية.

المشروع التوسعي الفارسي

وجرى تنفيذ المشروع التوسعي الفارسي على ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى: دشّنها كورش الثاني بأن هاجم مملكة ليديا في آسيا الصغرى سنة (٥٤٧ ق.م)، ليس لأنها كانت حليفة الميديين (خصوم فارس) فقط، ولا لأن الملك الليدي كرويسوس كان قد هاجم الممتلكات الأخمينية شرقي نهر هاليس (قِزِل إرماق)

فقط، وإنما لأنه لا يمكن الوصول إلى موانئ بحر إيجه والهيلسبُونت من غير السيطرة على مملكة ليديا نفسها، ومن هناك يمكن الانتقال إلى غزو بلاد الإغريق، وإخضاعها للسيطرة الفارسية، والسيطرة من ثم على الموانئ الكثيرة المرتبطة بطرق التجارة داخل القارة الأوربية، والقبض على أوربا من خناقها، وإركاعها في النهاية؛ وتلك كانت خطة كورش الإستراتيجية فيما يبدو.

المرحلة الثانية: تولّى تنفيذها الملك الأخميني الثاني **قمبيز بن كورش**، وكان يعلم، كما كان يعلم كل فاتح في غربي آسيا، أنه لا تكفي السيطرة على طريق التجارة البري العالمي (طريق الحرير) المتجه من غربي أوربا إلى الصين، مروراً بغربي آسيا ووسطها، وإنما لا بد من السيطرة على طريق تجاري عالمي آخر مكمِّل لطريق الحرير هو (طريق البخور)، وكان يمتد من الموانئ السورية والمصرية على البحر المتوسط، ويتجه جنوباً عبر غربي شبه الجزيرة العربية، وبموازاة البحر الأحمر، وينتهي إلى الموانئ اليمنية على (بحر العرب)؛ ويصبح على اتصال مع موانئ شرقي إفريقيا وجنوبي الهند وجنوب شرقي آسيا.

وكان قمبيز يعلم أيضاً، كما كان يعلم كل فاتح في غربي آسيا، أن السيطرة على طريق البخور لا تتحقق إلا بالسيطرة على البحر الأحمر، باعتبار أن الجزء البحري من طريق البخور كان يمر بذلك البحر، وكان يعلم، كما علم قبله الآشوريون، وبعده المقدونيون والرومان والعرب والعثمانيون قديماً، والفرنسيون والإنكليز حديثاً، أن السيطرة على البحر الأحمر لا يمكن أن تتحقق من غير السيطرة على مصر.

ولذا هاجم قمبيز مصر واحتلها سنة (٥٢٥ ق.م)، وما اكتفى بذلك بل أرسل حملة ضخمة للسيطرة على بلاد النُّوبَة الواقعة في الجنوب (موزّعة الآن بين جنوبي مصر وشمالي السودان)؛ لبسط النفوذ الفارسي على القسم الجنوبي من البحر الأحمر، حيث مضيق (باب المَنْدب)، لكن حملته تاهت وسط الرمال، و لم تحقق الهدف[1]

وكانت إستراتيجية إمبراطورية الفرس تقتضي أن يتوسّع النفوذ الفارسي البحري، فيسيطر على السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط (في شمالي إفريقيا)، وكانت

1- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٢٩.

إمبراطورية الفرس بذلك تُحكم قبضتها على المراكز التجارية الواقعة في غربي آسيا وشمالي إفريقيا، تمهيداً لإخضاع العالم الإغريقي الذي كان يمثل القوة الناهضة في أوربا حينذاك؛ ولهذا الغرض قرر قمبيز إرسال حملة بحرية لمهاجمة قَرْطاجَنّه (قَرْطاجَـــه) والمـــستعمرات الفينيقية الأخرى في شمالي إفريقيا (سواحل تونس حالياً)؛ لأن وجود قوة بحرية منافـــسة أخرى، في البحر التوسط، يحدّ من نفوذ الإمبراطورية الفارسية، ويفسد عليها شهيتها في المزيد من التوسع، والمزيد من السيطرة على ثروات الشعوب.

ولغزو قرطاجنّة كان على قمبيز أن يستعين بالأسطول الفينيقي التـــابع للفـــرس، وبالبحارة الفينيقيين، قال هيرودوت:

"لكن الفينيقيين رفضوا المهمّة، بسبب الأواصر التي تجمعهم بالقرطـــاجنيين، ولأن شنّ الحرب ضد أبنائهم إثم وشرّ لا يمكن أن يقترفوه، ولما كانـــت بقيـــة القوات البحرية أضعف من أن تقوم بالحملة بدون الفينيقـــيين، فقـــد أفلتـــت قرطاجنّة من قبضة الفرس"[1]

المرحلة الثالثة: نفّذها الملك الإخميني الثالث دارا الأول (داريوس)، وجرى تنفيذها بعد السيطرة على مصر، وتمثّلت في الانتقال إلى مهاجمة الإغريق في عقر دارهم، بـــدءاً باحتلال الجزر الإغريقية في البحر الأبيض المتوسط، وانتهاء بمهاجمة أثينا وإسبارطا أكثر جمهوريات الإغريق تقدماً وقوة، وكانت عادة دارا أن يطلب من قادة الشعوب الـــتي يريد إخضاعها إرسال التراب والماء له، رمزاً للتبعية والخضوع، وهذا ما فعله بخصوص الإغريق، فبعث بالرسل إلى دول- المدن الإغريقية، يطالبها بإرسال التراب والماء، وفي الوقت نفسه أرسل أوامره إلى مدن الساحل السوري، وإلى بلـــدان آســـيا الخاضـــعة لسلطانه، لإمداده بالسفن الحربية والجياد.

وبينما كان يجري تأمين المعدّات والتجهيزات استعداداً للهجوم، حصل رسل دارا إلى بلاد الإغريق على التراب والماء من بعض المدن الإغريقية الواقعة في البر والبحـــر،

1- المرجع السابق، ص ٢٢٦.

غير أن قادة أثينا وإسبارطا رفضوا إرسال التراب والماء إلى الملك الفارسي، وما اكتفوا بذلك بل رمى أهل أثينا رسله في حفرة عميقة، ورماهم أهل إسبارطا في بئر، "**وقيل لهم إنهم سيجدون هناك التراب والماء لمليكهم**"[1]، كما أنهم قرروا عقاب الجهات الإغريقية الأخرى التي أعلنت التبعية للفرس، وكان بعض رجالات تلك الجهات موجودين في البلاط الفارسي بالعاصمة الملكية سوسا، فشجّعوا دارا على مهاجمة أثينا وإسبارطا، ولاقى ذلك صدًى طيباً في نفس دارا الأول، يقول هيرودوت:

"علاوة على ذلك فإن داريوس نفسه كان توّاقاً للحصول على مبرِّر؛ ليغزو المدن الإغريقية التي رفضت أن ترسل ما يدلّ على خضوعها له من تراب وماء، ونتيجة لإخفاق ماردونيوس[2] في حملته فقد أعفاه من مهامّه، وعيّن قائدين آخرين للجيوش التي اعتزم إرسالها للهجوم على إيرتريا[3] وأثينا، هما داتيس الميدي وابن أخيه[4] أرتفرنيس بن أرتفريس، وحمّلهما الأوامر بجعل سكان أثينا وإيرتريا عبيداً، وإحضارهم للمثول بين يديه"[5]

تفريغ الذاكرة

والحقيقة أننا لا نعرف شيئاً عن داتيس الميدي قبل معركة ماراثون، وسبق أن أشرنا إلى ظاهرة ندرة المعلومات التاريخية عن التاريخ الميدي خاصة، وعن التاريخ الكردي القديم عامة، هذا مع العلم أنه كان للميديين دور فاعل في غربي آسيا طوال قرن وربع قرن من الزمان، بل إنهم قادوا أكبر انقلاب في تاريخ شعوب هذه المنطقة سنة (٦١٢

1- المرجع السابق، ص ٥٣٦.

2- حفيد دارا من ابنته وقائد فارسي كبير.

3- Eretria مدينة تقع شمالي أثينا.

4- ابن أخي داريوس.

5- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٤٦٦.

ق.م))، بتحريرها من جبروت الإمبراطورية الآشورية، وكانوا حكّام منطقـــة شاســـعة جداً، تمتد من أفغانستان ضمناً إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

والسؤال هو: هل من المعقول أن مملكة مثل مملكة ميديا كانت قادرة علـــى إدارة أمور شعبها، وأمور الشعوب التابعة لها، شفهياً ومن غير مدوّنات ولا سجلات؟ وهل يُعقل أن تتوافر معلومات وافية عن السومريين، والأكّاديين، والبـــابليين بمـــا فـــيهم الكلدان، والآشوريين والآموريين، والآرامـــيين، والأخمـــين، والبـــارث (البـــارت)، والساسانيين، وتنخفض المعلومات، أو تكاد تنعدم أحياناً، بل هي تنعدم أحياناً كثيرة، حينما يتعلّق الأمر بالميديين وأسلاف الكرد الآخرين؛ مع أنهم جميعاً شـــعوب منطقـــة واحدة؟! أليس هذا أمراً غريباً حقاً؟!

وسبق أن أرجعنا هذه الظاهرة إلى التغييب المنهجي الذي خطّطت لـــه القيـــادات الأخمينية، ونفّذته بحزم وإصرار، ثم نهجت الإمبراطوريات الفارسية الأخرى نهجهـــا، خوفاً من (عودة الوعي) الميدي، ومعروف عبر التاريخ، قديماً وحديثاً، أن أول ما يهتم به صنّاع الإمبراطوريات هو (تفريغ ذاكرة) الشعوب المقهورة، وأن أقرب طريـــق إلى تفريغ ذاكرة شعب ما هو أمران: الأول تغييب تاريخه. والثاني تجريده من لغته.

ولنعد إلى داتيس الميدي كما يسمّيه هيرودوت، وبحذف اللاحقة اليونانية (س S) من اسمه، يبقى اسمه (دات) Dat، ولهذا الاسم صلة في الكردية بمعاني (الهبة، العطـــاء)، لكن من هو والد داتيس؟ ومن هو جده؟ لا شيء عن ذلك. ونحـــسب أن قيـــام دارا الأول بإسناد قيادة جيش ضخم، تتمثّل مهمته في مقارعة الإغريق المعروفين بصلابتهم وبأسهم وعشقهم للحرية، وتقع ساحة عملياته على مسافة بعيـــدة جـــداً في غـــربي الإمبراطورية الفارسية، إلى قائد ميدي، يعني أكثر من دلالة:

- أولها أن داتيس كان من كبار القادة العسكريين في الجيش الفارسي.
- وثانيها أنه كان يمتاز بخصائص قيادية وبخبرة عسكرية مرموقة.
- وثالثها أنه كان من الميديين الذين أثبتوا إخلاصهم للقيادة الأخمينية.
- ورابعها أنه لم يكن ممن شارك سميرديس (گوماتا) الميدي انقلابه على الأخمين.

الزحف نحو أثينا

غادر القائدان داتيس وأرتفرنيس بلاد فارس وميديا على رأس جيش وصفه هـــيرودوت بأنه "**جبّار حسن التجهيز**"، واتجها شمالاً وغرباً نحو سهل آليان في منطقة كيليكيا Cilicia[1]، وعسكرا بالجيش هناك، وانضمت إليهما قوات عسكرية بحرية كانت جميع سفنها ورجالهـــا من البلدان الخاضعة لفارس، وكذلك وصلت الجياد التي كان دارا قد أمر بمصادرتها من الدول التي فرض عليها الضرائب، وتم نقل تلك القوات جميعها إلى أيونيا بحراً (في أقصى غربي تركيا الآن)، وقد تألف الأسطول الفارسي من(٦٠٠) ستمئة سفينة ثلاثية المجاذيف.

ولم يسر الأسطول باتجاه مضيق هيلسپونت (دَرْدَنيل) فإلى تراقيا، كمـــا ســـيفعل بعدئذ الملك الأخميني الرابع أحشويرش بن دارا الأول، وهي طريق طويلة، وإنما انطلـــق الأسطول مباشرة من جزيرة (ساموس) Samus الواقعة على ساحل بحـــر إيجـــه (في الجانب التركي حالياً)، وأبحر مباشرة عبر البحر الإيكاري والجزر، متجهـــاً مباشـــرة نحـــو جزيرة ناكسوس Naxos التي كان الفرس قد عجزوا عن الاستيلاء عليهـــا في حملة سابقة، وحينما وصلت الحملة إلى ناكسوس " **لم يُبد أهلها أيّة مقاومة، بل هربوا إلى الهضاب، وقد تمكّن الفرس من الإمساك ببعضهم وجعلـــهم عبيـــداً، وقـــاموا بإحراق المدينة بأكملها، بما في ذلك المعابد، ثم أبحروا للهجوم على جزر أخرى**"[2]

وبينما كان الجيش الفارسي يحتل جزيرة ناكسوس كانت الجزر اليونانية الأخـــرى تستعدّ لمواجهة الخطر، وعرف سكان جزيرة ديلوس Delos الواقعة قرب ناكـــسوس شمالاً أنهم في مرمى الخطر، ففروا منتقلين إلى جزيرة تينوس Tenos الواقعة في الشمال أيضاً، وبينما كان الأسطول الفارسي يتقدّم أصدر داتيس الميدي أمراً إلى جميع السفن بألاّ ترسو في جزيرة ديلوس، بل تتجه إلى جزيرة رينايا المقابلة لها، وبعد أن تأكد مـــن مكان وجود ديليان (سكان ديلوس)، بعث إليهم رسالة يعبّر فيهـــا عـــن احترامـــه لمقدساتهم، يقول فيها حسبما ذكر هيرودوت:

1- أورد المعرب هذا الاسم في (تاريخ هيرودوت) بصيغة (قيلقيلية).

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٤٦٧.

"أيها السادة المبجّلون، لماذا تهربون؟ ما هذا الرأي الغريب الذي تحملون، والـــذي يدفعكم إلى التواري؟ من المؤكد أنني أمتلك من الحصافة– دونما حاجـة إلى أوامـر الملك– ما يكفي لأن أستثني الجزيرة التي ولد فيها أبولو وأرتميس[1]، وألاّ أقوم بأيّ عمل فيه ضرر لهما ولشعبهما، ولهـذا فإنني أرجوكم أن تعودوا إلى بيوتكم وجزيرتكم"[2]

ويقول هيرودوت أيضاً:

"وأتبع داتيس رسالته بإحراق ما زِنته ثلاثمئة مثقال من البخـور في المعبـد في ديلوس تقرّباً من الآلهة، ثم غادر الجزيرة، وأبحر على رأس قواته متوجّهاً إلى إيرتريا، حاملاً معه الأيونيين والأيوليين الذين كانوا خاضعين للفرس"[3]

وتابعت الحملة الفارسية بقيادة داتيس زحفها نحو شبه جزيرة أتيكا (جنوبي اليونان حيث تقع مدينة أثينا)، وكان الفرس يطلبون من الجزر التي يصلون إليها تقديم الرهائن، أو إمدادهم بالرجال لمحاربة الإغريق الآخرين، ولا سيما أهل أثينا، وكانوا يحاصـرون كل جزيرة ترفض طلبهم، ويتلفون محاصيلها الزراعية، ويجبرون السكان في النهاية على الخضوع لأوامرهم.

معركة ماراثون

تقدّم الفرس نحو أثينا، وهم يحتلون الجزر الهامة، واستولوا في طريقهم على مدينـة إيرتريا، واستعبدوا سكانها، وأخذوهم معهم تنفيذاً لأوامر دارا، قال هيرودوت:

"وبعد استيلائهم على إيرتريا، وقهرهم لأهاليها، واستعبادهم لهم، انتظر الفرس عدة أيام، ثم أبحروا إلى أتيكا مزهوّين بانتصارهم، وهم يعتقدون بأنهم سـيتمكنون من معاملة الأثينيين كما عاملوا الإيرتريين، ووقع الاختيار على سـهل مـاراثون؛

1- من كبار آلهة اليونان.

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٤٦٧.

3- المرجع السابق نفسه.

لكونه أقرب مكان من أتيكا إلى إيرتريا، علاوة على أنه لم يكن في أتيكا مكان يناسب تحركات الفرسان مثل ماراثون"[1]

ولما سمع الأثينيون خبر توجّه القوات الفارسية نحو مدينتهم حشدوا قواهم، وسارعوا إلى بناء تحصيناهم وخطوط الدفاع لمواجهة الفرس، ثم توجّهوا مع حلفائهم من الإغريق الآخرين إلى خوض المعركة ضد الفرس في سهل (ماراثون)، واشتبكوا معهم على طول خطوط القتال، يقول هيرودوت مشيداً بشجاعة الأثينيين، ومنوّهاً بهيبة الفرس في نفوسهم:

"كانوا أول الإغريق في تصويب الرماح وهم يركضون، وأول من تجرّأ من الإغريق على النظر إلى اللباس الفارسي، أو مواجهة الرجال الذين يرتدونه دون أن ينتابهم الذعر؛ إذ لم يتمكن أيّ إغريقي قبل هذا اليوم من سماع كلمة (فارسي) دون أن يصيبه الهلع"[2]

واستمر القتال بين الفريقين في سهل ماراثون ضارياً، إنها كانت معركة بين قارتي (آسيا وأوربا)، وفي البداية ألحق الجيش الفارسي الهزيمة بقلب الجيش الإغريقي، لكن ما لبث جناحا الجيش الإغريقي أن غيّرا مسار المعركة، فألحقا الهزيمة بجناحي الجيش الفارسي، ثم توحّدا في الهجوم على القلب، ولم يجد الفرس بداً من اللجوء إلى سفنهم للنجاة، وتوجّهوا بالأسطول إلى ميناء (فاليريوم) وهو المرفأ الرئيسي لأثينا، بقصد احتلال أثينا قبل وصول الجيش الإغريقي، لكن الإغريق وصلوا إلى أثينا قبل الفرس، واتخذوا مواقعهم لصد الهجوم الفارسي، وحينئذ لم ير الفرس بداً من العودة إلى آسيا خائبين، وقد حدثت المعركة سنة (٤٩٠ ق.م).

وفور اندحار الجيش الفارسي قام جندي أثيني اسمه **فيديبيدس** بالتوجّه جرياً إلى أثينا ليزفّ بشرى النصر إلى الشعب، والمسافة بين سهل ماراثون وأثينا (٤٠) أربعون

1- المرجع السابق، ص ٤٦٩.

2- المرجع السابق، ص ٤٧٥.

كيلومتراً، ووصل فيديبيديس مبشّراً بالنصر، لكنه سقط من الإعياء، وتوفّي نتيجة الجري المتواصل طوال تلك المسافة؛ وتخليداً لذكرى ذلك الجندي المخلص، وتخليداً لذكرى تلك المعركة الحاسمة، أدخل الإغريق سباق ماراثون ضمن الألعاب الأولمبية التي كانوا يقيمونها بانتظام، ويحتفلون بها على الصعيد الرسمي والشعبي أيّما احتفال، وعندما أحييت الألعاب الأولمبية في أثينا سنة (١٨٩٦م)، أُحيي معها سباق ماراثون أيضاً، وهو الآن طريق للجري يبدأ من جسر قرية ماراثون إلى أثينا.

احترام المقدسات

يبدو من سرد أحداث معركة ماراثون أن داتيس كان القائد الأعلى، ولا نجد للقائد الآخر أرتفرنيس ذكراً له فيها، وكانت حصيلة معركة ماراثون- حسبما ذكر هيرودوت- مقتل (٦٤٠٠) ستة آلاف وأربعمئة جندي من الجيش الفارسي، و(١٩٢) مئة واثنين وتسعين جندياً من الإغريق، ورغم الهزيمة التي حلّت بداتيس الميدي وجيشه في حربه ضد الأثينيين، نجده رجلاً بعيداً عن روح الانتقام والبطش، نزّاعاً إلى ما هو إنساني، محتفظاً بمبادئه في احترام مقدسات أعدائه.

ومن يدري؟! لعل داتيس كان يعرف في قرارة نفسه أنه يشارك في تعميم القهر الإمبراطوري الفارسي على الشعوب الأخرى، وإذا كان من واجبه العسكري أن يحارب بشجاعة، ويؤدّي المهام الموكولة إليه بإخلاص، فإن من واجبه الإنساني احترام خصوصيات الآخرين، وهذه سمة ظاهرة في سيرة معظم مشاهير أسلاف الكرد عبر التاريخ قديمه وحديثه، ويقول هيرودوت بشأن داتيس واحترامه لمقدسات الإغريق:

"في طريق عودته إلى آسيا على رأس جيشه توقّف داتيس في ميكونوس، وفيما هو نائم رأى حُلماً لم يتمّ التعرف على فحواه، فأصدر أوامره منذ الفجر الباكر بتفتيش جميع السفن، فعثر على تمثال أبوللو في إحدى السفن الفينيقية، وقد وُضعت فوقه القطع الذهبية لإخفائه، فاستعلم عن المكان الذي سُرق منه، والمعبد الذي كان

فيه، فأخذه وأبحر على متن سفينة إلى ديلوس، وأعاده إلى المعبد هناك، وبعد ذلك غادر داتيس ليعود إلى أسطوله"[1]

وقد غضب دارا أشد الغضب من نتائج معركة ماراثون، واشتدت نقمته على أثينا أكثر من السابق، وأصبح أكثر تصميماً على مهاجمة بلاد الإغريق، واستنفر جميع الولايات الخاضعة له، كي تمده بجيش أضخم من سابقه، وتوفير السفن للأسطول، وإعداد وسائط النقل والخيول، وإمداده بالحبوب، قال هيرودوت: **"وهكذا دارت أوامر الإرادة الملكية، وعلى وقعها أرعدت آسيا بما فيها"**[2] وظل الاستنفار قائماً ثلاث سنوات، لكن ما لبث دارا أن توفي سنة (٤٨٥ ق.م) قبل تنفيذ الهجوم الكبير.

وتولى **أَحْشَوِيرَش** الحكم بعد والده دارا، وقاد حملة ضخمة بنفسه لغزو بلاد اليونان، ولا نجد للقائد الميدي داتيس ذكراً في تلك الحملة، ولعله كان قد توفي، أو تقاعد عن العمل العسكري، لكننا نجد لولدين له موقعاً قيادياً في حملة أحشويرش، إذ يقول هيرودوت في وصف الجيش الفارسي الذي عبر مضيق الدَّرْدَنيل إلى أوربا: **"وكانت قيادة الفرسان معقودة لولدَي داتيس: أرماميثراس، وتيتايوس. أما القائد الثالث فرنوخس فقد أصابه حادث، فتُرك في سارديس"**[3] وذكر دياكونوف الابن الأول باسم (گرم متير)، والثاني باسم (تي تي)[4]

ومعروف أن سلاح الفرسان كان قوة ضاربة في الجيوش القديمة، وقد ضمّت حملة أحشويرش- حسب وصف هيرودوت- أضخم جيش توجّه من آسيا إلى أوربا في تاريخ الصراع بين القارتين، ولا ريب في أن إسناد قيادة الفرسان في ذلك الجيش إلى قائدين ميديين، هما ولدا داتيس، دليل أكيد على ثقة القيادة الأخمينية بكفاءهما من ناحية، وبقدرة الشعب الميدي على إنجاب العباقرة العسكريين حتى بعد زوال دولتهم.

1- المرجع السابق، ص ٤٧٦.

2- المرجع السابق، ص ٤٨٧.

3- المرجع السابق، ص ٥٢١.

4- دياكونوف: ميديا، ص ٤١٢.

١٣

أتروپات الميدي والإسكندر المكدوني

(توفي بعد سنة ٣٢٠ ق.م)

عوامل أربعـــة

صحيح أن بعض النبلاء الميد، بعد فترة الغفلة القصيرة، قاموا بثورات عديدة ضـــد الحكم الأخميني الفارسي، وصحيح أن الجماهير الميدية تفاعلت معهم، ولم تتـــردّد في تقديم الأموال والأنفس كما هي عادتها، لكن تلك الثورات كان مصيرها الإخفـــاق، لأنها افتقرت – فيما أرى- إلى أربعة عوامل جوهرية لا بد من توافرها معاً، أو مـــن توافر بعضها، لنجاح أيّ مشروع تحرّري كان، وفي أي زمن كان، وأحسب أن تلك العوامل- بحسب الأهمية- هي ما يلي:

○ **العامل الأول**: ظهور القائد الذي ينبت من صميم الشعب، وينذب نفسه لخدمة أمته بإخلاص وبحماس، فلا يكون مستبداً، ولا طائشاً، ولا غافلاً، ويمتلك مـــشروعاً تحريرياً شاملاً متكاملاً، ويمتاز بقدرات قيادية عالية تحمل الجماهير على الثقـــة بـــه، فيستثمر تلك الثقة لتوحيد الصفوف بحكمة، وتوظيف الجهود بكفاءة.

○ **والعامل الثاني**: إيمان العدد الأكبر من أصحاب النفوذ (نبلاء، رجـــال ديـــن، رؤساء قبائل، قادة الفكر، قادة التيارات الاجتماعيـــة والـــسياسية، إلخ) بالمـــشروع التحرري، والتخلّي عن المشاريع الشخصية والقَبَلية والطبقية والدينية والمذهبية، وعدم التناحر والتصارع فيما بينهم، والالتفاف حول المشروع التحـــرري، وتقريبـــه مـــن الجماهير التي تسير خلفهم، والعمل بإخلاص لتحقيقه، وعـــدم الوقـــوع في مـــصيدة سياسات الترغيب والترهيب التي تمارسها الجهات المتسلطة.

○ **والعامل الثالث**: ظهور التناقضات الداخلية- سواء أكانت طبقية أم سياسية أم عَقَدية- في كيان الجهة المتسلّطة، وانشغال زعمائها بالتصارع فيما بينهم للاستيلاء على السلطة، وانتقال الجهة المتسلّطة نتيجة لذلك من دور القوة إلى دور الضعف، ومن مرحلة الهجوم والانتشار الغَزواتي إلى مرحلة الدفاع والانكماش.

○ **والعامل الرابع**: ظهور قوة إقليمية أو عالمية معادية للجهة المتسلّطة، فتستنفد مواردها، وتُشغلها عن الالتفات إلى المشكلات الداخلية، وتُضعف آلتها القمعية الداخلية، بل قد تلجأ تلك القوة المعادية إلى مدّ يد المساعدة اللوجستية- عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وإعلامياً- للشعب المغلوب، ليس حباً في تحريره طبعاً، وإنما فقط نكاية في عدوّه.

ويبدو أن السلطات الفارسية كانت خبيرة بطرائق القمع والصهر الخفيّة، وأنها كانت قد نجحت في تفريغ ذاكرة الشعب الميدي من أمجاد الآباء والأجداد، وأفلحت في تجريده من الوعي العميق بالوحدة الوطنية والسياسية، وإخراجه من دائرة التطور الحضاري، وتحويله إلى قبائل رعوية جاهلة متصارعة فيما بينها، يهمّها في الدرجة الأولى أن تدافع عن (حِمى) القبيلة ومراعيها، وليس عن (الوطن)، وأن تدافع عن كرامة (القبيلة) وليس عن كرامة (الأمة).

والدليل على ذلك أننا لا نجد في التاريخ الميدي ثورات كبرى بعد ثورة **فَراوُرْت** وثورة **چَيتْران تَخْمَه** في عهد الملك الفارسي دارا الأول، ولو وُجدت ثورات فاعلة لما ظل الوطن الميدي في قبضة الحكم الفارسي من القرن السادس قبل الميلاد إلى منتصف القرن السابع الميلادي، ولا تذكر المصادر التاريخية شيئاً ذا أهمية عن ميديا، سوى معلومات موجزة عن مقاطعة ميدية سمّيت (ميديا الأتروپاتية)، وعن حاكمها الميدي (أَتروپات). فماذا عن ميديا الأتروپاتية؟ وماذا عن أَتروپات نفسه؟

شرق وغرب

منذ القرن (١٨ ق.م)- على أقل تقدير- ثمة ظاهرة غريبة في تاريخ (أوراسيا)؛ إنها ظاهرة حروب الكر والفر بين الدول والإمبراطوريات في قارتي آسيا وأوروبا،

وتفيد المصادر أن الحثّيين كانوا أول الشعوب الأوربية التي غزت آسيا الصغرى، وأقاموا فيها المملكة الحثّية القديمة حوالي سنة (١٧٥٠ ق.م)، واختفت مملكة الحثّيين حوالي سنة (١٢٠٠ ق.م) تحت ضغط الشعوب الإيجية (شعوب البحر)، قادمةً من جزر بحر إيجه وجنوبي بلاد الإغريق، وكانت حرب طرْوادة من أحداث ذلك الغزو[1] وفي ذلك التاريخ أيضاً جاء الفِريجيون مهاجرين من تراقيا، واحتلوا وسط الأناضول غربي نهر هاليس (قزل إرماق). وتلاهم بعدئذ السِّيمَّريون والسكيث، وأصبح الحضور السكيثي في شمالي ميديا قوياً حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد[2]

ثم جاء دور آسيا في الردّ، فكان الملك الفارسي دارا الأول (٥٢٢ – ٤٨٠ ق.م) أول من دشّن الهجوم على قارة أوربا، بحملته على بلاد السكيث الأصلية في شمالي البحر الأسود (أوكرانيا وأطرافها)، ثم طوّر ابنه أَحْشَويرَش وتيرة الهجوم، فغزا بلاد الإغريق براً وبحراً بقوات هائلة العدد، ودخل أثينا، وأحرق الأكروپول (مركز كبار آلهة الإغريق)، وقد تمت الإشارة إلى ذلك في صفحات سابقة.

وفي سنة (٣٣٤ ق.م) قام الإسكندر المكدوني بهجوم معاكس، وقاد حملة أوربية نحو الشرق، وحقق النصر على الملك الفارسي دارا الثالث في معركة جرانيكوس (٣٣٤ ق.م)، ثم في معركة إسوس (٣٣٣ ق.م)، وأخيراً كان النصر حاسماً في معركة گوگاميلا Gugamela قرب إربيل سنة (٣٣١ ق.م) في إقليم كردستان- العراق، **"ثم توجّه إلى پرسيپوليس حيث أمر – وقد بلغ انتشاؤه بالخمر في إحدى المآدب ذروته- بإحراق بيت ملك الملوك، ثم أعلن فيما بعد أن هذا هو انتقام بلاد الإغريق لإحراق إجزرسيس أثينا"**[3]

1- وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/٨٣، ٨٤.

2- هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٢/٣٤٦.

3- المرجع السابق، ٢/ ٤٣٦، ٤٣٧. وإجزرسيس هو الملك أحشويرش بن دارا الأول.

وتوالت سلسلة الكر والفر بين القارتين في القرون اللاحقة، تارة بين الفرس الساسانيين والرومان، وتارة بين الساسانيين والبيزنطيين. ثم بين العرب المسلمين والبيزنطيين، وكان من نتائج ذلك فتح إسبانيا، ووصول العرب إلى جنوبي فرنسا، ثم بدأت الحملات الفرنجية (الصليبية) على شرقي المتوسط بدءاً من سنة (١٠٩٥/١٠٩٦م).

ثم تسلّم الشرق زمام المبادرة، فسيطر الترك العثمانيون على قُسْطَنْطينية عاصمة إمبراطورية بيزنطا سنة (١٤٥٣م)، وكان الهجوم على أوربا الشرقية والغربية والوصول إلى أبواب (ڤيَنّا) عاصمة النمسا سنة (١٦٨٣م). ثم جاء الهجوم الأوربي في العصر الحديث على آسيا، وما زالت الكفّة راجحة للقارة الأوربية إلى يومنا هذا.

وقد تعددّت التفسيرات حول العوامل الكامنة وراء ظاهرة الصراع بين أوربا وآسيا، وأحسب أن السيطرة على (المكان الأفضل)، متمثّلاً في (جغرافيا الوفرة) وطرق التجارة العالمية، هي العامل الأكثر فاعلية، بل لعلها كانت العامل الأهمّ، أما العوامل الأخرى — سواء أكانت سياسة أم دينية- فلم تكن في الحقيقة إلا ذرائع شكلية، غرضها تحفيز الجماهير في كل طرف للاصطفاف خلف قياداتها، وبذل الأموال والأرواح بسخاء.

وكانت الجغرافيا المستهدفة طوال ثلاثة آلاف عام هي المنطقة الواقعة بين جبال زاغروس شرقاً، وجنوبي أوربا غرباً، بما فيه البحر الأبيض المتوسط، وبطبيعة الحال كان الوطن الميدي (كردستان حالياً)- وما يزال وسيظل- في صميم تلك الجغرافيا. وإضافة إلى الثروات الاقتصادية (معادن منتجات زراعية وصناعية)، والثروات البشرية (عبيد، أسرى، مرتزقة)، كان الوصول إلى الأسواق التجارية في العمق الآسيوي والعمق الأوربي هو الهدف الأكبر.

الإسكندر في ميديا

ولنعد إلى الشأن الميدي، فقد أفلحت السياسات الفارسية — تنفيذاً لوصية قمبيز- في تقطيع أوصال الوطن الميدي، وكان التقطيع شاملاً، فلم تنجُ منه لا الجغرافيا الميدية ولا

الهوية الوطنية، وكانت النتيجة، مع منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، أن التكوين السياسي والإداري لميديا تقزّم واختُزل في (ميديا الصغرى فقط) باعتبارها واحدة من مقاطعات الإمبراطورية الفارسية، ويسمّيها دياكونوف (ميديا الغربية)، وتسمّى الآن (أذربيجان الغربية) داخل إيران، وكانت السلطات الفارسية تعيّن عليها حاكماً ميدياً لتنفيذ سياساتها.

وصحيح أن الصراعات الداخلية كانت تنخر كيان المملكة الأخمينية، لكن سياسات تقطيع أوصال الجغرافيا الميدية، وتفريغ ذاكرة الميدي من تاريخه وثقافته، وتجريده من الشعور بالانتماء إلى (وطن/أمّة)، أوصلت المجتمع الميدي إلى حالة من الضعف والتمزق الشديد، إلى درجة أننا لا نجد في تاريخ ميديا الكبرى حينذاك نشوب ثورة عارمة ضد السيطرة الفارسية، منتهزةً ضعف السلطة الإمبراطورية.

ومع إطلالة الصراع الفارسي الإغريقي، في الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد، كان يحكم ميديا الصغرى **"رجل تاريخي"** حسب وصف دياكونوف، اسمه **أتروپات**، وهو من أصل ميدي، ولم أجد في المصادر شيئاً عن ماضي أتروپات، وذكر دياكونوف أن اسم أتروپات زردشتي بصيغة Atarapata، وكان هذا الاسم موجوداً في عائلة هَشْتاسْپ (وَشتاسْپ) الذي أيّد زردشت في دعوته الدينية[1]

ويبدو أن هذا الحاكم الميدي كان على علاقة وثيقة بالملك دارا الثالث، والدليل على ذلك أن جيشاً ميدياً كبيراً كان مساهماً في معركة (إسوس) (٣٣٣ ق.م) إلى جانب الفرس[2]، بل يبدو أن ميديا الصغرى كانت تتمتع بقوة قتالية لا بأس بها، حتى إن الملك الفارسي، بعد هزيمته أمام الإسكندر في معركة إسوس، كان ينتظر أن يساعده أتروپات بقوات ميديا في ردّ الهجوم الإغريقي، قال دياكونوف:

"جمع داريوش الثالث جيشاً جرّاراً، وكان يأمل في مساعدة أتروپات له، لمنع جيش إسكندر من التحرك شرقاً أكثر في المناطق الشرقية من دولته"[3]

1- دياكونوف: ميديا، هوامش الفصل السابع، رقم ٩٧.

2- المرجع السابق، هوامش الفصل السابع، رقم ١٠٢.

3- المرجع السابق، ص ٤١٥.

لكن الإسكندر لم يترك للملك الفارسي دارا الثالث فرصة لالتقاط أنفاسه، واستمر في مطاردته عبر نهري الفرات ودجلة، ولم ير دارا بدّاً من المواجهة، فعبّأ جيشاً ضخماً، لملاقاة الإسكندر في گوگاميلا Gugamela كما مرّ، وفي تلك المعركة كان الميديون قد سيقوا، بقيادة أتروپات، للدفاع عن الإمبراطورية، كما جرت العادة في جميع الحروب الفارسية، قال دياكونوف في هذا الصدد:

"في تلك المعركة كان أتروپات قائد القوات الميدية، وكان الكادوسيون والألبانيون والسكسنيون (سكان سكسن) الشبه مستقلة[1]، يحاربون بجانب الميديين. وقبل هذا كان أتروپات على رأس فرسان الاستطلاع الذين بعثهم داريوش الثالث لجمع المعلومات"[2]

وقد انهزم جيش دارا الثالث في النهاية، وتوجّه الإسكندر جنوباً، فاحتل بابل وعيلام وفارس، ومن هناك هاجم بلاد الميديين، بما فيها ميديا الصغرى، فاحتلّها، ويُفهم مما رواه دياكونوف أن الإسكندر أخرج زعيماً يسمّى أُوكسودات Oksudat من السجن- كان دارا قد سجنه- وعيّنه حاكماً على بلاد ميديا الكبرى (الجزء الأوسط والجنوبي من كردستان الشرقية، وكردستان الجنوبية، والقسم الشرقي من كردستان الشمالية). أما ميديا الصغرى (أذربيجان الغربية) فولّى عليها حاكماً مكدونياً يسمّى (پارمينون)، وكان پارمينون يعدّ الرجل الثاني بعد الإسكندر في الجيش الإغريقي، **"وكان واجب هذا هو الحفاظ على الأمن في الجبهة الخلفية"**[3]

1- الكادوسيون سكان جنوبي بحر قزوين. والألبانيون من سكّان أذربيجان الشرقية (جمهورية أذربيجان حالياً). والسكسنيون من شعوب القوقاز الشمالية، ويذكرهم دياكونوف بصيغة (ساكسيَ) أيضاً، ولعله تصحيف في الترجمة، وكان أتروپات قد بنى تحالفات وثيقة مع قادة هذه الشعوب، فكانوا أقرب إلى الميديين منهم إلى الفرس. دياكونوف: ميديا، ص ٤١٩.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٤١٥.

3- المرجع السابق، ص ٤١٥، ٤١٦.

واكتشف الإسكندر بعد حين أن فيلوت بن پارمينون كان من المشاركين في تدبير مؤامرة لاغتياله، فأمر بقتله وقتل أبيه پارمينون، **"وأوكل واجب مسؤولية بلاد ميديا إلى ثلاثة من قادة جيشه، وهم كلثاندر، ومينيدو، وسيتاليك"**[1]

سياسات واقعية

يبدو أن أتروپات غيّر إستراتيجيته السياسية بعد هزيمة الجيش الفارسي في معركة گوگاميلا، ولعله أدرك أنه لا مصلحة له في الحرب الدائرة بين الفرس والإغريق، وكل ما هنالك أن الوطن الميدي سينتقل من قبضة المحتلّ الفارسي إلى قبضة المحتل الإغريقي، ولعله أدرك أيضاً أن الملك الفارسي لن يستطيع ردّ الهجوم الإغريقي، ولا نستبعد أن يكون قد رأى أن الاحتلال الإغريقي أخفّ وطأة على الشعوب من الاحتلال الفارسي، فقرر البقاء على الحياد بين الفريقين المتصارعين، إنه لم ينضمّ إلى الإسكندر، ولم يساند دارا، **"والدليل على هذا القول أن مدينة أگباتانا لم تدافع عن نفسها، والكادوسيون الذين كانوا حلفاء أتروپات لم يمدّوا يد المساعدة إلى داريوش الثالث"**[2] وكان دارا قد هرب إلى أگباتانا، لتحشيد جيش جديد، لكن الشعوب خرجت من طاعته، ففرّ من أگباتانا، واتجه شرقاً، وقُتل في الطريق بأيدي بعض كبار قادة الفرس سنة (٣٣٠ ق.م)[3]

ولم يفلح أُوكسودات في إدارة البلاد، فعزله الإسكندر، ونصب أتروپات حاكماً على ميديا سنة (٣٢٨ ق.م)، وبرهن أتروپات أنه كان أكثر نجاحاً من أُوكسودات في إدارة البلاد، ومع ذلك لم يكن أتروپات رجلاً بلا طموح وطني، لكنه كان سياسياً واقعياً؛ ويعرف أنه غير قادر على مواجهة جيش إغريقي عجزت جيوش الإمبراطورية الفارسية عن التغلب عليه، ويقول دياكونوف:

1- المرجع السابق، ص ٤١٦.

2- المرجع السابق نفسه

3- المرجع السابق، ص ٤١٥ – ٤١٦.

"في الواقع يظهر أن أتروپات لم يرغب أن يكون في صراع مع إسكندر من البداية، وحتى إن أراد ذلك فإنه لم يكن بإمكانه ذلك، ولكي يحقق طموحاته لم تكن لديه لا القوة ولا القدرة كي يُظهر رغبته في ذلك الوقت"[1]

ويقول دياكونوف: **"لم يتوقّف أتروپات عن طموحاته"**[2]، ولا يذكر دياكونوف طبيعة تلك الطموحات، لكننا نخلص من جملة الأحداث الدائرة حينذاك في غربي آسيا عامة، وفي أرض ميديا وفارس خاصة، أن أتروپات كان يطمح إلى بسط سيطرته على الوطن الميدي كله، وإزاحة النفوذ الفارسي جانباً، فوثّق صداقته مع الإسكندر، وخاض الصراع ضد رجل اسمه (بارباكس) كان قد اتخذ لنفسه لقب (ملك فارس وميديا)، وأدخل بارباكس تحت سيطرته سنة (٣٢٤ ق.م)[3]

وبعد عودة الإسكندر من حملاته على شرقي فارس وعلى الهند انشغل بمعاقبة الحكام والقادة الذين تمردوا عليه، فقتل القادة الإغريق الثلاثة الذين كان قد أوكل إليهم السلطة في بلاد ميديا، وهم كلثاندر، ومينيدو، وسيتاليك مع جماعة أخرى. أما أتروپات فكان الإسكندر راضياً عنه، وأبقاه عنده بعض الوقت. وإن سياسات أتروپات الحكيمة، وصداقته مع الإسكندر جعلته **"يتنقّل بحرية تامة، ويلاقي الاحترام والطاعة في كل مكان يحلّ فيه"**[4]

وكان أتروپات سياسياً بعيد النظر في اختياراته، فزوّج ابنته من وجيه مكدوني بارز وشجاع وثريّ يسمى بيوني (پرديكا Perdika)، ومن المحتمل أنه كان من قادة الإسكندر المرموقين، قال دياكونوف:

1- المرجع السابق، ص ٤١٦.

2- المرجع السابق نفسه.

3- المرجع السابق نفسه.

4- المرجع السابق، ص ٤١٦ – ٤١٧.

"**فيما بعد سار إسكندر إلى ميديا، وزار سهول نيستا المشهورة، والتي كانت مرعى لخمسين ألف حصان لجيش الملك... في ذلك العهد كانت انتصارات إسكندر السياسية والحربية المختلفة تعتبر أعياداً، وتقام لها الحفلات، وكان أتروپات يساهم في بعض الحفلات**"[1]

وبعد وفاة الإسكندر سنة (٣٢٣ ق.م) لم يكن أتروپات من المشاركين في المجلس التحضيري للقادة المنعقد في بابل، باعتبار أن ذلك المجلس كان وَقفاً على القادة اليونان الكبار فقط، واتخذ المجلس قراراً بإسناد بلاد ميديا للمكدوني پرديكا صهر أتروپات، ويستفاد من دياكونوف أن أتروپات صار يقوم مقام نائب پرديكا في الدولة الجديدة، ويستفاد مما ذكره دياكونوف أيضاً أن المجلس كلّف پرديكا بأن يكون مسؤولاً عن المستعمرات اليونانية في شرقي إيران وآسيا الوسطى، ونتيجة لذلك صارت ميديا الغنية بمواردها، والقوية بجيشها، مهمة جداً، ويضيف دياكونوف:

"**وفي الواقع أن صداقة الميديين مع المقدونيين كانت مهمّة وذات قيمة؛ لأنهم [المقدنيون] لو تخلّوا عن أرض ميديا لكانت علاقتهم انقطعت مع الولايات الشرقية**"[2]

وظل أتروپات مقرَّباً من المكدونيين، وفي سنة (٣٢٣ ق.م) كان هو واكسيارت (نسيب الإسكندر) الحاكمَين الوحيدين اللذين بقيا في منصبيهما من بين سائر الحكّام، ما عدا المكدونيين واليونانيين طبعاً، ويبدو أن أتروپات كان حاكماً على ميديا الصغرى فقط، في حين كانت سلطة صهره پرديكا المكدوني تشمل ميديا الكبرى. وإن واقعية أتروپات السياسية جعلته ينأى بنفسه عن الصراعات التي دارت بين القادة المكدونيين واليونانيين، كما أنه لم يشترك في النزاعات التي دارت بين القادة الإغريق حول ميراث الإسكندر، "**وحافظ على استقلاليته التامة**"[3]

1- المرجع السابق، ص ٤١٧. ذكر هيرودوت اسم سهل (نيستا) بصيغة (نيسيا). تاريخ هيرودوت، ص ٢٨٦.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٤٢٠.

3- دياكونوف: ميديا، ص ٤٢١، ٤٢٢.

أتروپاتيا مستقلة

بعد وفاة پرديكا اجتمع قادة الإسكندر سنة (٣٢١ ق.م)، وقسّموا الولايات والبلدان من جديد، فلم تكن ميديا الصغرى (ولاية أتروپات) ضمن ذلك التقسيم، واستطاع أتروپات ببراعته السياسية الاحتفاظ بميديا الصغرى مستقلة عن اليونانيين والمكدونيين والفرس، حتى إن دياكونوف يتساءل:

"كيف استطاع أتروپات، في بداية تلك الأيام المملوءة بالصراعات، وبين تلك المعارك التي كانت تدور رحاها بين ورثة وخلفاء إسكندر، أن يؤسس دولة ميدية مستقلة"[1]

ويجيب دياكونوف قائلاً:

"دون شك كان أتروپات رجلاً شجاعاً وعاقلاً، ولو لم تكن الأيام والظروف الداخلية بين الأقوام الميدية مؤاتية، ولو لم يكن جيشه قديراً، لما استطاع في ذلك الوقت أن يؤسس دولة جديدة مستقلة، ويحافظ عليها مهما كان عاقلاً ومدبّراً"[2]

وأشار دياكونوف إلى ثلاثة عوامل مهمة، ساعدت على احتفاظ أتروپات باستقلالية ميديا الصغرى، بعكس ما جرت عليه الأمور في ميديا الكبرى (كردستان الجنوبية وكردستان الشرقية، والأجزاء الجنوبية من كردستان الشمالية):

- **العامل الأول**: أن ميديا الصغرى لم تكن واقعة في منقطة تقاطع الطرق التجارية، ولم تكن سبيلاً للجيوش الغازية بين المناطق المهمة في غربي آسيا وآسيا الوسطى. أما ميديا الكبرى فكان يمر فيها طريق الحرير الرئيسي، مما جعلها محطّ أطماع جميع مراكز القوى المتصارعة على ميراث الإسكندر.

- **والعامل الثاني**: أن ميديا الصغرى كانت تتمتّع باكتفاء اقتصادي وصناعي، بمقاييس تلك الأيام، جعلها في غنًى عن استيراد المواد الخام للصناعات الحرفية، وجعلها من ثَمّ في غنًى عن الدخول في صراعات أو في تحالفات إقليمية غير مأمونة الجانب.

1- المرجع السابق، ص ٤٢٢.

2- المرجع السابق نفسه.

o **والعامل الثالث**: أن أتروپات وظّف حنكته القيادية في السيطرة على القبائل الرعوية في ميديا الصغرى، وصارت تلك القبائل قوة مهمّة في دولته؛ إذ كانت الروح القتالية عند هذه القبائل عالية، وتقوم على المشاركة الطوعية في الحروب، ولم يكن أفرادها من المجنّدين قسراً أو من المقاتلين المرتزقة كما كانت عليه الحال في جيوش الإمبراطورية الفارسية، أو لدى المستوطنين العسكريين المكدونيين[1]

وكانت أمجاد مملكة ميديا الغابرة ما تزال حية في ذاكرة أتروپات، وكان حريصاً على أن يوصل الحاضر بالماضي، فأحيا النهج الحضاري والسياسي الذي أرسى دعائمه زعماء ميديا الأوائل، قال دياكونوف:

"إن المملكة الجديدة التي كانت تسمّى رسمياً بدولة ميديا، يسميها المواطنون (ميديا الأتروپاتية)، أو يسمونها (أتروپاتيا)، إن الدولة الجديدة حافظت على النهج السياسي والحضارة الميدية لعهد أيام دَيُوك الماضية"[2]

ولم نجد معلومات موثّقة بشأن تاريخ وفاة أتروپات، ويستفاد من سير الأحداث أنه توفي بعد سنة (٣٢٠ ق.م).

مصير الوطن الميدي

صحيح أن ميديا لم تبق في العصور اللاحقة كياناً سياسياً مستقلاً، لكن ظل حضور الشعب الميدي قائماً على أرضه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكانوا يرفضون الانصياع للسلطات المجاورة، وتمثّل ذلك الحضور في (الكاردوخيين)، وقد ورد ذكرهم في كتاب أناباسيس Anabasis (الصعود)، للمؤرخ والفيلسوف والقائد اليوناني كزنفون (زينفون)، فقد نشب صراع بين الملك أرتكزرسيس الثاني (أَرْتَحْشَشْتا/أَرْدَشِير الثاني) وشقيقه قورش عام (٤٠١ ق.م)، واستعان قورش بجيش

1- المرجع السابق، ص ٤٢٣.

2- المرجع السابق، ص ٤٢٣- ٤٢٤.

من المرتزقة اليونان، ودارت المعركة بين الفريقين في كونكاس ببابل، ولقـي قـورش مصرعه على يدي شقيقه الملك، وتراجع المرتزقة اليونان العشرة آلاف الباقون بقيـادة اكزنوفون (اكسانوفون) الذي عاش بين (٤٣٠ – ٣٥٥ ق.م)[1]

لقد توجّه المرتزقة اليونان شمالاً في رحلة طويلة وشاقة، متتبِّعين مجرى نهر الفـرات نحو منبعه، وعبر جبال كردستان وأرمينيا إلى البحر الأسود، وذكر اكزنفون شراسـة الكاردوخ في التصدّي للمرتزقة اليونان في منطقة هَكاري، وذكر باسيلي نيكيـتين أن الكاردوخيين الذين تكلم عنهم كزنفون، "**لم يكونـوا غـير الأسـلاف الحقيقـيين للكرد**"[2] وأضاف نيكيتين قائلاً:

"**ونعود ثانية إلى الكاردوخيين الذين يبدو أن صلاتهم بالكرد لا يمكن إنكارهـا كلياً، كما بينا آنفا، فنشير إلى أن الكاردوخيين، حسب ما ذهب إليه زينفـون، لم يكونوا يعترفون بسلطة الملك أرتاكسبركيس ولا بسلطة الأرمن**"[3]

ومنذ العهد الأخميني وإلى يومنا هذا، لم تستطع الـدول والإمبراطوريـات الـتي حكمت الوطن الميدي، وكذلك التي تصارعت في غربي آسيا، أن تُـسقط الجغرافيـا الميدية (كردستان حالياً)، ولا الشعب الميدي (الكرد حالياً) من حساباتها الإستراتيجية. لقد حتمت الضرورة الجيوسياسية على السلوقيين (ورثة الإسكندر) أن يسيطروا على ميديا من حوالي سنة (٣١١ ق.م) إلى حوالي سنة (٢٤٧ ق.م) علـى الأرجـح، وكان على البارث (الأشگان) أن يفعلوا الأمر نفسه حوالي سنة (٢٥٠/٢٤٩ ق.م).

وحينما بدأ النهوض الأرمني في عهد الملك **ديگران الثاني** (ديگران الكبير تـوفّي سنة ٥٥ أو ٥٤ ق.م)، صارت ميديا مجالاً حيوياً للمملكة الأرمنية، سواء أكان ذلك في القوقاز شمالاً، أم في الجنوب أم في الغرب، بل ما كان باستطاعة الملـك الأرمـني

1- دياكونوف: ميديا، ص ٣٦- ٣٧. هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٧٦/٢.

2- باسيلي نيكيتين: الكرد، ص٤٥.

3- المرجع السابق، ص٤٧.

تأسيس إمبراطوريته، والوصول إلى السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، من غير أن يسيطر على الوطن الميدي، حتى إنه بنى عاصمته الثانية (ديگرانا كيرتا) في الجغرافيا الميدية، وذكر أرشاك سافراستيان أن (فارقين/ ميّافارقين) هي ديگرانا كيرتا[1]

وفي الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد صار الوطن الميدي ميداناً رئيساً للمعارك الطاحنة بين ثلاث قوى إقليمية كبرى حينذاك: الرومان، والأشگان (الفرث/البارت)، والأرمن، واتخذ القائد الروماني **لُوكُولُس**، وبعده القائد الروماني **بُومْبي**، مدينة (نصيبين) قاعدة للجيش الروماني في الشرق[2]. وانجلت الصراعات الإقليمية عن معسكرين متنافسين متصارعين: الأول يضم الأشگان والأرمن. والثاني يضم الرومان والميد.

وكان الملك الميدي **أردافست** (أرْدَوان) قد وقف إلى جانب القائد الروماني **أنطونيو** خلال ذلك الصراع، الأمر الذي جعله عرضة لنقمة الحليفين الأشگاني **فرهاد الرابع** والأرمني **أرداشيس الثاني** (حفيد ديگران الكبير، حكم بين سنتي ٣٠- ٢٠ ق.م)، وشنّا معاً حملة ضد الميد في المنطقة الواقعة بين تبريز وهمذان، وتمكّن أرداشيس من قتل الملك الميدي أردافست، وحاز بسبب ذلك مكانة رفيعة في البلاط الأشگاني. ولما سيطر الرومان على الأوضاع في أرمينيا، بين سنتي (١- ٢ م)، عيّنوا عليها حاكماً من أصل ميدي يدعى **أريوبارزان**، وعيّنت بعده حاكماً ميدياً آخر بين سنتي (٢ - ١١ م)، يدعى **أردافست الخامس**[3]

وانقطعت أخبار ميديا حينما وقعت في قبضة الفرس الساسانيين حوالي سنة (٢٢٤، أو ٢٢٦م)، وانزوت في الجبال والوهاد، لتختفي رويداً رويداً وراء حجب التاريخ، وهذا يعني أن الساسانيين عملوا بشكل منهجي لمحو كل آثار مملكة ميديا في ذاكرة شعوب غربي آسيا، وأحسب أنهم كانوا حريصين قبل كل شيء على اقتلاع

1- مجموعة من الباحثين: كركوك، ص ٣٨. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٤٨.

2- مروان المدوّر: الأرمن عبر التاريخ، ص ١٥٥ – ١٥٦، ١٥٧.

3- المرجع السابق، ص ١٥٨ – ١٥٩، ١٦٠- ١٦٢.

جذور الثقافة الميدية العريقة، فقرروا اتخاذ الزردشتية، بنسختها الفارسية، ديناً رسمياً للدولة، وإلزام شعوب غربي آسيا بها، ومع ذلك ظل الكرد (أحفاد الميد) مقيمين في وطنهم التاريخي ميديا (كردستان حديثاً).

وفي العهود الإسلامية أقام الكرد بين الحين والحين إمارات ودولاً مستقلة داخلياً، ومنضوية شكلياً، حسب مقتضات ذلك العصر، تحت مظلة الخلافة العباسية، ومن تلك الدول التي قامت في جنوبي ميديا الحكومة الحَسْنَويهية البَرْزَيكانية (٣٣٠ – ٤٠٥ هـ) في هَمَذان (أكباتانا قديماً).

أما في الشمال الميدي فقامت الحكومة الرَّوادية في أذربيجان (٢٣٠- ٦١٨ هـ)، والحكومة الشَّدّادية في أرّان (٣٤٠- ٤٦٥ هـ)، وتتوزّع أرّان بين أذربيجان وجورجيا وأرمينيا حالياً، وكان من مدنها نَخْجِوان، وتَفْليس، وقَرَه باغ التي تتصارع أذربيجان وأرمينيا عليها، وسيطرت عليها أرمينيا سنة (١٩٩١م)، وأعلنت قيام جمهورية (ناگورنو قره باغ) فيها.

وأما في الشمال الغربي من ميديا (كردستان الشمالية) فقامت الدولة الدُّوسْتكية (المَرْوانية) بين (٣٥٠- ٤٧٨ هـ)، وكانت الدولة الرَّوادية والدولة الشَّدّادية والدولة الدوستكية تمثّل حينذاك جبهة الدفاع عن بلاد المسلمين ضد الهجمات المسيحية القادمة من القوقاز شمالاً، ومن دولة بيزنطا غرباً، ليس لأن أجداد الكرد كانوا يعشقون الصراعات الدينية، وإنما لأن الحروب حينذاك كانت تحصل في ظل الأيديولوجيات الدينية.

ولم يقع البلاء الأكبر على الوطن الميدي، وعلى الكرد أحفاد الميديين، إلا على أيدي العناصر البدوية الطورانية (التركية) القادمة من وسط آسيا، وقد افتتحت قبائل الغُزّ (الأُوغوز) تلك الغزوات سنة (٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م)، واستطاع الكرد في الشمال الميدي ردّ هجمات الغزّ والفتك بهم وطردهم، لكن ما لبث السلاجقة أن قاموا بالموجة الثانية من الغزو الطوراني، وأفلحوا في دخول بغداد سنة (٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م)، وكان الخليفة العباسي السنّي **القائم بأمر الله** (ت ٤٦٧ هـ) استعان بهم للخلاص من قبضة

البُوَيْهيين الشيعة[1]، وما لبث السلاجقة أن صاروا طامّة كبرى على الكرد أحفاد الميديين، وعلى الوطن الميدي في الجهات الأربع.

وعجزت الدول الكردية الأربع حينذاك عن الوقوف في وجه الغزو السلجوقي، لا لشيء سوى لأن واحدة من خصائص سيكولوجيا الجبال- أقصد الفردية وعدم الخضوع للآخر الكردي- فعلت فعلها في نفوس قيادات تلك الدول، وحالت دون توحيد الصفوف وتنسيق الجهود، فسقطت الواحدة منها تلو الأخرى في القبضة السلجوقية، ومن أخطر ما قام به السلاجقة أنهم أسكنوا القبائل التركية في ميديا الصغرى (أذربيجان) بكثافة، فغيروا طابعها الديموغرافي الميدي العريق، وهيّأوا المناخ لانتشار اللغة التركية وغلبة العنصر التركي الشيعي على العنصر الكردي السنّي، وكان للمذهب الشيعي الصَّفَوي دور كبير في كل ذلك.

وفي سنة (٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩م) خرج الترك العثمانيون من عباءة الترك السلاجقة، ونشطوا بعدئذ، فسيطروا على مقاليد الأمور في غربي آسيا بعد معركة چَلْديران سنة (١٥١٤م)، وانتصار السلطان **سليم الأول** على الشاه **إسماعيل الصفوي**، واقتضت الأوضاع الإقليمية حينذاك، ومسألة الصراع العثماني السُّنّي والفارسي الشيعي، أن يُبقي سليم الأول على الإمارات والدَّرَه بَگيات (الإقطاعات) الكردية في شمالي ميديا، لتكون حاجزاً بين دولته والدولة الصفوية، وليكون أبناء القبائل الميدية أعواناً للجيوش العثمانية في حروبها ضد فارس الصفوية.

وخفّت حدّة الصراع العثماني الصفوي في العهود التالية، وفي سنة (١٠٤٩ هـ/١٦٣٩م) اتفق السلطان العثماني **مراد الرابع** والشاه الصَّفَوي **عباس الثاني** على رسم الحدود بين الدولتين العثمانية والصفوية، ووقّعت الدولتان معاهدة عرفت باسم (معاهدة تنظيم الحدود)، وكان ذلك تمهيداً لتكريس السيطرة العثمانية المباشرة على الوطن الميدي، ثم أنزل السلطان **محمود الثاني** (ت ١٨٣٩م)

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/٦٠٩.

الضربة القاضية بالوطن الميدي، فألغى الإمارات والدَّرَه بگيـــات الكرديـــة ذات الحكم الذاتي، وأخضع ميديا في الشمال والجنوب والغــرب للحكـــم العثمـــاني المباشر، ووقّع الطرفان العثماني والفارسي معاهدة أَرْضَرُوم الثانية سنة (١٨٤٧م) لتقسيم الوطن الميدي.

١٤
ميديا اجتماعياً وحضارياً

ذكر ول ديورانت أن قصر عمر المملكة الميدية لم يتح لها الإسهام في الحضارة بقسط كبير، لكنه أورد في الوقت نفسه إنجازات حضارية قام بها الميديون، وأخذها عنهم الفرس، وأوضح أن مملكة ميديا مهّدت السبيل إلى ازدهار الثقافة في بلاد فارس، وهذا دليل على أن ما أنجزه الميد لم يكن قليلاً[1]. وعلى أية حال لا تعود قلة منجزات الميديين الحضارية إلى قصر عمر دولتهم فقط، وإنما لأن كثيراً من تلك المنجزات لم يصل إلينا، قال دياكونوف:

"رغم أن علم التاريخ أصبح يملك أدلة أثرية ومصادر قديمة في هذا القرن، إلا أن أحداث تاريخ ميديا لم تستفد من هذه المنجزات العلمية، بعكس الدول والبلدان الأخرى المعاصرة لميديا. إنّ ما تَقدّم كافٍ لنقول: إن آثار المدن والحضارة الميدية القديمة لا زالت كامنة تحت الأنقاض، وليس لدينا أية نصوص عن سلطة الميديين لمعرفة أحداث ميديا ودولتها"[2]

ونستعرض فيما يلي جوانب من المجتمع الميدي ومساهمات ميديا حضارياً.

أولاً- على الصعيد الاجتماعي:

يستفاد مما رواه المؤرخون أن المجتمع الميدي كان قَبَلي الطابع، وكان مجتمع ميديا الغربية أكثر تقدماً من مجتمع المناطق الجبلية الباردة، وقد تأسس المجتمع الميدي على قيم

1- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠١/٢.

2- دياكونوف: ميديا، ص ١٧.

النبل والعمل والجدّ والتعمير، وليس على الكسل والقيم المبتذَلة، وكانت جغرافيا الجبال، إضافةً إلى التحديات السياسية الإقليمية، من الدوافع الرئيسة لنشأة هذه الخصائص في الشخصية الميدية، وقد بادر الزعماء الكبار (دَياكو، خَشْتَريت، كَيْ خُسْرو) وأمثالهم إلى ترسيخ تلك القيم في المجتمع الميدي، وتربية الأجيال عليها، وبهذه القيم الأصيلة والراسخة استطاع المجتمع الميدي تحقيق الانتصار على أقوى وأكثر الإمبراطوريات الشرقية بطشاً حينذاك (إمبراطورية آشور).

وكان الميديون يهتمون بتربية الحيوانات الكبيرة والأغنام، ويُعْنَون أيضاً بتربية الجمال الباكترية ذات السَّنامين، وكانوا يهتمون بتربية الخيول، ويبدو أن خيول ميديا كانت تتميّز بخصائص جيدة، فكانت السلطات الآشورية تأخذ الخيول من الميديين بدل الجزية والضرائب أكثر من أيّ شيء آخر، وكانت الزراعة منتشرة ومتطوّرة في السفوح الجبلية[1]

أما بشأن بنية المجتمع الميدي فإن اسم (كارا) Kara، وهو يعني (المحاربين) كان يطلق على المواطنين الأحرار المسلحين، وكان هؤلاء يشكلون القسم الأعظم والأهم في المجتمع[2] ومعروف أن كلمة (كار) Kar في الكردية المعاصرة تعني (العمل)، وفي القرن السادس ق.م كان المتّبَع أن يُلقَّب جميع المواطنين الأحرار على أرض ميديا باسم مشترَك (الثوّار) أي (كار في الفارسية القديمة)، وكان هؤلاء أحراراً من الجانب الرسمي المدني والحقوقي المهني، قال دياكونوف:

"فقد قُضي على الإمبراطورية الآشورية بأيدي هؤلاء الثوّار، وتأسست الإمبراطورية الميدية القوية الكبرى بواسطة مساندة هؤلاء الثوّار"[3]

وقال دياكونوف أيضاً:

1- دياكونوف: ميديا، ١٣٧، ١٧٧، ١٧٨،

2- المرجع السابق، ص ٣٠٤.

3- المرجع السابق، ص ٣١٥.

"بكل الأحوال واضحٌ تماماً أن القصد من كلمة كارا Kara ليس فقط الجيش الدائم والخدمة العسكرية، وليس فقط- كما اعتقد هترتسفلد والآخرون- الرجال الكبار النبلاء في البلاط، بل كان يقال لمجموعة من المواطنين الأحرار"[1]

وذكر و. أ. يتورين أنه في فارس وكذلك في ميديا كـان اسـم (كُـورْتَش) Kurtash يطلق على مجموعات مختلفة من العاملين، أي على عمـال الورشـات (المعامل)، **"والذين كانوا يسمون (كُورتَش كِينوشْكي بــ)؛ أي (العمـال الخصوصيون)، أو أن مهنهم الحرفية كانت محددة (مثل الحفر على الحجـر،... وصنّاع النحاس والآخرين)"**، مع ملاحظة أن كلمة (كورتَش) عِيلاميـة، وهـي تقابل كلمة (گردا) Grda بالإيرانية القديمة. وكان الرعاة وأصحاب المهن الحـرة يعتبرون ضمن فئة الـ (كُورْتَش)، وكان الكورتشيون-رجالاً ونساء- يلقّبون بـ (يوهويتِ- مانيش)، أي (صفوف الشباب)، ولم يكن عناصر الكُورْتَش أسـرى أو عبيداً، وإنما كانوا من المواطنين الأحرار[2]

وقال دياكونوف بشأن أهمية العمل في المجتمع الميدي:

"بالنسبة إلى المجتمع الميدي القديم كان على كل شخص في المجتمع أن يـتقن أمور الفلاحة والبَسْتنة والزراعة بشكل عام. ولكن بالنسبة إلى الرجال الكبـار في المجتمع فكان عليهم أن يكونوا من الثوّار، وكان عليهم أن يعملوا كـذلك؛ لهذا السبب كان النبلاء أيضاً ينشغلون بالأعمال بالرغم من علوّ مراكـزهم في المجتمع، وكان على الرجال من الأصل النبيل، يعني وكـلاء الملـوك والقـادة ورؤساء الجيش أيضاً، أن يكونوا جزءاً من المجتمع، (أيْ مـن ناحيـة العمـل والإنتاج في المجتمع)"[3]

1- المرجع السابق، ص ٣١٥.

2- المرجع السابق، ص ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٠.

3- المرجع السابق، ص ٣١٣. ثمة هفوات لغوية عديدة اضطررنا لتصويبها.

وفسّر دياكونوف قوة ميديا بكون الأحرار (الأشراف) كانوا يشكّلون قوتها الأساسية، فقال: "**ليست صدفة أن الآشوريين كانوا يسمون الميديين بالأقوياء**"[1]

وقال دياكونوف أيضاً:

"**إن المجتمع الميدي، بالرغم من أنه كان مجتمعاً طبقياً، مقسَّماً على أساس الثراء وأصحاب الامتيازات، لكن هذا التقسيم والتوزيع لم يصل بعدُ إلى الحد الأقصى، كان مجتمعاً لا تزال فيه العبودية غير منتشرة، ولم يستطع الفساد والشغب من الظهور إلى الوجود**"[2]

ثانياً- على الصعيد الثقافي:

بالنسبة إلى اللغة الميدية ثمة معلومات قليلة مبثوثة في مختلف المصادر، وقد ذكر دياكونوف- نقلاً عن الرحّالة والمؤرخ والجغرافي الروماني سترابون Strabon (٦٤ ق.م — ١٩ م)- أن اللغات الميدية والفارسية والباكترية متشابهة، وأن لغة السَّكيت قريبة من لغة الميديين. وذكر دياكونوف أيضاً أن الجداول المكتوبة التي حصل عليها تؤكد وجود علاقة بين لغة ميديا ولغة (أڤستا) الكتاب المقدس للزردشتية المقدس، وأن اللغتين تقتربان في كثير من الحالات، لكن ليس إلى حدّ كبير، ولا يمكن اعتبارهما لغة واحدة، وأن اللغة الميدية كانت لغة مشتركة بين اتحاد أقوام ميديا، وكانت في الأصل لغة قبيلة أريزانت (آري زانت) إحدى القبائل الميدية الست الكبرى، وأصبحت لغة اتحاد الأقوام الميدية[3] وقال هارڤي بورتر:

"**لغة الماديين من اللغات الآريانية؛ أي الهندية الأوربية، وتختلف كثيراً عن اللغات الساميّة، وتُعرف من كتابهم زَنْد أڤسْتا، وهي قريبة من لغة الفرس فلا تختلف عنها**

1- المرجع السابق، ص ١٨٥.

2- المرجع السابق، ص ٢٧٩.

3- المرجع السابق، ص ٦٨، ٧٢، ١٤٦، ٢١٤، ٢٧٢،

إلا قليلاً، وكلٌ منها يشبه لغة السَّنْسَكْريت، وهي لغة الهند القديمة، ولنا منها بعضُ ما ذُكر من أسمائهم، وهل كانوا يكتبون ذلك؟ لم يُعلَم علم اليقين، والأرجح أهم استعملوا الكتابة، وكان خطُّهم الإسفينيّ كالآشوريين، وحروفُهم سبعة وثلاثون، والأصوات الأصلية ثلاثة وعشرون"[1]

وثمة من المؤرخين من أكد أن الكرد من الميديين، واستدل على ذلك بـ **"التشابه اللغوي ما بين اللغة الكردية واللغة الميدية القديمة"**[2]، وقال دياكونوف: **"إن اللغة الأدبية الفارسية الأخمينية تأثرت كثيراً باللغة الميدية"**[3] وقال ديورانت بشأن تأثّر الفرس والدولة الفارسية باللغة الميدية والخط الميدي والحضارة الميدية عامة:

"فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية، وحروفهم الهجائية التي تبلغ عدّها ستة وثلاثين حرفاً، وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون في الكتابة الرَّقّ والأقلام بألواح الطين، ويستخدمون في العمارة العُمُد على نطاق واسع، وعنهم أخذوا قانونهم الأخلاقي الذي يوصيهم بالاقتصاد وحسن التدبير ما أمكنهم وقت السلم، وبالشجاعة التي لا حدّ لها في زمن الحرب، ودينَ زردشت وإلهيه أهورا مَزْدا وأهْرِمان، ونظام الأسرة الأبوي، وتعدّد الزوجات، وطائفة من القوانين؛ بينها وبين قوانينهم في عهد إمبراطوريتهم المتأخر من التماثل ما جعل دانْيال يجمع بينهما في قوله المأثور عن (شريعة ميدي وفارس التي لا تنسخ). أما أدبهم وفنّهم فلم يبق منهما لا حرف ولا حجر"[4]

1- هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٨- ٨٩. زَنْد أفسْتا هو شرح أفسْتا. والخط الإسفيني هو المسماري.

2- طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٣٨.

3- دياكونوف: ميديا، ص ٣٥٣.

4- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠١. والرَّق هو جلد خاص بالكتابة. ودانيال نبي عبراني (إسرائيلي).

وذكر المؤرخون أن الفرس اقتبسوا الخط المسماري من الميد، كما أن اللغة الأدبية الفارسية تأثّرت كثيراً باللغة الميدية، قال دياكونوف:

"من الناحية المعنوية للحضارة يجب الاعتراف بأن معلوماتنا أقلّ من درجة تطور الحضارة الميدية، إن الخط والكتابة كانت موجودة على أرض ميديا في الألف الأول قبل الميلاد... إن الخط والكتابة المعروفة اليوم، والتي تعتبر الكتابة والخط الفارسي القديم أو للأخمينيين الأوائل، فإن هذا الخط والكتابة هي نفسها الميدية بالأساس، وفي الواقع لها أصل وجذور ميدية"[1]

وجدير بالذكر أنه بعد سقوط إمبراطورية آشور سنة (٦١٢ ق.م)، هيمنت على غربي آسيا سياسياً واقتصادياً وثقافياً، ثلاث ممالك؛ هي مملكة ميديا في كردستان الحالية، ومملكة بابل الكلدانية في العراق الحالي، ومملكة ليديا في آسيا الصغرى (غربي تركيا الآن). وقد مرّ أن الحرب نشبت بين ميديا وليديا طوال ستّة أعوام، بسبب لجوء السكيث أعداء الميديين إلى ليديا، لكن في عام (٥٨٥ ق.م) وقّعت المملكتان اتفاقية سلام، فحلّ السلام والأمن في ربوع غربي آسيا، وازدهرت الحركة التجارية، وثمة أكثر من دليل على أن الوطن الميدي أصبح- بتأثير هذا الازدهار- مهداً لحركة ثقافية ومعرفية مزدهرة، قال دياكونوف:

"يجب أن نعرف أيضاً بأن أرض ميديا، في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، أمست مصدراً لانتشار الوعي الديني والفلسفي منها"[2]

ثالثاً- على الصعيد الإداري:

لا تتوافر في المصادر التاريخية معلومات كافية بشأن الجهاز الإداري في مملكة ميديا، لكن مرّ في صفحات سابقة أن الزعيم الميدي دياكو وضع الأسس الإدارية للدولة في ميديا، وانتقل بالمجتمع الميدي من دولة- القبيلة إلى دولة- الأمة، وأمر ببناء عاصمة

1- دياكونوف: ميديا، ص ٣٤٩.

2- المرجع السابق، ص ٣٥٧.

للدولة، كما أنه سنّ التشريعات والقوانين التي تنظّم العلاقات في الدولة الناشئة، سواء أكانت بين الدولة والجماهير، أم كانت بين الجماهير نفسها.

ولا ريب في أن المؤسسات الإدارية كانت تشمل جميع ميادين الدولة الناشئة، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً، ويفترض منطق التاريخ أن الفكر الإداري في مملكة ميديا تطوّر مع مرور الزمن، وأصبح أكثر رسوخاً وتنوّعاً وفعّالية في عهد كل من فراوُرْت وكَيْ خُسْرو، وإلا فكيف استطاعت مملكة ميديا، في عهد كَي خُسرو، أن تواجه إمبراطورية آشور العريقة بمؤسساتها الإدارية؟ وكيف استطاعت في النهاية التغلب عليها وإسقاطها؟ وهل يمكن لدولة أن تتغلّب على إمبراطورية ما لم تكن في مستواها على صعيد الفكر الإداري والتنظيم الإداري والسلوك الإداري؟

وعدا هذا هل كان من الممكن أن يدير ملوك ميديا إمبراطورية واسعة، بين عامي (٦١٢ – ٥٥٠ ق.م)، أي أكثر من نصف قرن، لولا وجود مؤسسات إدارية متقدمة وقادرة على تنظيم العلاقات، وتسيير الأمور وحلّ المشكلات، في الداخل والخارج؟ قال دياكونوف مؤكداً كفاءة المؤسسات الإدارية الميدية:

"**إن المؤسسات الإدارية في الإمبراطورية الميدية كانت من المحتمَل نفس المؤسسات الإدارية في آشور وأورارتو، لكن أكثر تنظيماً ودقة من المملكتين المذكورتين. وفيما بعد اتّبع الفرس أيضاً نفس النظام الإداري الذي كان قائماً في الإمبراطورية الميدية الكبرى قبلاً**"[1]

وبشأن كفاءة النظام الإداري في مملكة ميديا ذكر الدكتور جمال رشيد أحمد أن ج. هَرماتتا J. Harmatta قام في السبعينيات من القرن العشرين بترميم البنية الإدارية للإمبراطورية الميدية، في كتابه (The Rise of the Old Persian Empire. Cyrus the Great)، واعتبر تنظيم الإمبراطورية الميدية من المستويات العالية في التاريخ، وأزاح بعض الغموض عن هذه المسألة، مستنداً في ذلك على ثلاثة قواعد:

١– استعارة الإخمينيين للمصطلحات الميدية المتعلقة بإدارة الدولة.

1– المرجع السابق، ص ٣٤٣.

٢- الاستمرار بالعمل في العصر الإخميني على أساس الهيكلية التنظيمية للإدارة الميدية.
٣- استمرارية التشكيلة الحكومية بناء على الأمرين السابقين[1]

رابعاً- على الصعيد العسكري:

شهد كل من كتب عن الآشوريين بقوة الجيش الآشوري، وبقدراته القتالية العالية، ولولا ذلك لما استطاع الآشوريون- مع قلة عددهم قياساً بجيرانهم- تكوين إمبراطورية ضخمة، تمتد من قلب إيران الحالية شرقاً إلى السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وإلى مصر غرباً، ومن القوقاز شمالاً إلى الخليج الفارسي جنوباً.

وإن قدرة الميديين على إلحاق الهزيمة بالإمبراطورية الآشورية إنما تحقق على أيدي جيش استطاع أن يتفوق على الجيش الآشوري، أو وصل إلى مستواه في القوة على الأقل، ولا ريب في أن مجتمعاً بلا مشروع وطني/قومي/ ديني لا يمكن أن يتوحّد، وإن مجتمعاً خاوياً متهافتاً منقسماً على نفسه لا يمكن أن ينتج جيشاً قوياً.

والحقيقة أن المجتمع الميدي القوي بقيمه هو الذي أنجب ذلك الجيش المتميّز، وكان ملوك الفرس الأخمين من أكثر الناس دراية بمزايا القوة القتالية الميدية، فوظّفوا المقاتلين الميد في غزواتهم الإمبراطورية الكثيرة، وقد أرجع دياكونوف قوة الميديين القتالية إلى أن الجيش الميدي كان يتألف في الأصل من المتطوّعين[2]، ومعروف أن الفرق كبير- من حيث الإخلاص والإقبال على التضحية- بين المقاتل المتطوّع والمقاتل المجنّد رغماً عنه، وقال دياكونوف بشأن عوامل قوة الجيش الميدي:

"إن هذا الجيش الذي تشكّل لأول مرة على أساس دولة موحّدة، كان من الضروري أن يشعر الأفراد فيه بالوحدة الكاملة، وفي نفس الوقت يحسّ بضرورة وجوده كجيش من أجل تحرير الأرض والمواطنين"[3]

1- جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٢/٢٨١.

2- دياكونوف: ميديا، ص ١٨٥، ٢٧٩.

3- المرجع السابق، ص ١٨٥، ٢٧٩.

وقد جاء ذكر الملك الميدي كَيْخُسْرُو (كَيْ أخْسار) في نص بابلي باسم ملك الأومّان ماندا (Ummanmande)، القوة المرعبة، وقال دياكونوف: **"كان البابليون في الأيام الأخيرة يُلقّبون الميديين وجميع الأقوام الشمالية (القصد هنا شمال بابل) بـ(أومان– ماندا)"**[1]. والمقصود بالأقوام الشماليين جميع القبائل التي كانت تسكن جبال كردستان، وكانت تنتمي في الأصل إلى أرومة واحدة، ثم اندمجت، في ظل المملكة الميدية، ضمن تكوين قومي واحد هو الشعب الكردي.

واشتهر الجيش الميدي بأسلحته بين الأمم الأخرى، ومرّ أن الفرس– بعد هيمنتهم على مملكة ميديا– وظّفوا القوة القتالية الميدية في حروبهم الإمبراطورية، ومن الأمثلة على ذلك أن فرقة السرنجيين، في جيش أَحْشَوِيرَش (خَشْيارشاه) بن دارا الأول الزاحف على بلاد اليونان عام (٤٨٠ ق.م)، كان سلاحهم القوس والنُّشّاب والرماح الميدية[2]، كما أن المقاتلين الميد كانوا يشكّلون قوة ضاربة في الجيش الفارسي، وكانت أهميتهم تأتي في المرتبة الثانية بعد فرقة (الخالدين) الفارسية الأكثر تميّزاً، وكانت القيادة الفارسية تزجّ بهم في المعارك ضد الأعداء الأشدّاء.

ومن الأمثلة على ذلك أنه لما عبر أحشويرش بجيشه مَكَدُوْنيا متجهاً نحو اليونان، تصدّى له الإغريق عند ممرّ بيلاي، وأوقفوا زحفه خمسة أيام، فغضب أَحْشَوِيرَش، **"فوجّه إليهم الميديين والكسيسانيين ليأتوا بهم أحياء"**[3]. وفي معركة بلاتيا Platea في اليونان، عام (٤٧٩ ق.م)، وضع القائد مارْدُونيوس قوات الخالدين في مواجهة اللاكيديمونيين، وعلى ميمنة الخالدين وضع القوات الميدية في مواجهة الكورنثيين والبوتيدائيين والأرخميتوسيين والسيكيونيين.

وذكر هيرودوت أنه حينما تراجع أحشويرش عن بلاد اليونان عائداً إلى آسيا، تولّى ماردونيوس قيادة جيش انتخبه بنفسه لبدء حملة جديدة على الإغريق مع الربيع

1- دياكونوف: ميديا، ص ٨٣. هديب غزالة: الدولة البابلية الحديثة، ص ٦٣.

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥١٧.

3- المرجع السابق، ص ٥٧١.

التالي، **"فقام بانتقاء القوات التي ستكون بإمرته، ... وكـان الفـرس بقلائـدهم وأساور الذراعين قوام هذا الجيش، يليهم الميديون، وإن لم يكونوا في الواقـع أقـل عدداً، إنما دونهم شجاعة "**[1] ونحسب أن المقاتلين الميد ما كانوا يقلّون شجاعة عـن المقاتلين الفرس لو كانوا يقاتلون تحت لواء سلطتهم، ودفاعاً عن الوطن الميدي. وقال دياكونوف يصف شجاعة المقاتلين الميد:

"إن الميديين، بالنسبة إلى الفرس والسكايين، كانوا معروفين بالشجاعة، ويُعتمَد عليهم، وهؤلاء كانوا القوة الضاربة الرئيسية في جيش خَشْيارشاه"[2]

ولا تخفى أهمية الخيول في الحروب القديمة، إن سلاح الفرسان- وعماده الخيـول- كان القوة الأكثر فاعلية في حسم المعركة لهذا الطرف أو ذاك، وكانت ميـديا غنيـة بأنواع الخيول الأصيلة، ومرّ أن الخيول كانت أكثر ثروة الميديين، وكان الجواد الميدي مضرب المثل في العالم القديم، قال دياكونوف:

"الخيولُ التي كانت تربّى في أرض ميديا تُعتبَر مشهورة جداً، وكان الآشوريون يأخذون بدل الضرائب والجزية خيولاً فقط"[3]

وكان الجواد الميدي مشهوراً باسم (نِيسايين)، حسبما ذكر هـيرودوت، ولعلـه تصحيف لاسم (نِيسْياني)، نسبة إلى سهل (نِيسْيا) أو (نِيسِيان) في ميديا، وكانت تُربّى فيه أفضل أنواع الخيول، وتوصَف بأنها مقدسة، ربما لبياضها، ولأن البياض هو لـون النور الشديد الأهمية في الميثولوجيا الميدية[4] وقال هيرودوت، يصف موكـب الملـك الفارسي أَخْشَويرَش، خلال زحفه من (سارْديس) عاصمة مملكة ليديا باتجاه مـضيق الدَّرْدَنيل، للعبور إلى أوربا، وغزو بلاد اليونان عام (٤٨٠ ق.م):

1- المرجع السابق، ص ٦٢٧.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٤١٢.

3- المرجع السابق، ص ١٤٨.

4- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٦٨.

"يتقدمه ألف من الفرسان، وهم مختارون من أرجاء بلاد فارس كافة، وفي إثرهم ألفٌ من حملة الرماح رافعين سلاحهم مقلوباً، ثم عشرة من الجياد المقدسة المعروفة بالنيسانية، وهي في أجمل زينة، وقد عرفت هذه الخيول بالنيسانية نسبة إلى سهل نيسان في بلاد الميديين، حيث تربّى الخيول الضخمة التي لا مثيل لها في العالم، وتلي الخيول عربة زيوس[1] المقدسة، وتجرها ثمانية من الجياد البيض، ثم جاء موكب الملك، وهو في عربة تجرها خيول نيسانية"[2]

رابعاً- على الصعيد الديني:

كان الدين السائد في المجتمع الميدي مشابهاً- من حيث بعض مكوّناته- للأديان التي كانت سائدة في بقية مجتمعات أسلاف الكرد خاصة، وفي بقية مجتمعات غربي آسيا عامة، ومعروف أن تلك الأديان كانت زاخرة بالعناصر الميثولوجية البدائية، وهي عناصر تقوم على تعدّد الآلهة ذكوراً وإناثاً، وارتباطها ببعض مظاهر الطبيعة (الشمس،

1- زيوس Zeus هو كبير آلهة المجمع الإلهي في اليونان، وهو مشتق من الصيغة (ديُوس) Dyaus إله السماء وفاعل الخير، وهو نفسه (دياوس بيتر) Diyvuh pitar الإله الهندي، و(زيوس باتير) Zeus piter الإله اليوناني، وجوبيتر Jupiter الإله الروماني، و(تاووس) الأيزدي. وهذه الصيغة ترجع بدورها إلى الأصل الآري (دَيو) Dêw/Daiw الإله الأكبر في التراث الميثولوجي الآرياني، واعتبره زردشت شيطاناً في الكتاب المقدس (آفستا)، ومنع الناس عن عبادته، وظهر هذا الاسم في البهلوية بصيغة Dev، وتلفظ اليوم (دَيو)، أي (كبير الجن). والمقصود بـ (زيوس) في نص هيرودوت هو (العربة المقدسة)، لأن المَوغ (رجال الدين الزردشتي) كانوا يرافقون أَخْشَوِيرَش في حملته على بلاد اليونان، ومن الظاهرات البارزة في كتابات هيرودوت أنه يُطلق أسماء آلهة اليونان على ما يماثلها من آلهة الشعوب الأخرى. جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب،ص ٦٦. خليل جندي: الأيزدية والامتحان الصعب، ص ٧٠-٧١.

2- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥٠٨.

والقمر، والماء، والهواء، والطقس، إلخ)، وتقوم أيضا على توزع الوظائف الكونية والبشرية فيما بينها؛ إضافة إلى بعض البنى الأَرْواحية والتَّوْتَمية[1]

والحقيقة أن المعلومات المتعلقة بالدين في المجتمع الميدي قليلة جداً، شأنها في ذلك شأن المعلومات في بقية الميادين، وثمة نقطتا ارتكاز يمكن أن ننطلق منهما، ونسترشد بهما، لمعرفة بعض العناصر والمكوّنات الخاصة بالعقيدة التي كان يدين بها الميديون، ونقطتا الارتكاز هما: الموغ، وزردشت.

أما الموغ فكانوا رجال الدين (الكهنة) في المجتمع الميدي، وهم طبقة من الكهنة الرسميين، وكانوا يتوارثون المناصب، ويشرفون على أداء الطقوس، وكانوا ينتمون إلى قبيلة ماغوي (ماجي) Magoi إحدى القبائل الميدية الست، ويبدو أن هذه القبيلة كانت متخصصة في أمور الدين، وهم يماثلون سِبْط (قبيلة) لاوي العبرانية، وهي قبيلة النبي موسى، وكانت متخصصة في أمور الدين اليهودي، ويماثلون أيضاً قبيلة قُرَيش العربية في مكة، وكان منها النبي محمد بن عبد الله.

وذكر دياكونوف أن الموغ كان يلبس قفطاناً، تتدلّى أكمامه على الجانبين خالية من الساعدين؛ وهذا يذكّرنا في أيامنا هذه بالعباءة التي يرتديها الرئيس الأفغاني الحالي

1- التوتمية Totemism: مشتقة من كلمة (أوت- أوتيم) Ot-Otem، وهي الاعتقاد بأن الإنسان جزء لا يتجزّأ من الطبيعة، والتوتم كائن على شكل حيوان أو نبات، يمثّل الصفات المميّزة لجماعة بشرية معيّنة، وتعدّ الجماعة البشرية الطوطم جداً لها وحامياً، ويشترك أعضاؤها في عبادته، وكان البدائيون يرسمون صورة طوطمهم على جميع ما يمتلكونه، ويرسمونه على مجنّاتهم وخيامهم وكأنه شعار شرف لهم، ويرفعونه فوق قوارهم وقبورهم، ويضعونه أحياناً على أعمدة مرتفعة.

والأرواحية Animism تسمى (الحيوية) أيضاً، وهي الاعتقاد بأن الروح مصدر جميع أشكال المادة، وأن الأرواح تسكن جميع مظاهر الطبيعة، وأن هذه الأرواح تؤثر في حياة الناس والحيوانات، وأن كل حادث يقع له تفسير من منطلق (الأرواح الخيّرة) و(الأرواح الشريرة)، وأن لهذه الأخيرة دوراً في حياة الناس ومصائرهم، فكان القدماء يقومون بطردها أو باستدعائها بوساطة القرابين والصلوات. فرويد: الطوطم والتابو، ص ٢٣-٢٥، ٩٧، ١٠٠، ١٢٤، ١٢٥. م. روزنتال: الموسوعة الفلسفية، ص ٢٠ - ٢١، ٢٨٧.

حميد كَرَزاي في المناسبات الرسمية، إنه قفطان يضعه الرئيس على منكبيه، وفيه خطوط خضراء، وله كمّان طويلان، يتدلّيان من الجانبين، من غير أن يضع فيهما الرئيس ساعديه، ومعروف أن دعوة زردشت الدينية لقيت رواجاً في مدينة بَلْخ، وهي تقع في شمالي أفغانستان، وهذا يعني أن أفغانستان كانت أولى البلدان التي انتشرت فيها الزردشتية، وانتشرت فيها تقاليد الموغ[1]

ونظراً للاحتكاك السياسي بين اليونان والفرس بدءاً من العهد الأخميني (٥٥٠ – ٣٣٠ ق.م)، كان مؤرخو اليونان- وفي مقدمتهم هيرودوت- أكثر من تحدّث عن الميديين والفرس وعقائدهم، وأطلقوا على الموغ اسم **Magos**، حسب طريقتهم في إضافة اللاحقة (s) بأسماء الأعلام، وشاعت صيغة (مَجُوس) في ثقافات غربي آسيا بشكل عام، ودخلت إلى الثقافة العربية أيضاً، حتى إن كل دين من أديان الميديين والفرس بات يُعرَف بـ (المجوسية)، وأطلق المؤرخون المسلمون على النبي زردشت لقب (نبيّ المجوس)، قال المقدسي:

"في عهد كُشْتاسْب بن كيلهراسْب ظهر زَرْدَشْت نبيُّ المجوس، ودعا الناس إلى المجوسية"[2]

وبقي أن نتساءل: ما هي الديانة التي كان الموغ كهّانها؟

للإحاطة بديانة الميديين لا بد من التذكير بديانة الشعوب الآرية، إنها كانت تقوم على عبادة قوى الطبيعة والعناصر والأجرام السماوية، فكانت هناك آلهة كثيرة (آهورات) عديدة- آهور يعني إله- ولم تكن للدين صفة طبقية، ولم يخدم طبقة معيّنة؛ لعدم ظهور الطبقات في فترة المشاعية البدائية، ولم تكن ثمة أهمية لـ (آهور أَمَزْدا) إله الخير/إله النور، ولا لـ (آهور آمن) إله الشر/إله الظلمة، بين العديد من الآلهة التي عبدها الآريون. ولكن بانتقال المجتمع الآري من حالة التنقّل والترحّل، إلى الاستقرار

1- دياكونوف: ميديا، ص ٣٨٣.

2- جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٣١. المقدسي: البدء والتاريخ. ١٤٩/٣.

ومزاولة بعض المهن، برزت مكانة الإله (أَمَزْدا)، ولذلك أُطلق على الديانة القديمة اسم (المَزْدية)، وبما أن الكهان المجوس كانوا يقومون على شؤون الدين تشريعاً وطقوساً وشعائر، أُطلق على المزدية اسم (المجوسية)[1]

وأما الزردشتية فهي في جوهرها حركة إصلاحية داخل المزدية وتطوير لها، أو لنقل: هي مزدية جديدة، صاغها النبي الميدي زَرْدَشْت بما يتناسب والأوضاع والحاجات المعرفية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة في ميديا خاصة، وفي آريانا (بلاد الآريين الشرقيين) عامة، وثمة كثير من الأدلة على أن الزردشتية هي سليلة المزدية، منها على سبيل المثال أن الإله الأكبر والأوحد (مَزْدا/أَمَزْدا)- وكان دينه يسمّى (مَزْدا يَسْنا)- احتفظ بمكانته في الزردشتية باسم (أهورا مَزْدا) Ahura Mazda إله النور والخير، والجديد الذي أضافه زردشت في هذا المجال أنه اعتقد بوجود قوة خبيثة مهلكة سمّاها أهريمن (أهور أمن/ أنْگرامايْنيُو)، تنشر الشرور في العالم، وتقف عقبة في طريق المشروع الأهورامزدي لتعميم الخير والنور في العالم أجمع، وهذا ما لم يكن له وجود في المزدية[2]

ومن الأدلة على استمرار كثير من العناصر المزدية في الزردشتية أن الشمس كانت محور ديانات الشعوب الآرية عامة، وكذلك كانت مكانتها في المزدية، وقد احتفظت الشمس بتلك المكانة الرفيعة والمقدسة في الزردشتية أيضاً، فإن الياشْت السادس (خُورْشيد ياشْت)،في الكتاب الزردشتي المقدس (أڤستا) Avesta، هو ترنيمة للشمس، جاء فيها:

"نحن نصلّي للشمس، للضوء الخالد، حيث أحصنتُه سريعة، عندما تشرق الشمس، تقف الآلهة كلها، مئات الآلاف منهم، ويختارون السعادة، يقدّمون السعادة، للأرض المعطاة من قِبل مازدا، يَهبون الازدهارَ للعالم، ويَهبون السموَّ للحقيقة"[3]

1- حسين قاسم العزيز: البابكية، ص ١٣٠.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٣٧٨. نوري إسماعيل: الديانة الزردشتية، ص٣١.

3- أڤستا، ص ٤٣٢. وأڤستا، ياشت ٦، آية ١، ص ٤٣٣.

وجدير بالذكر أن زَرْدَشت (زارادشت/زاراتُوشْتَرا/زراوُسْتر) ميدي الأصل، ولد في ميديا قرب بحيرة أورميا، وعاش بين سنتي (٦٦٠ – ٥٨٣ ق.م)، أو بين (٦٣٠ – ٥٥٣)، أو (٦٢٨ – ٥٥١) قبل الميلاد. وإذا أخذنا في الحسبان أن مملكة ميديا أصبحت إمبراطورية بعد أن أسقطت إمبراطورية آشور سنة (٦١٢ ق.م)، اتضح أن فترة نبوة زردشت كانت معاصرة تماماً للعهد الميدي الإمبراطوري، وهو العهد الذي كثر فيه الثراء بين الميديين، وشاع البذخ، ونتيجة لذلك ظهرت الفوارق الطبقية في المجتمع الميدي، وتعمّقت التناقضات الاجتماعية والثقافية والسياسية، وكثرت المفاسد التي تمشي دائماً في ركاب البذخ والصراعات الطبقية[1].

والأرجح أن دعوة زردشت الدينية كانت في جوهرها مشروعاً وطنياً إصلاحياً شاملاً، إنه دعا إلى تعزيز قيم الخير والنور والتقدم والسعادة مرموزاً إليها بـ (أهورامزدا)، ومحاربة قيم الشر والظلام والتخلف والبؤس مرموزاً إليها بـ (أهريمن)، لكن كان من الطبيعي أن تقف الطبقة الميدية الحاكمة، وكذلك النخب السياسية والثقافية والاقتصادية السائدة، ضد دعوة زردشت الإصلاحية، واضطهدوه، فهاجر إلى مقاطعة باكْترْيا (باخْترْيا، في شمال شرقي إيران، وشمالي أفغانستان)، واعتنق هيشتاسب (فشتاسب) Hyestaspes حاكم باكْترْيا الدين الجديد، وجاء في أكثر من مصدر أن هَيشْتاسْب والد الملك الفارسي دارا الأول[2].

وثمة عدد من الأدلة تؤكد أن القادة الفرس اتخذوا الزردشتية أيديولوجيا للهيمنة على إمبراطورية ميديا، وإزاحة الميد جانباً، والحلول محلهم في قيادة الإمبراطورية، واتخذوها منذ عهد دارا الأول (٥٢٢ – ٤٨٠ ق.م) ديناً رسمياً للدولة، وقال ول ديورانت في الموضوع ذاته:

1- صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٢٩٤. حامد عبد القادر: زرادشت نبي قدامى الإيرانيين، ص ٢٩.

2- دياكونوف: ميديا، ص ٣٤٠. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩١/١. هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٥٨/٢. أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ٢٣٠.

"ولعل دارا الأول حينما اعتنق الدين الجديد رأى فيه ديناً مُلهِماً لشعبه، فشرع منذ تولّى المُلك يثير حرباً شَعْواء على العبادات القديمة وعلى الكهنة المجوس، وجعل الزردشتية دين الدولة"[1]

ونذكر من تلك الأدلة أيضاً أن بعض زعماء الميـد- ومـن أبـرزهم گُوماتـا (سَميرديس) الميدي- حاولوا الوقوف في وجه التسلط الفارسي على ميديا، واستعادة الحكم الميدي، فوقفوا ضد الزردشتية، وأحيوا الدين المزدي القديم الذي سمّاه الفـرس (المجوسية)، وذكر ول ديورانت أن سميرديس الميدي كان:

"من أتباع المذهب المجوسي القديم، وكان يعمل جاهداً للقضاء على الزردشـتية دين الدولة الفارسية الرسمي"[2]

وثمة أمر آخر يستوقفنا؛ هو إطلاق الآشوريين اسم (أومـان- مانـدا) علـى الميديين وغيرهم من أجداد الكرد، ترى ما أصل هذه التسمية؟ هل هـي تـسمية دينية؟ هذا هو الأرجح، فإلى يومنا هذا يوجد في التراث الكردي الأيـزدي اسـم (شيخ مَنْد)، والغريب أن قادش، في منطقة حمص بغرب ووسط سـوريا، تـسمّى (تل النبي مَنْد)، ولعل لذلك علاقة بالثقافة الميتّانية (الحورية)، فالمعروف أن الميتّانيين سيطروا على شمالي سوريا بعض الفترات، يقول جرنوت فيلهلم: **"لقد انتـشرت اللغة الحورية خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد في المناطق السورية الوسطى، ووصلت حتى قَطَنا وقادش"**[3]

ومرّ أن ابنة الملك الميدي الأخير أستياگ كان اسمها (ماندانا)، وفسّرناه بعبارة (هبة الإله مَنْد)، ويبدو أن ثمة علاقة ما ثقافية وربما إثنية بين مجتمع (أومان- مندا) ومجتمـع الصابئة المَنْدائية، وجاء في كتاب الصابئة المَنْدائية المسمى (حَرّان كُوثـه) أي (حـرّان

1- ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٢٦/٢.

2- المرجع السابق، ٢/ ٤٠٦.

3- جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٤٩. تقع قادش على نهر العاصي في منطقة حمص.

السفلى) أهم جاؤوا إلى بطائح البصرة من مدينة حرّان وما حولها من جبال مـاداي؛ **"حيث الينابيع الساخنة في الشتاء والباردة في الصيف"**[1]

إن البحث في هذه الجذور الميثولوجية مهم جداً، لأنه يساعد على إزالة الغموض ليس عن الميثولوجيا الخاصة بأسلاف الشعب الكردي قبل المرحلة الميدية فقط، وإنما يضيء كثيراً من الجوانب الميثولوجية في الديانة الأيزدية وفي الصابئة المَنْدائية، وفي ميثولوجيا بلاد الرافدين عامة، إضافة إلى أن ذلك يكون مدخلاً معرفياً إلى الديانات المعروفة باسم (الديانات السماوية)؛ هي اليهودية والمسيحية والإسلام.

خامساً– شهرة الميديين:

إن إنجازات الأمم تصنع لها الشهرة، ومما يلفت الانتباه أن شهرة الميديين كانت ذائعة في العالم القديم، وربما كان قضاؤهم على الإمبراطورية الآشورية، وتحرير غربي آسيا من تسلّط حكّام آشور القساة، من أبرز الأسباب التي جعلت شهرة الميديين ذائعة، حتى إن الممالك المجاورة لإمبراطورية فارس في الشرق والغرب كانت تخاطب الملك الفارسي بلقب **"ملك الميديين"**، وكانت تعدّ الفرس إجمالاً ميديين، والغريب أن هذه النظرة ظلت سائدة حوالي قرن من الزمان بعد زوال إمبراطورية ميديا، بدءاً من عهد كورش الثاني (حكم سنة ٥٥٠ ق.م) إلى عهد أَخْشَوِيرَش بن دارا الأول (قتل سنة ٤٦٥ ق.م).

ومن الأمثلة على شهرة اسم الميديين أنه لما اعتزم كورش الثاني غزو بلاد ماسّاجيتاي (في شرقي أفغانستان)، كتبت ملكة ماسّاجيتاي إليه رسالة تقول فيها:

"إلى ملك الميديين، قد بلغنا ما أنت عازم عليه، وإنا لمن الناصحين أن تُقلع عن هذا الأمر"[2]

1- محمد عبد الحميد الحمد: الديانة اليزيدية، ص ٢٦.

2- دياكونوف: ميديا، ص ١٢٦.

وحينما تأهّب الملك الفارسي أَحْشَوِيرَش بن دارا الأول لمغادرة تسّاليا (في بلاد اليونان) متوجّهاً إلى هَيلْسبونت (مضيق الدَّرْدَنيل) وراجعاً إلى آسيا، قَدِم موفد إسبارطي وخاطبه بقوله: "**يا ملك الميديين**"[1] وأرسل أهل إسبارطا رجلين منهم إلى العاصمة الفارسية (سُوسا) لمقابلة أحشويرش، وقدّما نفسيهما ليفعل بهما ما يشاء؛ انتقاماً مما فعله الإسبارطيون برسل دارا الأول، حينما أرسلهم طالباً التراب والماء رمزي الخضوع، فقالا للملك:

"**يا ملك الميديين، قد أرسلنا أهل إسبارطا إليكم؛ لتترلوا بنا عقابكم جزاء قتلِ رسلِ الفرس**"[2]

واشتهر الميديون أيضاً بأزيائهم، ومعروف أنه في أزياء كل شعب تتلخّص أمور ثلاثة: البيئة الجغرافية، والرؤية الجمالية، والقيم الخلقية، وهذا هو الملاحَظ في الزي الميدي، إنه كان يتصف بالأناقة والجمال، بمقاييس ذلك العصر طبعاً، إلى درجة أنه كان معروفاً على النطاق الإقليمي والعالمي، وكان معظم الفرس يلبسون الملابس الميدية، ويتحلّون بالحلي الميدية، قال هيرودوت يصف الفرس:

"**وليس هناك كالفرس شعبٌ يَنْزِع إلى الأخذ بمناهج مَن هو غريب عنه، فهم يرتدون أزياء الميديين مثلاً، لاعتقادهم بأن تلك الأزياء أكثر أناقة من أزيائهم** "[3]

ووصف هيرودوت لباس الفرس وعتادهم في الجيش الذي قاده أَحْشَوِيرش بن دارا الأول لمهاجمة اليونان، فذكر أنهم كانوا يرتدون:

"**القبّعةَ المثلّثة وهي من اللبّاد الناعم، والقميص المطرّز مع أكمامه، وفوقه الدرعُ الذي يبدو كحراشف السمك، والسروالُ، وأمّا عَتادُهم فهو التُّرْسُ المصنوع من قضبان الصفصاف، وتحته المقلاعُ والرمح القصير،**

1- المرجع السابق، ص ٦٢٨.

2- المرجع السابق، ص ٥٣٨.

3- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٦.

والقوسُ القوية، والسهامُ المصنوعة من الخَيْزُران، والخنجرُ المربوط بالنطـــاق على الفخــذ اليمنى"[1]

وأضــاف هيرودوت أن الفــرقة الميــدية في جيش أَحْشَوِيرَش كانــت ترتــدي الزيّ نفسه، وتتسلّح بالعتــاد ذاته، وأكّد أن **"هــذا النمط مــن اللبــاس ميــديُّ الأصل، وليس زيّاً فارسيّاً بأيّ شكل"**[2]

وذكر هيرودوت أيضاً أن الحلفاء الفرس السبعة الذين ثاروا على گُوماتا (سَمِيرديس) الميدي (بعد أن سحب أُوتانيس نفسه من الترشح للمَلَكية): **"اتفقوا إذا أصبح المَلِــك واحداً منهم أن يتلقّى أوتانيس وسلالته سنوياً بِذّة من الثياب الميدية، وهدايا أخرى لها أسمى اعتبار عند الفرس"**[3]. وفي تراقيا **"ولما وصل أحشويرش وجيــشه إلى أكــانثوس أظهر الصداقة لأهلها، وقدم لهم هدية من الأزياء الميدية"**[4]

وذكر دياكونوف أن الزي الميدي كان يتألف من **"رداء طويل، له أكمام طويلــة مرتفعة، وسروال مَطويّ الثنايا، بأذيال طويلة، مع روب قصير من قطعــة أخــرى ملوّنة، ومصنوعة من الحرير، ويلبسون الطاقيات العالية، وكانــت هــذه أزيــاء الفرسان الأريزانت، وكان المواطنون في ميديا الغربية والمركزية يستخدمون هــذه الملابس في النصف الأول من الألف قبل الميلاد، أما في شرق هذه البلاد فإنهم كانوا يستخدمون هذه الملابس من القدم، هذه الملابس للأقوام الميدية الشرقية كانت سائدة في جميع أنحاء أراضي ميديا بشكل رسمي، وفي القرن السادس قبل الميلاد كان الفرس أيضاً يلبسون هذه الملابس**

1- المرجع السابق، ص ٥١٥.

2- المرجع السابق، ص ٥١٦.

3- المرجع السابق، ص ٢٥٩.

4- المرجع السابق، ص ٥٣١

5- دياكونوف: ميديا، ص ٣٤٨ – ٣٤٩. والأريزانت قبيلة ميدية.

وعدا شهرة الزي الميدي فقد ذكر دياكونوف أن أرض ميديا، وتحديداً الـــسفوح الغربية لجبال زاغروس (حيث تقع كركوك الآن)، كانت أول منطقة في العالم تنـــضح بالنفط، ويقول:

"وفي الأزمنة القديمة، حتى في أوربا، كانوا يسمون النفط بـــ (الزيت الميدي)"[1]

1- المرجع السابق، ص ٨٩.

فهرس المصادر والمراجع

١. ابن الأثير (عز الدين): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

٢. الدكتور أحمد الخليل: تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية، دار هيرو للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧ م.

٣. أحمد عَدْوان: الدولة الحَمْدانية، المنشأة العربية، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

٤. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ترجمة الدكتور أحمد الخليل، دار هيرو للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٥. أرنولد توينبي: مختصر لدراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شِبْل، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

٦. أفستا، إعداد الدكتور خليل عبد الرحمن، مطبعة دار الحياة، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٧. ألبرت كيرك كريسون: الكتابات الملكية لآشور ناصربال الثاني، ترجمة صلاح سليم علي، دار ادي شير للنشر والإعلام، أربيل، ٢٠٠٤م.

٨. أنطون مورتكارت: تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب توفيق سليمان، علي أبو عَسّاف، قاسم طُوَيْر، ١٩٥٠م.

٩. جرنوت فيلهلم: الحوريون تاريخهم وحضارتهم، ترجمة وتعليق الدكتور فاروق إسماعيل، دار جَدَل، حلب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

١٠. جفري بارندر (مشرف على التحرير): المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣م.

١١. جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة محمد طلب، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

١٢. جيمس هنري برستد: انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٥م.

١٣. حامد عبد القادر: الأمم السامية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨١م.

١٤. حامد عبد القادر: زرادشت الحكيم نبي قدامى الإيرانيين (حياته وفلسفته)، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٩٥٦م.

١٥. حسين قاسم العزيز: البابكية، دار المدى، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

١٦. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩م.

١٧. الدكتور خليل جندي: الأيزدية والامتحان الصعب، دار آراس للطباعة والنشر، أربيل، كردستان العراق، ٢٠٠٨ م.

١٨. دياكونوف: ميديا، ترجمة وَهْبِيّة شَوْكَت، رام للطباعة والتوزيع، دمشق.

١٩. الزَّبيدي (مُحبّ الدين): تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.

٢٠. سامي سعيد الأسعد، ورضا جواد الهاشمي: تاريخ الشرق الأدنى القديم، إيران والأناضول، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق.

٢١. سيغموند فرويد: الطوطم والتابو، ترجمة بو علي ياسين، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

٢٢. صموئيل نوح كريمر (نشر وقدم له): أساطير العالم القديم، ترجمة دكتور أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

٢٣. الأستاذ طه باقر، الدكتور فوزي رشيد، الأستاذ رضا جواد هاشم: تاريخ إيران القديم، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٩م.

٢٤ دكتور عبد الحميد زايد: الشرق الخالد (مقدمة في تاريخ وحضارات الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م)، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.

٢٥ الفِرْدَوْسي (أبو القاسم): الشاهْنامَه ملحمة الفرس الكبرى، ترجمة سمير مالطي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٦م.

٢٦ ل. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، الحضارتان البابلية والآشورية، ترجمة مُحَرَّم كمال، المطبعة النموذجية.

٢٧ مجموعة من الباحثين: كركوك (بحوث الندوة العلمية حول كركوك)، دار آراس، أربيل، كردستان، ١ ٢م.

٢٨ محمد عبد الحميد الحمد: الديانة اليزيدية بين الإسلام والمانوية، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، ط١، ٢٠ ٢م.

٢٩ محمد عبد القادر: إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

٣٠ م. روزنتال (إشراف): الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

٣١. مروان المُدَوَّر: الأرمن عبر التاريخ، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

٣٢ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، الطبعة الخامسة، ١٩٧٣م.

٣٣ المقدسي (مُطَهَّر بن طاهر): البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٧٠م. (الكتاب منسوب إلى أبي زيد أحمد بن سَهْل البَلْخي).

٣٤ نوري إسماعيل: الديانة الزردشتية (مزديسنا)، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ١٩٩٩م.

٣٥ هارڤي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، مكتبة مَدْبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

٣٦. هــ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧-١٩٧٢م.

٣٧. هديب غزالة: الدولة البابلية الحديثة (٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م)، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.

٣٨. الهَمَذاني (رشيد الدين): جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

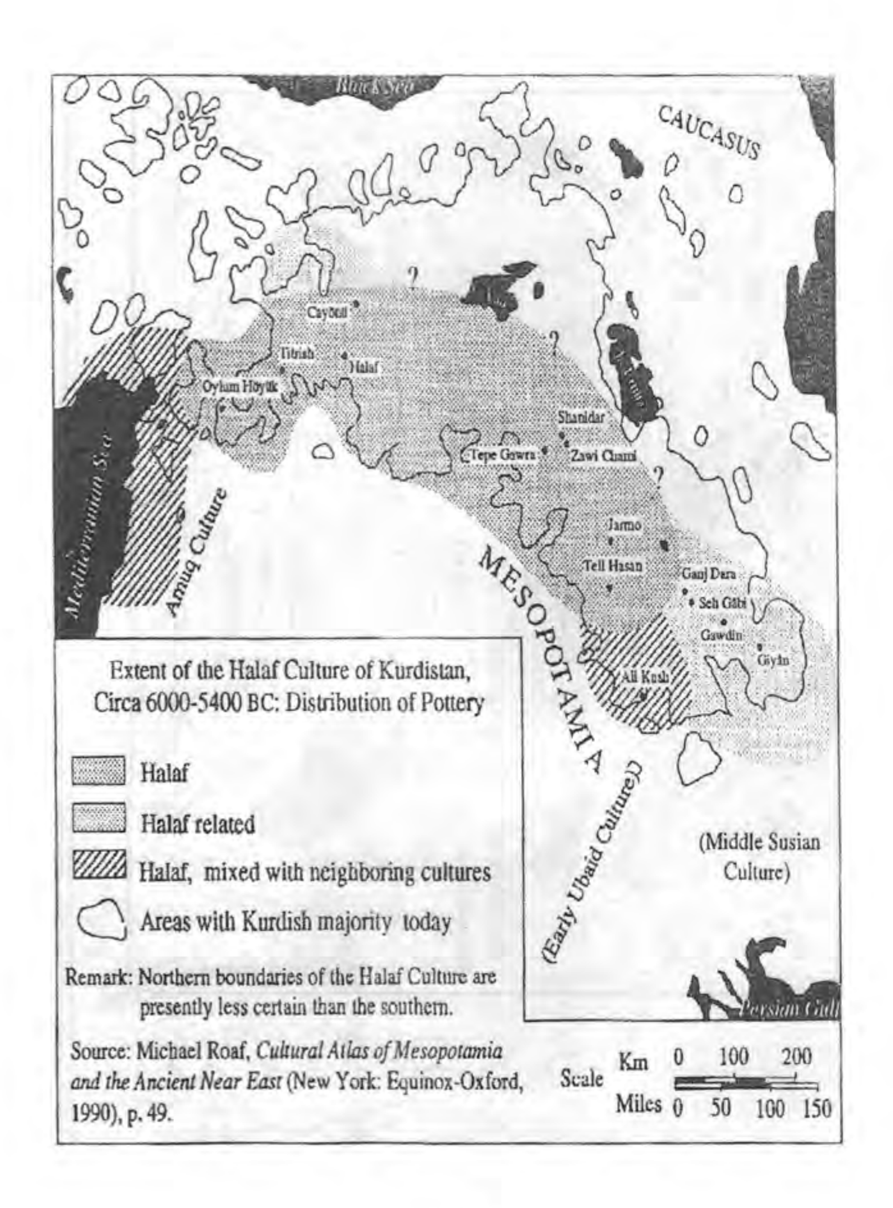
٣٩. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله المَلاّح، المجمَّع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١م.

٤٠. ول ديورانت: قصة الحضارة، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية.

٤١. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، أشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٤٢- Mehrdad R. Izady: The Kurds, Crane RussakWashington, Philadelphia, London, 1992.

ملحق الخرائط

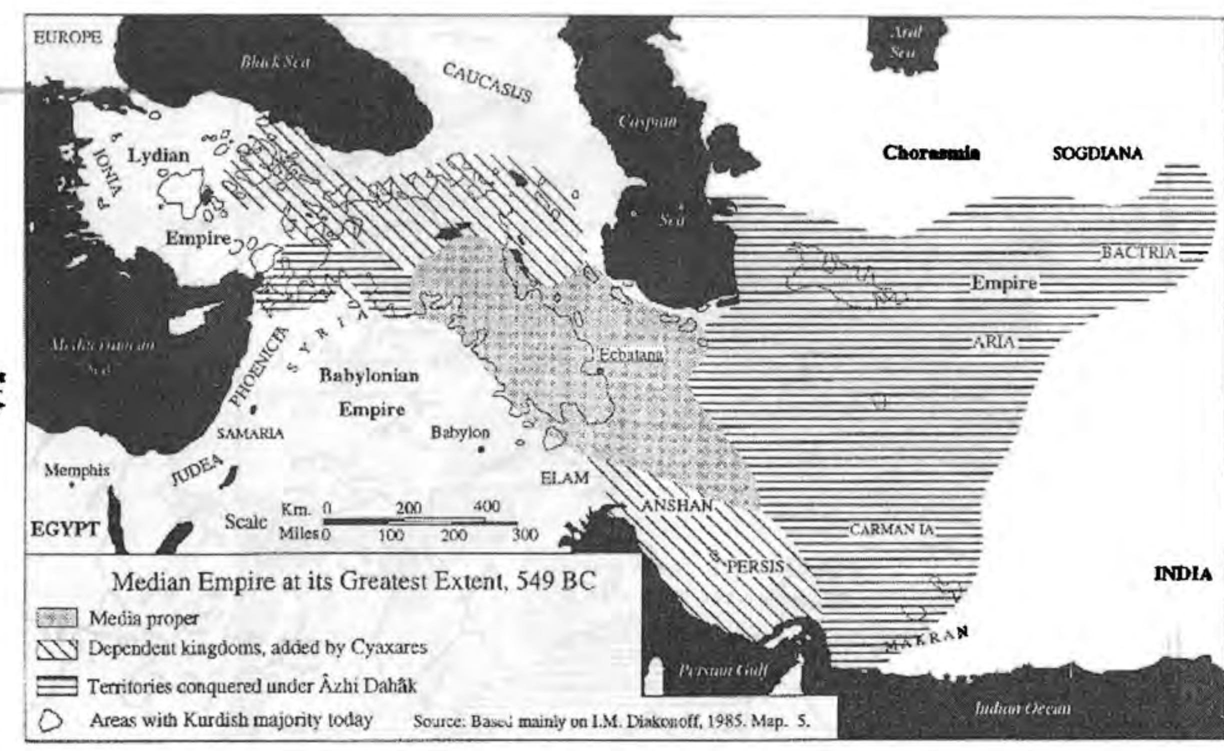


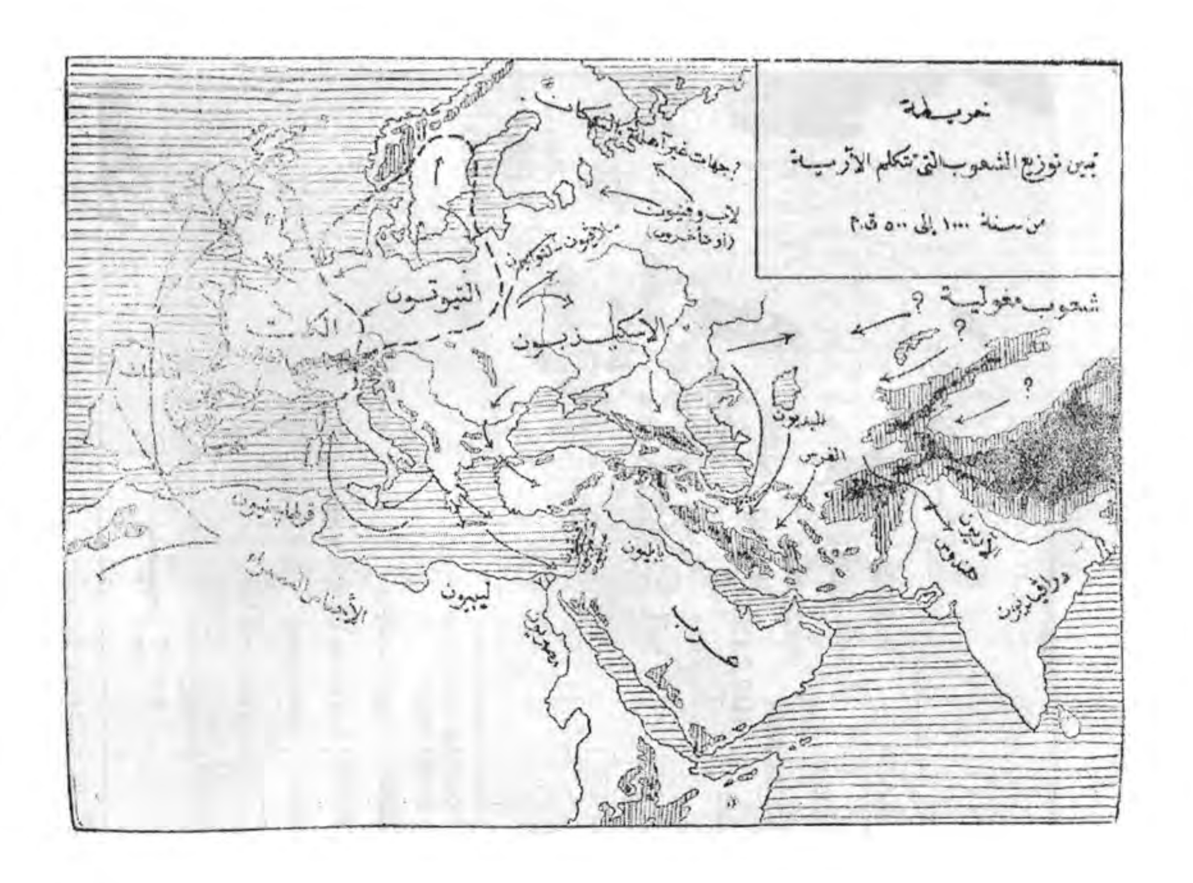
Black Sea
CAUCASUS
Caybnu
Tilrish
Halaf
Oylum Hoyük
Shanidar
Tepe Gawra
Zawi Chami
Jarmo
Tell Hasan
Ganj Dara
Seh Gabi
Gawdin
Giyan
Ali Kosh
Mediterranean Sea
Amuq Culture
MESOPOTAMIA
(Early Ubaid Culture)
(Middle Susian Culture)
Persian Gulf
Extent of the Halaf Culture of Kurdistan,
Circa 6000-5400 BC: Distribution of Pottery
Halaf
Halaf related
Halaf, mixed with neighboring cultures
Areas with Kurdish majority today
Remark: Northern boundaries of the Halaf Culture are presently less certain than the southern.
Source: Michael Roaf, Cultural Atlas of Mesopotamia and the Ancient Near East (New York: Equinox-Oxford, 1990), p. 49.
Scale
Km 0 100 200
Miles 0 50 100 150

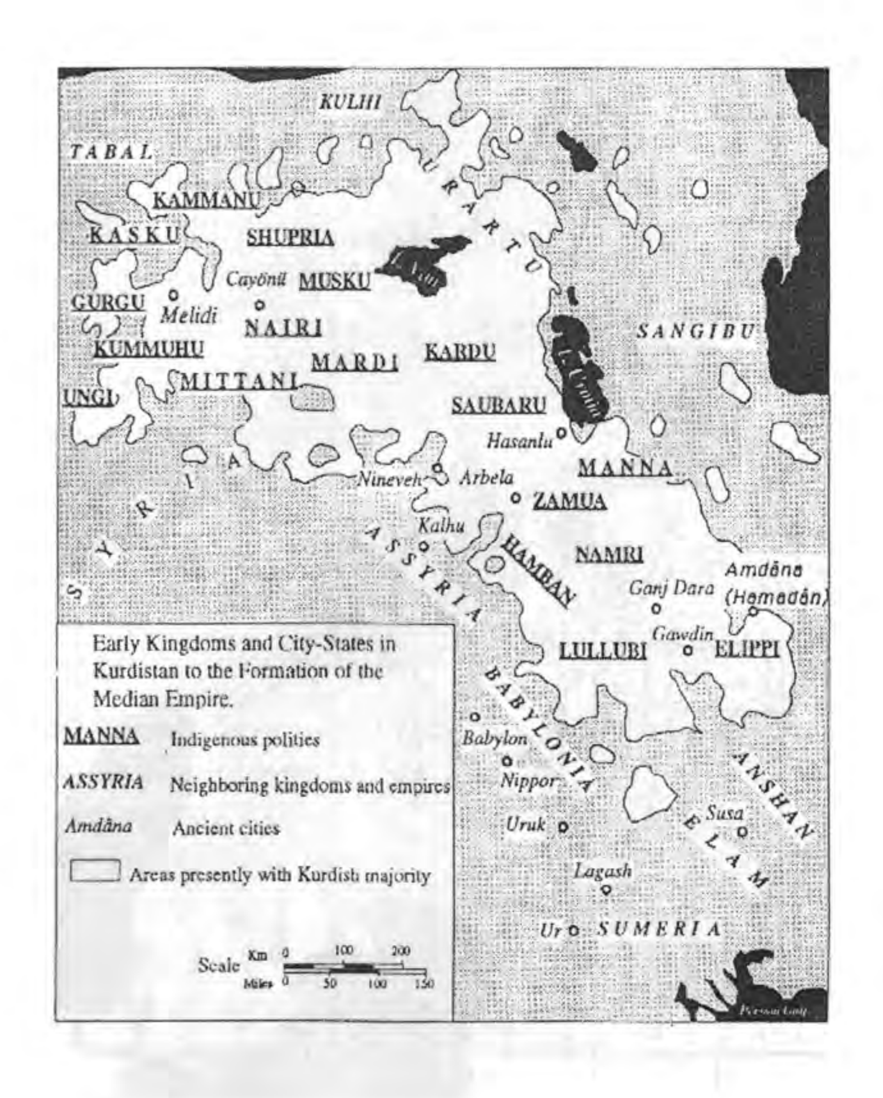

PHRYGIA
فريجيا
LYDIA
ليديا
URARTU
أورارتو
LAKE VAN
LAKE URMIA
بحيرة أورميا
N
TAURUS MTS
ZAGROS MTS
Carchemish
Aleppo
Khorsabad
Nineveh
نينوى
Nimrud
Ashur
آشور
MEDIA
MEDITERRANEAN SEA
البحر المتوسط
Damascus
Jerusalem
Dur-Kurigalzu
Babylon
بابل
CHALDAEANS
Tigris
Susa
ELAM
Euphrates
الفرات
Memphis
ARABIAN GULF
Assyria c 800 BC
- آشور ٨٠٠ ق.م.
Assyria c 750 BC
- آشور ٧٣٠ ق.م.
maximum extent Assyrian empire 700-650 BC
200 ml
400 km

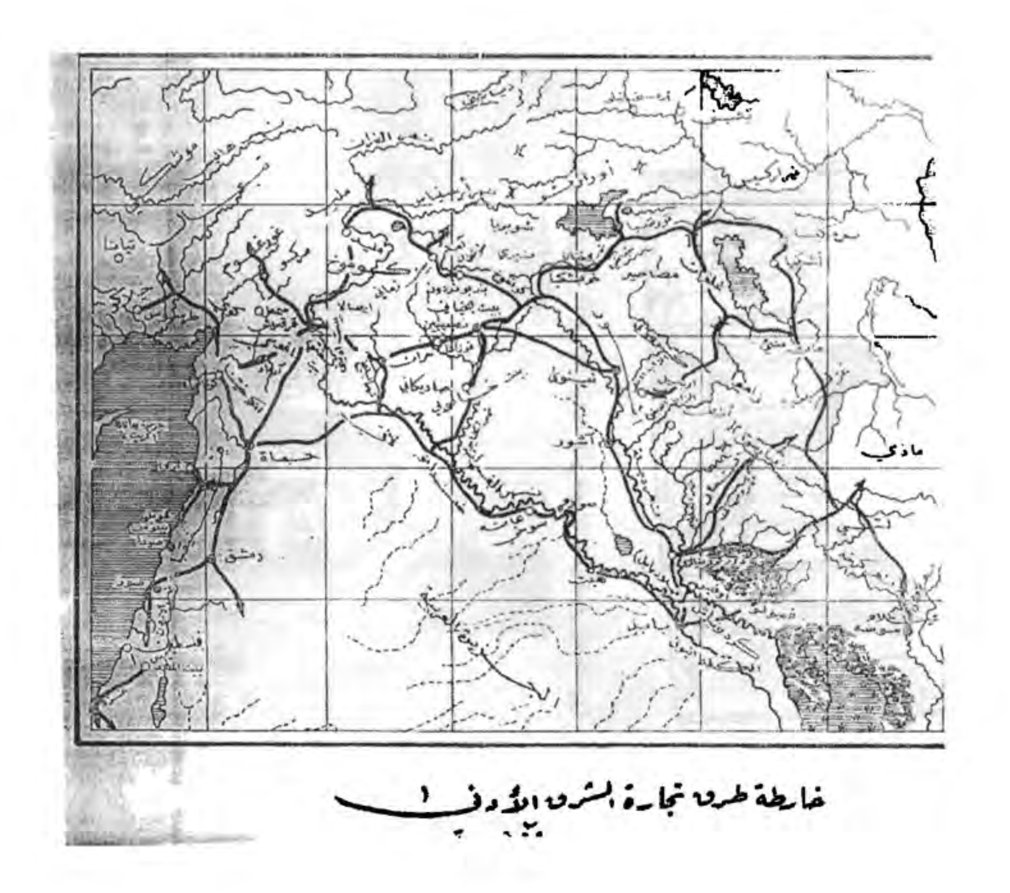


بحر قزوين
بحيرة أورميه
پارسوا
منّاي
مادای
ماندا
طهران
تبة جيسار (دمغان)
خراسان
سيالك (كاشان)
صحراء الملح
أكبتانا (همذان)
كاشو
سوسة
أوان
أصفهان
أنشان (أنزان)
پارسوماش
پارسا
پارجاديا
پرسوبوليس
شيراز
الخليج العربي
بحر
كارون
الكرخة
الفرات
دجلة
بابل
أربيلو
كيلومتر

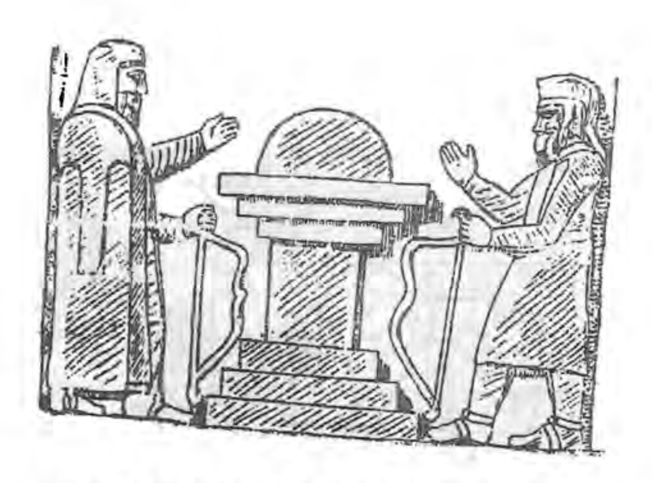

EUROPE
Black Sea
CAUCASUS
Caspian Sea
Aral Sea
Chorasmia
SOGDIANA
Lydian Empire
IONIA
BACTRIA
Empire
ARIA
Mediterranean Sea
PHOENICIA
SYRIA
Babylonian Empire
SAMARIA
Babylon
Echatana
Memphis
JUDEA
ELAM
EGYPT
Scale Km. 0 200 400
Miles 0 100 200 300
ANSHAN
CARMANIA
PERSIS
INDIA
MAKRAN
Persian Gulf
Indian Ocean
Median Empire at its Greatest Extent, 549 BC
Media proper
Dependent kingdoms, added by Cyaxares
Territories conquered under Âzhi Dahâk
Areas with Kurdish majority today
Source: Based mainly on I.M. Diakonoff, 1985. Map. 5.


خريطة
تبين توزيع الشعوب التي تتكلم الآرية
من سنة ١٠٠٠ إلى ٥٠٠ ق.م.
شعوب مغولية ؟
لاب وفينيون
(أو جماعات أخرى)
التيوتون
الإسكيذيون
الميديون
الفرس
الآريون
هندوس
درافيديون
عرب
بابليون
ليبيون
الأجناس السمراء


KULHI
TABAL
KAMMANU
KASKU
SHUPRIA
URARTU
Cayönü
MUSKU
L. Van
GURGU
Melidi
NAIRI
SANGIBU
KUMMUHU
MARDI
KARDU
MITTANI
UNGI
SAUBARU
Hasanlu
SYRIA
MANNA
Nineveh
Arbela
ZAMUA
Kalhu
ASSYRIA
HAMBAN
NAMRI
Amdâna
(Hamadân)
Ganj Dara
Gawdin
LULLUBI
ELIPPI
BABYLONIA
Babylon
Nippor
ANSHAN
Uruk
Susa
ELAM
Lagash
Ur
SUMERIA
Early Kingdoms and City-States in Kurdistan to the Formation of the Median Empire.
MANNA Indigenous polities
ASSYRIA Neighboring kingdoms and empires
Amdâna Ancient cities
Areas presently with Kurdish majority
Scale
Km 0 100 200
Miles 0 50 100 150



خارطة طرق تجارة الشرق الأدنى



رسم محفور على القبر الحجري لـ (قز قاپان) لـ كياكسار (كيخسرو)



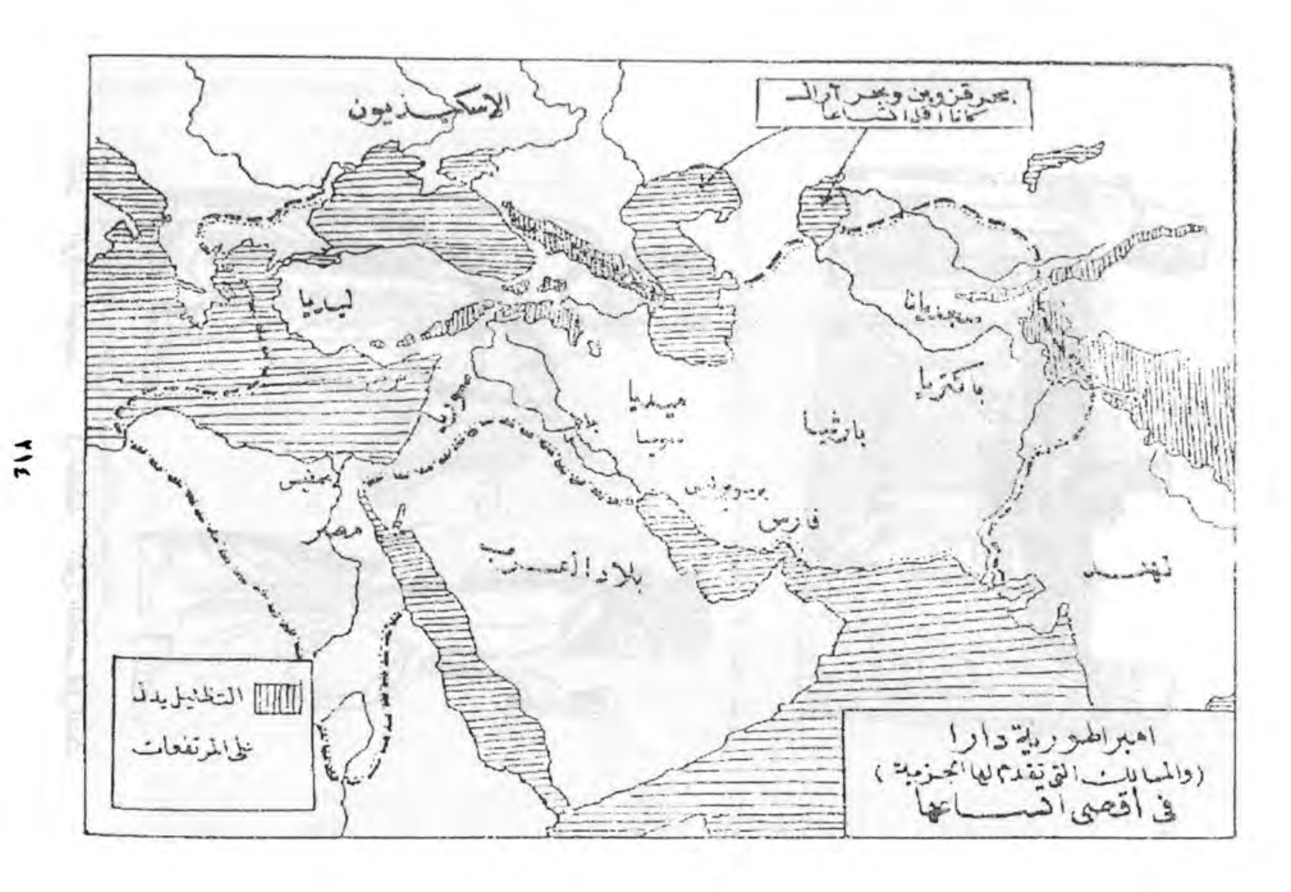
الثائر الميدي ضد الأخمينيين (فروورتيش) مأخوذ من حجر بهستون

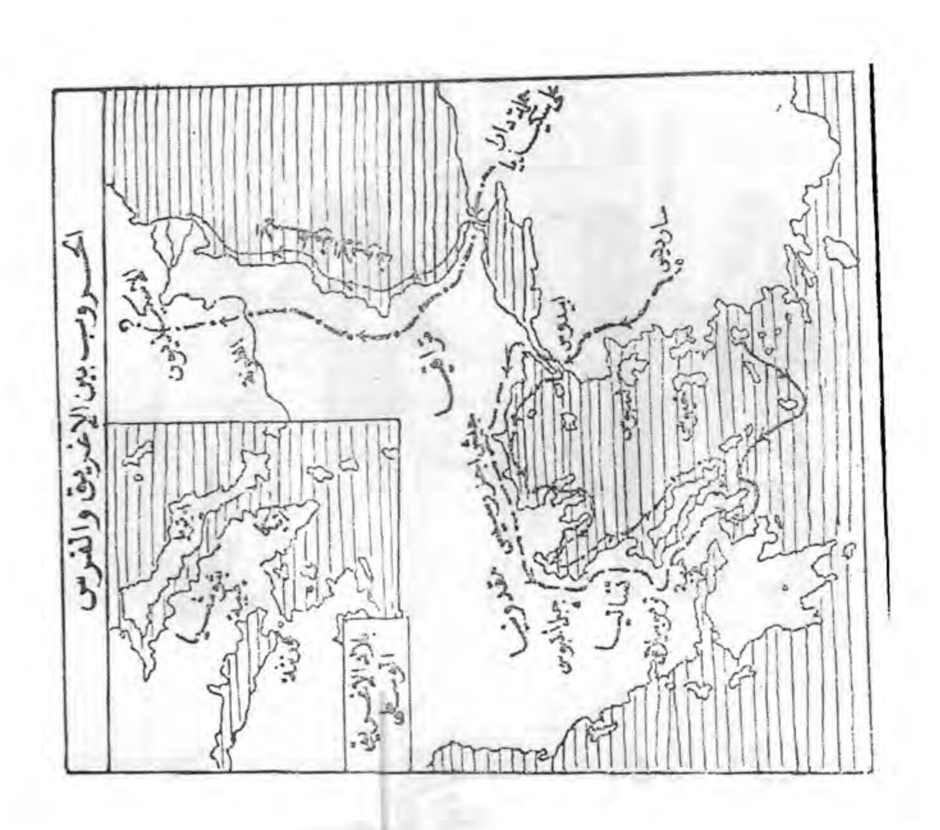


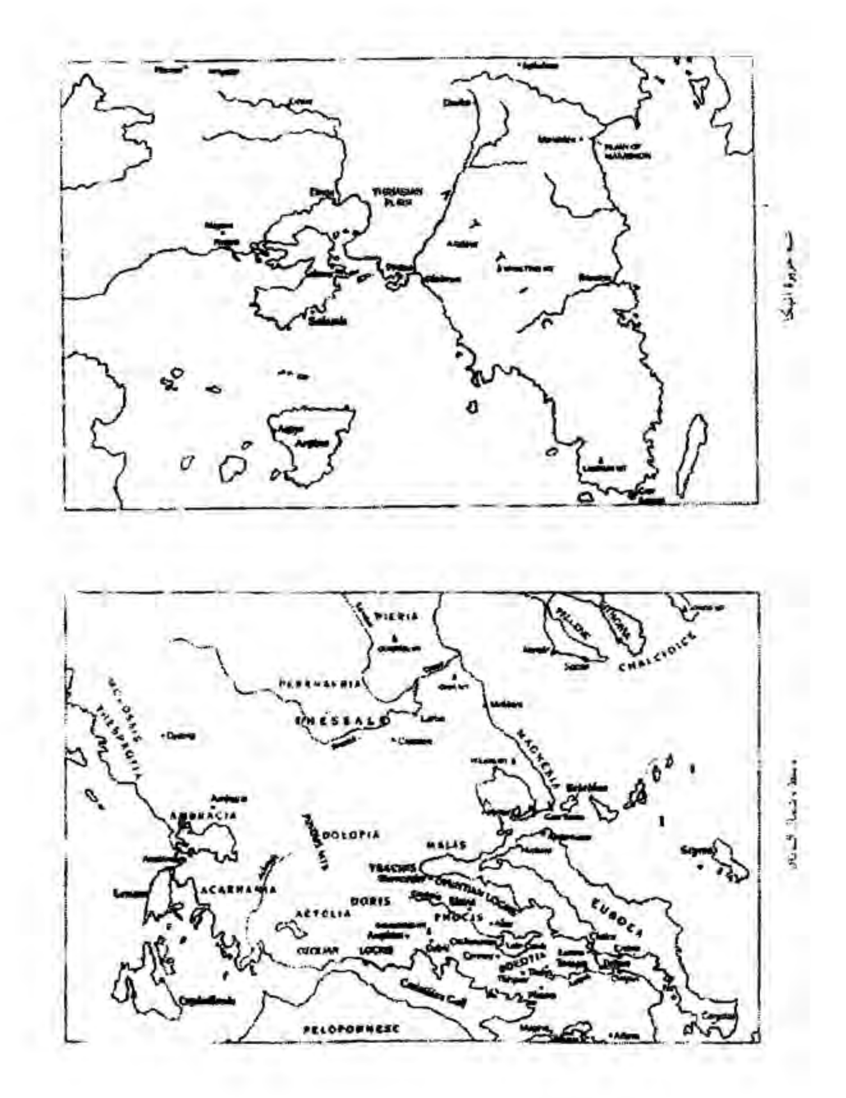
آهورا مازدا

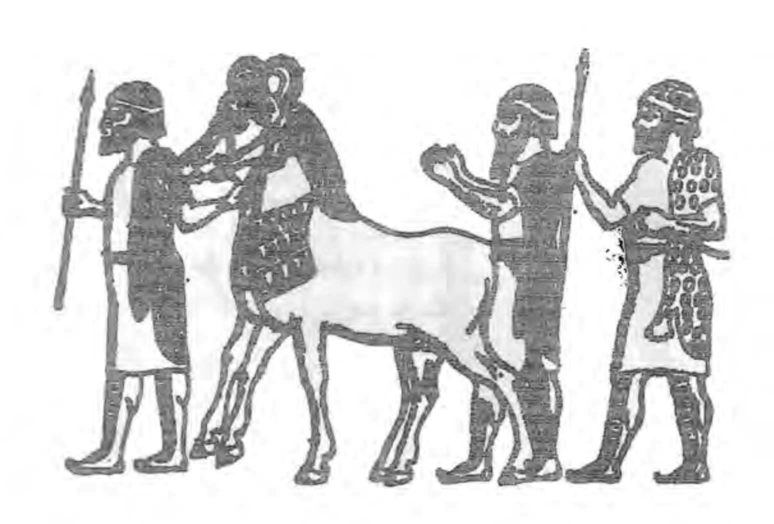


اثنانَ من الرؤساء الميديين مرسوم في استيلك من القرن الخامس قبل الميلاد


الاسكيذيون
بحر قزوين وبحر آرال
كانا أقل اتساعا
ليديا
ميديا
بارثيا
باكتريا
فارس
بلاد العرب
الهند
مصر
ممفيس
التظليل يدل
على المرتفعات
امبراطورية دارا
(والممالك التي تقدم لها الجزية)
في أقصى اتساعها


الحروب بين الإغريق والفرس
تراقيا
مقدونيا
تساليا
سارديس
بلاد الإغريق
الوسطى


Salamis
PIERIA
THESSALY
DOLOPIA
MALIS
DORIS
AETOLIA
ACARNANIA
PHOCIS
EUBOEA
MAGNESIA
CHALCIDICE
PELOPONNESE



هجرة الميديين في العصر السرجوني
نحو بلاد مانا



موغ يحمل خروفا للضحية على حجر محفور في استهلك القرن
الخامس قبل الميلاد



موغ يحمل وعاء من طعام علوما مرسوم في استهلك القرن الخامس قبل الميلاد



تمثال لموغ من خزينة اموبريا القرن الرابع قبل الميلاد



ملابس الميديين من اليسار إلى اليمين رأس آشور – واحد من نبلاء ميديا – رجل لولي – رجل ميدي

مأخوذ من نقش أنو بانيني. القرن الثامن إلى الخامس قبل الميلاد



محاربان ميديان يصارعان اثنين من السكيث



فارسان من قبائل الساكا ((السكيث))



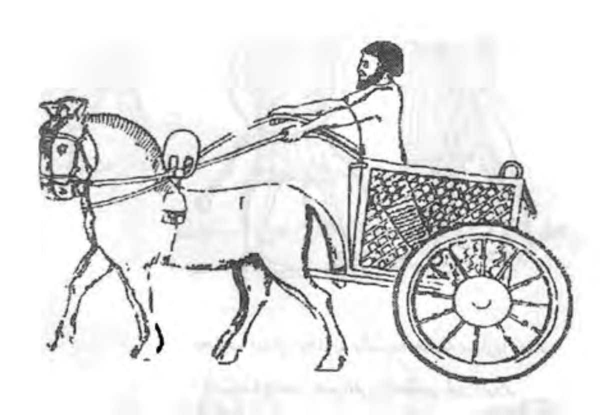
محارب ميدي يحارب بأسلحة خفيفة محاربا يونانيا

مأخوذ من ختم القرن الخامس قبل الميلاد



محارب ميدي يصرع محاربا يونانيا

مأخوذ من ختم القرن الخامس قبل الميلاد



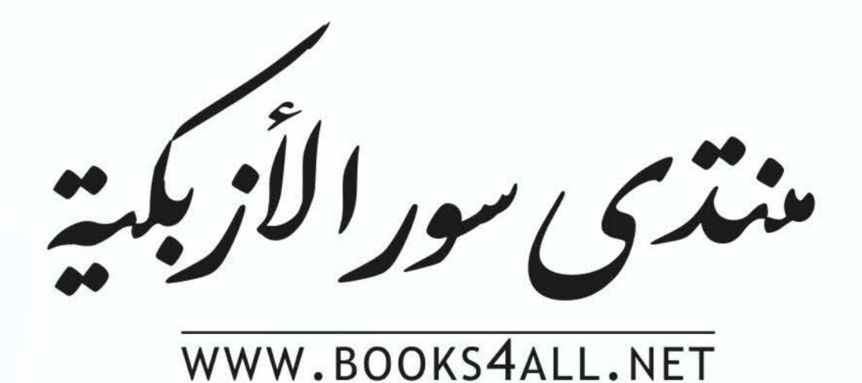
عربة للميديين يجرها فرس من برسبوليس استيل القرن

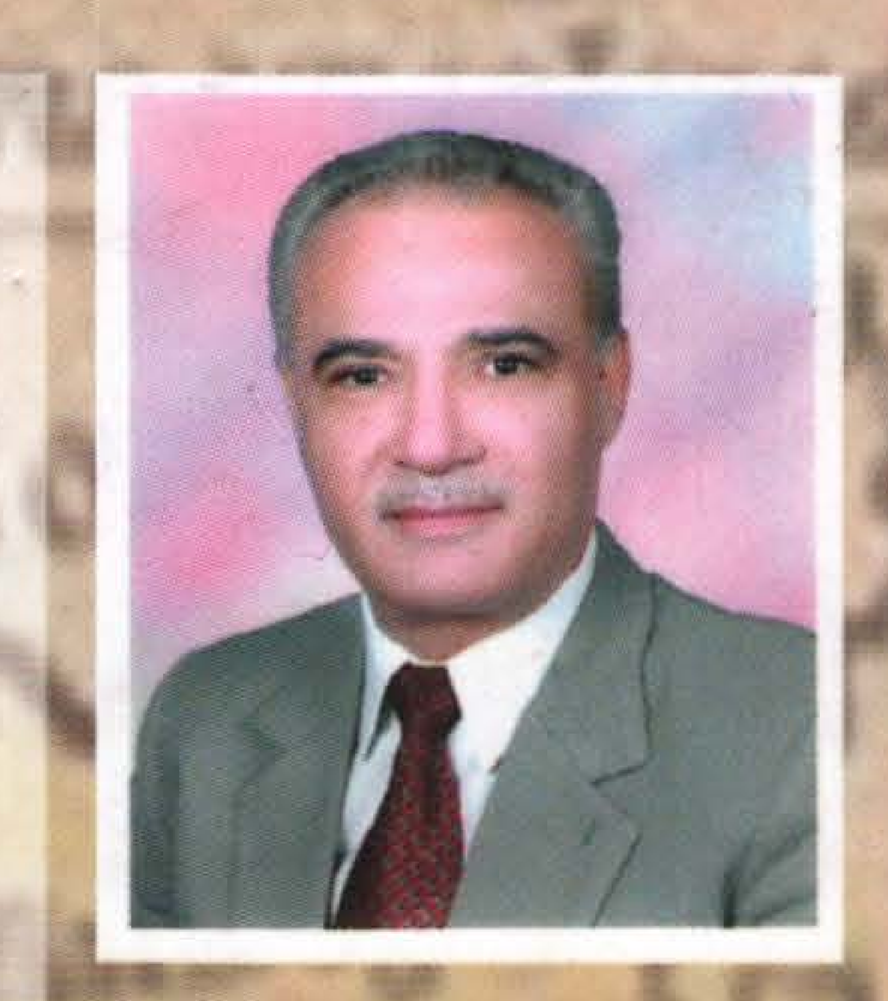
الخامس قبل الميلاد



ملابس الميديين من اليسار إلى اليمين رأس أسير – واحد من نبلاء ميديا – رجل لولي – رجل ميدي

مأخوذ من نقش أنو بانيني. القرن الثامن إلى الخامس قبل الميلاد


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET



نبذة عن المؤلف

أحمد محمود الخليل، من قرية Korzêl منطقة عِفرين (كزد داغ = جبل الكرد)- محافظة حلب- سوريا، حاصل على دكتوراه في الأدب العربي، مهتم بالدراسات النقدية والتاريخية، نشر مقالات نقدية وتاريخية وتربوية في مجلات مختلفة، له مشاركات في عدد من المؤتمرات والندوات والمحاضرات، حاصل على جائزتين علميتين، من مؤلفاته المنشورة:

- في النقد الجمالي.
- فلسفة الجمال وجغرافيا الذات.
- الشعر الجاهلي (قراءة سيكولوجية).
- الميثولوجيا والهوية في شعر الهنود الحمر (ترجمة ودراسة).
- موسوعة الميثولوجيا والأديان العربية قبل الإسلام.
- الكون الشعري: مسارات ومدارات.
- القبائل الكردية (ترجمة).
- الكرد وكردستان (ترجمة).
- تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية.
- عباقرة كردستان في القيادة والسياسة.
- سياحة في ذاكرة جبل الكرد (كرد داغ).
- سيَر أعلام الكرد في التراث العربي: (اللغويون- الأدباء والنقاد-الموسيقيون).



دەزگای توێژینەوەو بڵاوکردنەوەی موکریانی

MUKIRYANI ESTABLISHMENT FOR RESEARCH & PUBLICATION

www.mukiryani.com

٢٠١١

چاپخانەی ڕۆژهەڵات/هەولێر